إعارة داخلية

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد خيضر – بسكرة –

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم الأدب العربي

جامعة محمد خيضر - بسكرة
كلية الاداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية
المكتبة
رقم تصنيف الرجاء: 255/أ/ب
رقم التسجيل: 385

جامعة محمد خيضر بسكرة
مكتبة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

الزهد في شعر أبي إسحاق الإلبيري

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب المغربي والأندلسي

إعداد الطالب:

بودي عبد الحميد

إشراف الدكتور:

فورار امحمد بن لخضر

أعضاء لجنة المناقشة

الرقم	اللقب والاسم	الرتبة	الجامعة	الصفة
01	مفقودة صالح	أ.ت. ج	بسكرة	رئيسا
02	فورار امحمد بن لخضر	أ.محاضر	بسكرة	مشرفا ومقررا
03	جابه الله أحمد	أ.محاضر	باتنة	عضوا
04	محمد عبد الهادي	أ.محاضر	بسكرة	عضوا

السنة الجامعية :2009/2008 م

شكر

الحمد لله الواحد الوهاب ، وخالق آدم من تراب، والصلاة والسلام على سيّد الخلق وخاتم الأنبياء والرّسل محمد بن عبد الله.

أبلغ عبارات الشكر والامتنان أتقدم بها إلى أستاذي الدكتور: أمحمد بن لخضر فرار عرفانا مني بجميله على شخصي، وتقديرا لحرصه الكبير على هذه الدراسة التي أحاطها بعناية كبيرة ،إذ بفضل الله أولا ثم بفضله قُدّر لها الاكتمال. فجزاه الله عنّي وعنها خير الجزاء في الدنيا والآخرة.

كما لا أنسى أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الصديق : عبد القادر رحيم على كريم أفضاله وجزيل عطائه ، فله مني كل حب وتقدير .

ودون أن أغفل كذلك أن أتوجه بعبارات الود والثّناء إلى إدارة قسم الأدب العربي على حسن رعايتها وتوجيهها، وإلى كل الأصدقاء الذين كانوا لي نعم المعين.

عبد الحميد

فهرس الموضوعات:

مقدمـة:.....(أ .ب.ج.د.هـ)
مدخـل:.....06
الفصل الأول :مضامين الزهد في شعر أبي إسحاق الإلبيري:
تمهيـد:.....27
الزهد في الدنيا:.....31
الزهد في المال: 48
مجاهدة النفس (التقوى /القناعة) :.....55
ثنائية الخوف والرجاء:..... 66
ذكر الموت و اليوم الآخر:..... 75
الدعوة إلى العلم وتوظيف العقل :.....82
التوبة والاستغفار:.....91
الفصل الثاني:آليات البناء الفني في شعر الزهد عند أبي إسحاق الإلبيري:
تمهيـد:.....99
اللغـة:.....102
الصورة الفنية:.....119
الموسيقى الشعرية:.....143
خاتمـة:.....168
قائمة المصادر والمراجع:.....172
فهرس الموضوعات:.....179

إنَّ التحلي بالأخلاق الفاضلة والتّمسك بالخصال الحميدة والدعوة لها ، من المبادئ الجوهرية في الإسلام وتعاليمه ،الذي حرص على تزويد المجتمع بمنظومة من القيّم الخُلقية، والتي تؤسّس لقواعد يتمّ على أساسها تربية النّفس البشرية وتهذيبها، كالتّقوى والقناعة والصّدق في الحديث والعمل...الخ.

وعلى هذه القيم اتّكأ شعر الزهد كفن تعبيري جديد ارتبط ظهوره بالقرن الثاني الهجري كغرض قائم بذاته في الأدب العربي ،جاء ليعبر عن مشاغل نخبة من الشعراء شبّت على تقديس تعاليم القرآن ومتخلّقة بأخلاق الإسلام .

انطلاقا من هذه المرجعية يعدّ الزهد قيمة إسلامية خالصة يستمد أصوله من مفاهيم الإسلام ومبادئه ، وهو في معناه اللغوي يدور في معان عدة منها: أنّه ضدّ الرّغبة ، والزّهيد هو القليل.

أمّا في معناه الاصطلاحي ، فيعني الاتّجاه إلى الله ،وعدم الاشتغال بالدنيا والانقطاع عن الشّهوات ، ونهي النّفس عن الهوى بالقناعة والتّقوى، و التّحلي بأخلاق الدّين الإسلامي والعودة إلى منابعه الرّوحية وقيّمه السّمحة .

هذه السّمة الرّوحية التي لازمته واتّصف بها ، ساهمت في حركته الانسيابية وسط فحول شعراء المشرق . أبي العتاهية مثلا . الذين نزعوا إليه كغرض شعري كامل النّضج أوقفوا شعرهم عليه وحده دون غيره من الأغراض ، الأمر الذي أسهم في سرعة امتداده من شعراء المشرق إلى مختلف شعراء الأقاليم الإسلامية ، خاصة شعراء الأندلس ، بحكم أنّ كثيرين منهم كانت نفوسهم مهيّأة لهذا اللون من الشعر، ولثقافتهم الدينية ، فقالوا فيه وأطنبوا ، وبرعوا وتميّزوا عن غيرهم في شعر الزهد ، وذلك من حيث غزارته وتوليد معانيه ، ورسم صوره القوية المؤثّرة.

فقد عرف الشعر الأندلسي الاتّجاه الزّهدي في العصور الأولى، لمَّا آثرته نخبة من الشعراء و نزعت إليه، كابن عبد ربّه وابن أبي زمنين وابن الرّيوالي الفقيه المحدِّث وعلي بن إسماعيل الفهري القرشي و السّميسر...الخ.

وكان حينئذ يرتبط كثيرا بالشعر التّعليمي ، أو يصدر عن دواعي الشّيخوخة وما تحدثه من خوف الموت وما بعده.

ومع توالي السّنين وتعاقب الأحداث ، تنوّعت بواعثه واختلفت بعض الاختلاف، فقد شحذته فوضى الحياة السياسية ، وزادت في حب الخلاص لدى الفرد من مباهج الحياة، وشجّعته على طلب النّجاة لنفسه ، حين كان يرى الأوضاع الاجتماعية تزداد سوءا وترديا.

فقد انتحاه بعضهم لشعورهم بالتّقمة على حظّه السَّيئ من الدّنيا وثورته على الناس، ويعدّ السّميسر من أبرز شعراء هذا الاتّجاه ، وصنف آخر من شعر الزهد يصدر عن علماء أتقياء عاملين بعلمهم ، دافعهم في ذلك الإصلاح والتّربية ، كابن الريوالي .

على أنَّ فارسي ميدان الزهد . على رأي شاكر الفحام . اللذين أبدعا فيه وجعلا منه فنّا قائما بذاته، هما ابن العسّال وأبو إسحاق الإلبيري الفقيه الزاهد.

هذا الوصف استرعى اهتمامنا ، وحفّزنا على تقفِّي سيرة أبي إسحاق الإلبيري ودراسة شعره ، والذي نراه جديرا بالبحث والدّراسة لعدّة أسباب نذكر منها :

أولا: الاستشهاد به كأنموذج لتغيير الصورة النّمطية القاصرة التي تفسّر انتشار حركة الزهد بفاقة انتشرت بين المقبلين عليه، أو حرمان كانوا يعانونه، ذلك أنّ الحياة الاقتصادية في الأندلس خاصة لم تبلغ درجة من الاختلال تقتضي وجود طائفة من الناس تفرمن واقعها إلى ألوان من العبادات تجد فيها بديلا عن الحياة البائسة أو الفاقة المفروضة عليها ، لأنّ كثيرا من الزّهاد الأندلسيين منهم الإلبيري تولّوا مناصبا تتيح لهم فرص الاغتناء ، لكنّهم أداروا لها ظهورهم .

ثانيا : كان الشاعر مبدعا في مجاله ، فهو عند إحسان عباس قد وصل بشعره الزهدي إلى القمة ، لا في الأندلس فحسب ، بل في الأدب العربي عامة، بما أضفى عليه من حرارة الوجد والانفعال والإقرار بالضعف الإنساني أمام مغريات الحياة ومكافحة الشهوة العارمة .

ثالثا :قلة الدّراسات حول هذه الشخصية الشاعرة المنشغلة بقضية المصير والاستعداد ليوم الرحيل بالعمل الصالح والانقطاع إلى العبادة، وتأمّل درجات العقاب ، عدا بعض الإشارات القليلة التي وردت في بعض المصادر والمراجع حول حياته الزاهدة ، وكذا حول موقفه من الوزير اليهودي ابن النّغرلة.

ولعلّ الحكم بتصدّر أبي إسحاق الإلبيري في هذا الاتجاه عند بعض الدارسين . شاكر الفحام . وتميّزه فيه عن غيره من الشعراء ، يدفع بنا إلى طرح بعض الاستفهامات البسيطة أبرزها :

ماهي أهمّ المضامين الزّهدية التي تجلّت في شعره ؟ و ماهي أهمّ الآليات الفنّية التي بُني عليها شعره الزّهدي ؟

للإجابة عن هذه الاستفهامات وغيرها ، حاولنا أن نتناول مختلف الجوانب في شعره من خلال ديوانه ، بغية استكشاف مضمونه . دراسة في المضمون . وبعض الخصائص الأسلوبية التي كان لها الحضور الكثيف والمهيمن على شعره ، مستعينين في ذلك ببعض المناهج النّقدية منها : المنهج التاريخي والتّحليلي والأسلوبي، لأنّ طبيعة موضوع الدراسة تقتضي الاستعانة بهذه المناهج النّقدية ، غايتنا في ذلك بعث هذا الشاعر من الماضي المنسي إلى حاضر البحث والدّرس ، متّبعين في ذلك خطة تُعبّر عن رؤية خاصة نابعة من فهمنا الخاص للموضوع.

فبعد مقدمة البحث هذه، نفتتح الدراسة بمدخل نستعرض فيه أهم المحطات البارزة من حياة الشاعر كونه غير ذائع الصيت خارج إقليمه الأندلس.

بالإضافة إلى ذلك حاولنا في هذا المدخل أن نحصي الأغراض الشعرية التي سجلت حضورها في ديوانه بغية تحديد موقع الزهد ونسبة حضوره وسط هذا الجمع من الأغراض الشعرية.

كما حددنا لهذا البحث فصلين وهما :

أوّلا : فصل مضامين الزهد في شعر الإلبيري، حيث أخضعنا فيه أهمّ قصائد الزهد لعملية تحليلية ، بغية تلمّس أهمّ الموضوعات الزّهدية التي شغلت الشاعر ، كالزهد في الدنيا والخوف والرّجاء والتّوبة وذكر الموت...الخ

و**الآخر**: فصل آليات البناء الفنّي في شعره الزهدي، والذي تعرّضنا فيه بالدّراسة لآلية اللغة والصورة الفنية والموسيقى الشعرية ،وهي دراسة توضّح أهمّ السّمات، وتكشف عن جوانب عدّة في ضوء قيم النّقد الأدبي، ليخلص البحث إلى خاتمة تضم

خلاصة هذه الدّراسة ، وقائمة لأهمّ المصادر والمراجع المعتمدة.

وفي ضوء هذه الخطة التي اتّبعتها الدراسة ، تتجلى لنا أهمية الخلفية الثّقافية التي يجب أن يتسلّح بها الباحث هنا ، حيث إنّنا أمام ظاهرة تتنوع فيها الرّوافد وتتشابك ، فهي إمّا ظاهرة اجتماعية أو مظهرا تعبّديا ، أو نزعة تشاؤمية ، أواتجاها تأمّليا أو أخلاقيا، ومن هنا فلابد من عُدَّة ثقافية متنوعة المظاهر يستند عليها في تجربته هذه، كالثّقافة الدّينية والفهم المستبصر لروح الدين لعلاقته الوثيقة بالزهد ، وهي العُدَّة التي لمسنا ضرورتها في المراحل الأولى لهذه الدراسة ، هذا عدا الثّقافة النّقدية التي لابد منها للدّراسة الفنية تقييما لشعر الزهد ، ووضعا له في مكانه بين الفنون الأخرى للشعر، وهو الدّاعي الذي يجعل من ساحة المصادر والمراجع تتّسع أمامنا ، فلا نقتصر على ديوان الشاعر أبي إسحاق الإلبيري ،وإنَّما على ما توفر لنا من كتب التّراجم والتاريخ والنّقد كنفح الطيب للمقري، وبغية الملتمس للضبي، والتكملة لكتاب الصلة لابن الأبار ، وأعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب، والمُغرب في حلى المغرب لابن سعيد ، وكتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل ، والرسالة القشيرية للقشيري، وكتاب شعر الزهد في العصر العباسي لعبد الستار محمد ضيف، وكتاب من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي لمحمد عويس...الخ، وغيرها من المصادر والمراجع التي لا يّتسع المجال لذكرها كلّها على الرّغم من أهميتها ، والتي كانت بفضل من الله النِّبراس الذي أنار لنا السّبيل لتنتهي الدّراسة إلى هذه الغاية ، وهي غاية لا نرتجي من خلالها إلاّ المساهمة ولو بالنّزر القليل في بعث روح التّواصل و التّلاقح بين الماضي والحاضر، وذلك باستنطاق النّص العربي القديم للوقوف على أبعاده الفكرية وإعادة تشكيلها على النّمط الذي يستسيغه ذوق المتلقي.

لذلك فإن هديت هذه الدراسة إلى طريق الصواب والتوفيق، فبفضل من الله وعونه، ثم بفضل حسن توجيه أستاذي الفاضل الدكتور : أمحمد فورار، الذي جمع بين دقّة الملاحظة وصواب الرّأي وسداده، ما جنّبنا الوقوع في إشكالية التّردد وضبابية الرّؤية، لذلك لا نجد من كلمات الشكر ما يوفيه حقه علينا وعلى هذه الدراسة ، فله

منّا أبلغ عبارات الامتنان وأرفع درجات العرفان، وجزاه الله عنا خير الجزاء في الدّنيا والآخرة، هذا دون أن نغفل التّقدم بالشّكر لكلّ الأساتذة و الزّملاء الذين كانوا لنا نعم المعين والصّديق الأمين ، فلهم منّا جميعا كلّ الحب والشّكر والتّقدير.

1/ الشاعـر:

ظهر في الأندلس عدد من الشعراء اشتهروا بالزهد و بالقول فيه،وجعلوا أشعارهم وسيلة لبثّ أرائهم في نقد المجتمع، والتّعرض لبعض القضايا السياسية والاجتماعية، ومن هؤلاء الشاعر الزاهد أبو إسحاق الإلبيري.

وهو إبراهيم بن مسعود بن سعد التّجيبي الزاهد، أصله من حصن العقاب[1]، من قبيلة تجيب العربية [2]،اشتهر في غرناطة اسمه وشاع علمه، وارتسم بالصلاح.[3]

يكنى أبو إسحاق الإلبيري نسبة إلى البيرة[4]، التي ولد بها أواخر القرن الرابع الهجري.[5] . يجهل تاريخ ميلاده . لكن بعض المصادر ذكرت أنّه توفي بين عامي (459هـ –460 هـ)، حيث ذكر اميليو غارسيا غومس في كتابه مع شعراء الأندلس والمتنبي أنّه توفي قريبا من عام 459 هـ، وانَّه بلـغ . باعترافه . حياة تجاوزت السّتين عاما[6]. يقول أبو إسحاق الالبيري : [7]

قدْ بَلَغتَ السِّتِّينَ ويْحَكَ فَاعْلَمْ أنَّ ما بعدها عليك تَلَـوَّمْ
فإذا ما انْقَضَتْ سِنُوكَ وَوَلَّت فَصَل الحاكِمُ القضاءَ فَابْرَمْ

---

(1) – ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة . تح . عبد السلام الهراس. دار الفكر. بيروت . لبنان .ج 1 . 1995. ص118 .

(2) محمد حسين قجة : محطات أندلسية . الدار السعودية . جدة. السعودية .ط 1.1985 .ص 155.

(3) – ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب. تح .شوقي ضيف .دار المعارف. القاهرة . مصر. ج 2 . ط 4. ص 132 .

(4) البيرة كوره في جنوب الأندلس، أرضها كثيرة الأنهار، من أهم مدنها غرناطة وقسطيلة، تهدمت في القرن 5 هـ وانتقل الوزن السكاني والحكم السياسي إلى غرناطة عندما استولى عليها بنو زيري واتخذوها عاصمة لهم، حتى سقوطها على يد المرابطين عام 483 هـ . انظر محمد حسين قجة: محطات أندلسية. ص 155 .

(5) – محمد حسين قجة: السابق . 156

(6) – اميليو غارسيا غومس: مع شعراء الأندلس والمتنبي .تع .الطاهر أحمد مكي. دار المعارف . القاهرة .مصر. ط 3 .ص 85 .

(7) أبو إسحاق الإلبيري :الديوان. تح .محمد رضوان الداية.مؤسسة الرسالة.بيروت .لبنان.ط 1. 1976.ص 50

ويقول أيضا: [1]

أَفِي السِّتِّينِ أَهْجَع في مِقْيَلِي وَحَادِي الموتِ يُوقِظ لِلرَّوَاحِ
وقد نشر الزمان لِواءَ شَيْبِي لِيَطْوِيَنِي وَيسْلُبَنِي وِشَاحِي
وقد سَلَّ الْحِمَامُ عَليَّ نَصْلاً سَيَقْتُلُنِي وَإِنْ شاكَتْ سِلاَحِي

أمّا محمد رضوان الداية في كتابه . المختار من الشعر الأندلسي . فيذكر أنّه عاش إلى سنة 460 هـ[2]، كما يؤكّد شوقي ضيف في كتابه . تاريخ الأدب العربي . على أنّه توفي كذلك سنة 460 هـ[3].

يُعدُّ أبو إسحاق الإلبيري من علماء الفقه والحديث في غرناطة،التي انتقل إليها الشاعر بعد اقتفار البيرة مطلع القرن (5هـ)، حيث عمل كاتبا لدى قاضيها أبي الحسن علي بن توبة[4] ، في عهد باديس بن حبوس(5)[6].

ويبدو أنَّ أبا إسحاق قد لزم عليا القاضي زمنا غير قصير،وصحبه في رحلاته كما فعل في رحلته إلى المريّة عام 429 هـ – 1038 م، حينما رحل معه لزيارة وزير زهير العامري : أبي جعفر أحمد بن عباس بن أبي زكريا الأنصاري. [7]

لذلك لم يكن غريبا أن نقرأ في شعر أبي إسحاق الإلبيري عدّة مدائح لهذا القاضي.

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان. 43 .

(2)– محمد رضوان الداية: المختار من الشعر الأندلسي.دار الفكر المعاصر.بيروت .لبنان. ودار الفكر. دمشق. سوريا ص69

(3)– شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس.دار المعارف.القاهرة.مصر.ص 354

(4) قاضي غرناطة، عينه في هذا المنصب باديس بن حبوس ، بعد أن تولى الحكم في عام 429 هـ – 1038 م أنشأ منبر المسجد الجامع في المدينة ،وأطلق اسمه على جسر أقيم على نهر الدارو، فأصبح يعرف باسم (قنطرة القاضي) توفي بعد عام 450 هـ – 1059 م . انظر اميليو غارسيا غومس : مع شعراء الأندلس والمتنبي .88

(5) مريم قاسم طويل :مملكة غرناطة في عهد بني زيري.مكتبة الوحدة العربية.الدار البيضاء. المغرب.دار الكتب العلمية.بيروت .لبنان .ط 1. 1994 . ص278 .

(6) أحد أمراء مملكة بني زيري التي أسسها حبوس بن ماكسن بن زيري الصنهاجي سنة (411 هـ –1019م) والذي نظم إدارتها وكون جيشها ،واتخذ من غرناطة عاصمة لها.انظر أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس. دار المعرفة العلمية . القاهرة . مصر.2005 .ص 227 .

(7) اميليو غارسيا غومس : مع شعراء الأندلس والمتنبي .88

كقوله: [1]

بِعَلِيٍّ بن تَوْبَةٍ فازَ قِدْحِي وَسَمَتْ هِمَّتِي على الْجَوْزَاءِ
فَهنيئًا لنا لِلدِّينِ قاضٍي مِثْلُهُ عالم بِفَصْلِ القَضاءِ
يحْسِمُ الأمْرَ بالسِّياسةِ والْعَدْ لِ كَحَسْمِ الحُسامِ لِلأعْدَاءِ
لَوْ إِياسٌ يلقاه قال اعترافًا غَلِطَ الوَاصِفونَ لي بِالذَّكاءِ
ولو أنَّ الدُّهاةَ من كُلِّ عَصْرٍ خَبروهُ دانوا له بِالدَّهاءِ

كان أبو إسحاق الإلبيري يمارس التّدريس ورواية الشعر، إلى جانب الكتابة للقاضي ابن توبة، فقد تتلمذ على يديه عدّة تلاميذ نذكر منهم: ابن أخته أبو العباس أحمد بن هشام القيسي، وأبو محمد عبد الواحد بن عيسى المتوفى 504 هـ – 1110 م، وأبو حفص عمر بن خلف الملقّب بابن القبلاَّل، المتوفى عام 501 هـ –1107 م. [2]

غُرس شعر الزهد في نفس الشاعر مبكّرا على يد أستاذه ابن أبي زمنين،الذي حمل عنه أشعاره الزهدية، ومنهجه في الإصلاح والوعظ ،[3] لذلك لم يكن شاعر حب وخمر. كما عند بعض الشعراء الأندلسيين . ولا شاعر بلاط و مدح، وإنّما كان صدى صادقا لواقع مدينته غرناطة، و شاعر المعارضة والسياسة.[4]

وما يسترعي انتباه القارئ في شعر أبي إسحاق الالبيري هجومه على الدنيا، وعلى الانغماس في ملذاتها، وعلى الاسترسال في مطالب الحياة التي يجرّ بعضها بعضا، ومحبّبا في الآخرة والقيّم الفاضلة كالتّقوى والقناعة والذّكر والطاعة،ومرهّبا من الموت وسكراته، والقبر وضمته، ويوم الحساب وهوله ، والسّعير وشدّته ، إلى غير ذلك من القيم الرّوحية والخُلقية التي تهذّب النّفس الإنسانية وترتقي بها إلى قمّة الصّفاء الرّوحي.

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان . 87.

(2) اميليو غارسيا غومس: مع شعراء الأندلس والمتنبي. . 89

(3) شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس. 354

(4) اميليو غارسيا غومس: نفسه. 85

تضمّن ديوانه قصيدة طويلة مهمة، ألهبت حماسة النّاس، وأسهمت في الثورة على الوضع الفاسد، ومناهضة اليهود[1] الذين استولوا على أهمّ المناصب في مملكة بني زيري، أيّام باديس بن حبوس صاحب غرناطة الذي استوزر اليهودي الشّهير إسماعيل بن النّغرلة[2]، وأعضل داؤه على المسلمين، فقال زاهد البيرة وغرناطة أبو إسحاق الإلبيري قصيدته النّونية الشّهيرة في إغراء صنهاجة باليهود،[3] والتي كانت سبب نفيه إلى حصن العقاب من قبل باديس بن حبوس، وبتدبير من الوزير اليهودي الابن يوسف بن النّغرلة [4]الذي خلف والده إسماعيل بعد وفاته ،والذي زاد الطين بلّة .

يقول أبو إسحاق الإلبيري مخاطبا باديس ومحرّضا إياه على اليهودي يوسف بن النّغرلة في هذه القصيدة ،ولأهميّتها نورد منها هذه الأبيات. [5]

ألاَ قُل لِصَنهاجَةِ أَجْمَعِين بُدورِ النَّدِيِّ وأسْدِ الْعَرِينْ
لقد زَلَّ سيِّدكم زَلَّـةً تَقِرُّ بها أَعْيُنُ الشَّامِتِين
تَخيَّرَ كاتبه كافِـرا ولو شاء كان من المُسلمينْ
فَعزَّ اليهود به و انْتَخوا وتاهوا وكانوا منَ الأرْذَلينْ
ونَالوا مُناهُمْ وجازوا المَدَى فحان الهَلاك وما يَشْعُرون
فَكَمْ مُسلمٍ فاضِلٍ قانِتٍ لأَرْذَلِ قِرْدٍ من المُشْركينْ
ومَا كان ذَلك من سَعْيِهِمْ ولكِنَّ منَّا يقومُ المُعِينْ

---

(1) محمد رضوان الداية :المختار من الشعر الأندلسي.ص69.

(2) صيغة ابن االنغرلة مختلف عليها، إذ تكتب على عدة صيغ (ابن النغرلة. ابن النغزلة .ابن االنغدلة) وتطلق على اثنين مشهورين: إسماعيل بن يوسف وابنه يوسف.انظر . محمد زكريا عناني:في الأدب الأندلسي.دار المعرفة الجامعية . الإسكندرية .مصر .ص 124 .

(3)المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تح .يوسف الشيخ محمد البقاعي. المكتبة التجارية.ج 5 . ط 1 1998 .ص 235

(4) اميليو غارسيا غومس : مع شعراء الأندلس والمتنبي. 96 .

(5) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان . 96-97

فثارت صنهاجة على الوزير اليهودي، فزحفوا على داره، وقد تبعتهم العامة، فاقتحموها، وانتهبوها.

أخفى اليهودي نفسه في بيت مليء بالفحم، وسَوَّد به وجهه وتنكّر، فأخرجوه وقتلوه، وصلبوه على باب المدينة، وقُتل معه في هذا اليوم آلاف من اليهود، وذلك في سنة459 هـ وقيل سنة 465 هـ.[1] فأراح الله البلاد والعباد ببركة هذا الشيخ الذي نور الحق على كلامه باد.[2]

وقد أوردت مريم قاسم طويل في كتابها . مملكة غرناطة في عهد بني زيري . تعليقا للمستشرق الاسباني (**دافيد غونثالو مايسو**) على هذه القصيدة يقول فيه:((لا شك في أنّ هذه القصيدة التي عبَّر فيها قائلها عن بغض دفين لليهود، وقد أضرمت نار الخلاف بين صنهاجة واليهود، وأسهمت إلى حد كبير في هلاك اليهود، ولكنّها لم تكد تحرك مشاعر باديس، لأنّه كان قد منح يوسف بن النّغرلة ثقة لا حدود لها، وقد أثَّرت هذه القصيدة في نفوس البربر أيّما إثارة، خاصة أنّهم منذ فترة وهم يمارسون أشدّ الكراهية لليهود، ويرغبون في الوصول إلى ما وصل إليه هؤلاء من غناء فاحش)).[3]

كما علّق عليها اميليو غارسيا غومس في كتابه . مع شعراء الأندلس والمتنبي . بقوله: ((والحق أنّ القصيدة تستحق ما حظيت به من شهرة ، ولا نعرف إلاّ في القليل النّادر أنّ أبياتا من الشعر لعبت دورا سياسيا مباشرا في التاريخ السياسي لأمّة من الأمم، فكهربت العزائم ، ودفعت بها في سرعة خاطفة إلى إشعال الحرائق ، وشحذت السيوف للقتل، كالدّور الذي لعبته هذه القصيدة .)) [4]

---

(1) لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام .تح. ليفي بروفنسال.دار المكشوف . ص233

(2) المقري : نفح الطيب .ج5. 235

(3) مريم قاسم طويل :مملكة غرناطة في عهد بني زيري، ص156.

(4) اميليو غارسيا غومس: مع شعراء الأندلس والمتنبي.97

آراء بعض المترجمين في الشاعر وشعره:

لاشكّ أنّ الشاعر أبو إسحاق الالبيري حظي باهتمام كبير من طرف الدارسين العرب والمستشرقين ،وتجلّى هذا الاهتمام في عبارات الإطراء و الإعجاب بشخصيته الفاضلة التّقية، وبشعره الحافل بالمعاني والقيم الأخلاقية النّبيلة والرّفيعة، ومن هذه الآراء نورد البعض منها على سبيل الاستشهاد.

فقد قال عنه ابن الأبار في . كتاب التكملة لكتاب الصلة .:((كان من أهل العلم والعمل، وشاعرا مجوّدا، وشعره مدون وكلّه في الحكم والمواعظ و الأزهاد)). [1]

وقال فيه الضّبي في بغية الملتمس:((إبراهيم بن مسعود الإلبيري، فقيه فاضل، زاهد، عارف، كثير الشعر في ذمّ الدنيا، مجيد في ذلك.))[2]

وذكر ابن سعيد في كتابه . المغرب من حلى المغرب . أنَّ ديوانه ملآن من أشعار زهدية، ولأهل الأندلس غرام بحفظها،[3] أمّا المقري في كتابه نفح الطيب فقد ذكر جانبا من زهده .فقال ((لمّا مرض الفقيه الزاهد أبو إسحاق الإلبيري، دخل عليه الوزير أبو خالد هاشم بن رجاء فرأى ضيق مسكنه فقال له: لو اتّخذت غير هذا المسكن لكان أولى بك، فقال الشاعر وهو آ خر شعره)) .[4]

قَالواَ ألاَ تَسْتَجِدُّ بيتًا تُعْجبُ من حُسنِهِ الْبُيوتْ
فَقُلت: ماذلكم صَوابا حَفْشٌ كثير لمنْ يَموتْ
لولاَ شتاء ولفْحُ قَيْظٍ وخوف لصٍّ وحِفظُ قُوتْ
ونِسوْة يَبْتَغِين سِتْرًا بَنَيْتُ بُنيان عَنْكبوتْ [5]

---

(1) ابن الأبار :التكملة لكتاب الصلة . 119

(2) الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس. تح. إبراهيم الأبياري . دار الكتاب اللبناني . بيروت .لبنان.ج 1.ص 174.

(3) ابن سعيد :المغرب في حلى المغرب. 133

(4) المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . ج 4 . 273

(5) أبو إسحاق الإلبيري :الديوان. 62.

فهذه الأبيات التي تحتوي على معاني الزهد والكفاف، تعدُّ إقرارا من لدن الشاعر بسلوكه هذا المسلك طواعية ،رغبة ورهبة، دافعه الإيمان بالله وبيوم الحساب.

أمّا أنخل بالنثيا في كتابه . تاريخ الفكر الأندلسي .، فقد ذكر أنّ مقتطفات كثيرة من شعره ترجمها (دوزي DOZIE) إلى الفرنسية،[1]الأمر الذي يثبت القيمة الجمالية والفنيّة لشعره وشدّة ولع النّاس بقراءته وحفظه.

دوافع زهـده:

إنَّ علو سنّ الشاعر من أبرز الدّوافع إلى زهده، إذ أنَّه خبر الحياة وتقلّبات الدّهر وغدره، فأراد أن يضع تجاربه أمام النّاس لتكون مشاعل تنير لهم الطريق في حياتهم، بعد أن هداه الله إلى سواء السبيل، آملا أن ينال ثواب الآخرة برحمة من الله ومغفرته ورضوانه، فكان تجاوزه لسنّ السّتين نذيرا بدنو الأجل وقرب الموعد المحتوم، حيث يلوح للإنسان حادي الموت ينبّهه بنهاية الرّحلة في الحياة الدّنيوية الفانية.[2] يقول :[3]

ولقدْ رَأيْتُ من الزَّمانِ عَجائِبًا جَرَّبْتُها بِمَوارِدي وَمَصادِرِي

و يقول أيضا: [4]

قد بَلغْتَ السِّتِّين ويْحَكَ فَاعْلَمْ إنَّ ما بَعَدَها عَليْكَ تَلَـوَّمْ
فإذا انْقَضَتْ سِنـوكَ وَوَلَّتْ فَصَل الحاكِمُ القَضَاءَ فأبْرَمْ
أنت مثل السِّجِلِّ ينشُر حِينًا ثم يُطْوى من بعد ذلك ويُخْتَمْ
كيف يَلتذُّ بالحياة لَبِيبٌ فَوَّقَتْ نحوه المَنِيَّةُ أسْهُمْ

---

(1) انخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي . تح . حسين مؤنس. مكتبة الثقافة الدينية .القاهرة . مصر. ص 108

(2) محمد عويس: من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي .مكتبة الانجلو مصرية.القاهرة . مصر.ط1 . 1986.ص 39

(3)أبو إسحاق الإلبيري:الديوان.79

(4) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه . 50

فهذه القصيدة الميمية تصوّر حالة الشاعر النّفسية بعد تخطّيه سنّ السّتين، وكيف يجب عليه ألاَّ يغترَّ بالحياة الدنيا وباب الموت مفتوح أمامه، بل عليه أن يتأمَّل في أحواله، حيث إنّه سيلج عمّا قريب منزل الفناء،الذي هو باب البقاء وسلم يرتقيه إلى يوم الحساب، وهو أمام هذا الموقف لا يجد إلاَّ الابتهال إلى الله جلَّت عظمته وقدرته،عسى أن يرحمه ويغفر له .

والدّافع الثاني لزهده، هو الإحساس بالوحشة والوحدة في الدنيا وهو في هذه السّن،وخاصة بعد اختطاف الموت أترابه واحدا بعد واحد، وشهد دفنهم وحملهم إلى القبور[1]. يقول: [2]

تمرُّ لِداتي واحدًا بعد واحِدٍ واعْلَمُ أنّي بعدهُمْ غيرَ خَالِدِ
واحْمِلُ موتاهُمْ وأشْهدُ دَفْنَهمْ كَأنّي بَعِيد عنهم غيرَ شاهِدِ
فهَا أنَا فِي عِلْمي بِهم وجَهالَتِي لَمُسْتيقِظٌ يَرْنُو بِمُقلةِ راقِدِ

فحين يفتقد الإنسان أترابه يحسّ بدنو الأجل، ويشعر أنّ العمر بدأ يذوب كشمعة متّقدة، وعليه أن يستعدّ للمصير المحتوم بالتّوبة الخالصة التي تمحي الذّنوب وتطهّر القلب من أدران الدنيا الفانية.

ولعلَّ مازاد في اشتداد وطأة الوحشة على نفسه حين توفيت زوجته، فأحسّ بالوحدة، وقوّة الزّمان، فسجّل أحاسيسه ومشاعره الجيّاشة في قصيدة رثائية يصفها محمد عويس بأنها من خيرة ما نظم[3] يقول: [4]

قَطَع الزَّمانُ معي بِأَكْرَمِ عِشْرَةٍ لَهْفِي عليه مِنْ أَبَرِّ مُعاشِرِ
ما كان إلاَّ نَدْرَةً لا أرتَجِي عِوَضا بها فَرَثَيْتُهُ بِنَوادِرِ
ولوْ أنَّنِي أنْصَفْتُه في وُدِّهِ لقَضَيْتُ يومَ قَضَى ولَمْ اسْتَأْخِرِ

---

(1) محمد عويس : من قضايا لإنسان في الشعر الأندلسي.ص 41
(2) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان . 105
(2) محمد عويس : نفسه . 42
(4) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه. 77-78

وشَقَقْتُ في خِلْبِ[1] الفُؤادِ ضَرِيحَهُ وسَقَيْتُه أبداً بِماءِ مَحاجِرِي

لم يكن دافعه إلى الزهد روحيا ونفسيا فقط، بل كان عقليا كذلك ، فقد أدّى به تأمّله في الحياة الدنيا وخلق الله، إلى الزهد في ملذاتها الزائلة، وهذا سبيل العاقل الذي تهون في نظره الدنيا، فهو يأمل فيما بعد هذه الحياة الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية دار الجزاء [2]. يقول: [3]

ما أَمْيلَ النَّفسَ إلى الباطِلِ وأَهْوَنَ الدُّنْيا على العَاقِلِ
تُرْضي الفَتَى في عاجِلِ شَهْوَةٌ لوْ خَسِرَ الجَنَّةَ في الآجِلِ
يَبِيعُ ما يبْقى بِما يَنْقَضِي فِعْلَ السَّفِيهِ الأَحْمَقِ الجاهِلِ

هذه الشّواهد الشعرية توضح لنا دوافع زهد الشاعر، وكيف أنَّها دوافع روحية تتّصل بعمق إيمانه، ونفسية تتّصل بظروف حياته بعد العقد السّادس من عمره، وعقلية تتّصل بتكوينه الفكري التّأملي الذي درج عليه حياته، والذي وجد فيه ذاته وما يريح نفسه.

2 / شعـره:

أشار غارسيا غومس في كتابه . مع شعراء الأندلس والمتنبي . أنّ للشاعر أبي إسحاق الإلبيري نسخة وحيدة من ديوان شعره، محفوظة بمكتبة (الأوسكوريال) في اسبانيا، وتحمل رقم (404)، كتبت بخط مغربي في 22 ورقة، تتراوح اسطرها بين(18 و23) سطرا، وتشير خاتمة المخطوط إلى أنّ ناسخها حكم بن يوسف بن علي بن حكم البلنسي، كتبها في ثغر (منورقة) في منتصف ذي الحجة عام (676 هـ 1278 م).[4]

---

(1) الخِلب بالكسر، حجاب القلب ، وقيل هي لحيمة رقيقة تصل بين الأضلاع ، وقيل هو حجاب بين القلب والكبد.أنظر.ابن منظور:لسان العرب.ج1 . .تق.العلامة الشيخ عبد الله العلايلي .تص.يوسف الخياط.دار لسان العرب.بيروت .لبنان.ص 873

(2) محمد عويس: من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي. 42

(3) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان . 59

(4) اميليو غارسيا غومس : مع شعراء الأندلس والمتنبي. 94

والديوان كما يقول ناسخه لا يمثل في الحقيقة شعر الإلبيري كله، فقد جاء في عنوانه ما نَصّه ((شعر الفقيه الزاهد أبي إسحاق بن مسعود الإلبيري رضي الله عنه ورحمه))، أمّا عبارة الختام فهي ((انتهى المجموع من شعر الفقيه الزاهد أبي إسحاق التّجيبي الإلبيري رضي الله عنه ونفعه وتقبل منه)).

وجاء بعدها مباشرة ((وكتب عبد الله الفقير بثغر منورقة، في منتصف ذي الحجة سنة ست وسبعين وست مائة، والحمد لله كما هو أهله)).

أما قصائد الديوان فلم ترتّب على اعتبار معين(زمني .هجائي . موضوعي).

أمّا عن طباعة الديوان ، فقد طبع لأول مرّة في مجلة الأندلس . مدريد بإسبانية . بعناية المستشرق الاسباني غارسيا غومس، الذي يعدّ أوّل من حققه،[1] ثم أعاد تحقيقه ومراجعته وتقديمه الدكتور محمد رضوان الداية، والذي قام بجمع قطع أخرى خلا منها الديوان جعلها مستدركا له .

وقد أشار المحقق محمد رضوان الداية إلى اعتراء الطبعة المدريدية . الاسبانية . قراءات غيرسليمة لعدد من الكلمات ذهبت بدقّة النّص وبضبطه، وأدّت إلى إبهام وتغيير، والتي سنورد بعض النّماذج منها في جدول تفصيلي على سبيل التّمثيل.

(1) محمد حسين قجة : محطات أندلسية . 160

في المخطوط الأصلي	في مجلة الأندلس
(1) شعر الفقيه الزاهد أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري رضي الله عنه ورحمه. (2) في بداية الديوان البسملة و الصلاة والسلام على النبي(صلى الله عليه وسلم) . (3) في القصيدة الأولى: البيت12 . وكنزا. البيت 38: مسومات. البيت 76: لجهلك . البيت 77: للمصر . البيت 100: إذا لمست . البيت 110: وطولت. (4) القصيدة الثانية، البيت 2:فيه طيي. (5) القصيدة الرابعة، البيت 11: . غدرها . . البيت 24: ردوا. . البيت 32: مليكه .	(1) ديوان الفقيه الزاهد أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود التجيبي الإلبيري. (2) حذفت البسملة والصلاة والسلام على النبي (صلى الله عليه وسلم). (3) وكنز . . موسمات. . بحملك . . للمضر . . إذا التمستا . . وحولت . (4) فيه طي . (5) غررها . . ردءوا . . مليك.

(1)

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان . 12

(6) القصيدة الخامسة:البيت 15:	(6)
. أيدي سبا.	. أيدي صبا.
. البيت 25: كجبال.	. كحمال .
(7) القصيدة السادسة: البيت 4: .	
فأبصق .	(7) . وأبصق.
:(8) القصيدة الثامنة: البيت 3	
. وأفرح.	وأفرج (8)
. البيت 5: كابي.	. كأبي (مهموز)

(1)

ولعلّ هذه الصّفحات من المخطوط الأصلي التي استشهد بها المحقّق محمد رضوان الداية في تقديمه للديوان، والتي سأوردها أنا بدوري، تكشف مدى ما لحق الديوان من أخطاء عن قصد . حذف العبارات الدّينية كالبسملة والصلاة على النبي (صلى الله عليه وسلم) . أو عن غير قصد في بقية الأخطاء الواردة في النّسخة المدريدية التي حقّقها اميليو غارسيا غومس.

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان . 12

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان . 13

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان . 14 .

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان . 17

الأغراض الشّعرية في شعره:

يضم ديوان أبي إسحاق الإلبيري تسعة وثلاثين نصا، بين قصيدة ومقطوعة مختلفة الأغراض ، لكن الجانب الأكبر منها شعر زهدي في جوهره، يحمل معاني متعدّدة توزّعت على عدّة موضوعات أهمها:

استعباد المعصية للفرد، البكاء على كثرة الذنوب والمعاصي،الاتّعاظ بالموت والاعتبار بالآخرة،الأمل في مغفرة الله والتّضرع إليه، كل ما في الدنيا عرض زائل، مالدنيا إلاّ طريق إلى الآخرة، ذمّ المال والغنى، غفلة العاصي عن الموت، تساوي النّاس أمام الموت، مجاهدة النّفس، الدّعوة إلى التقوى و القناعة والكفاف في العيش، الدّعوة إلى الأخذ بالعلم والانتفاع به.

وسأحاول توزيع هذه القصائد والقطع حسب أغراضها، مراعيا ترتيبها في الديوان، مع تحديد نسبة حضور كل غرض في جدولين منفصلين.

الرقم	عنوان القصيدة أو القطعة	عدد الأبيات	غرضها
01	تفت فؤادك الأيام فتا	113	زهد
02	تغازلني المنية من قريب	15	زهد
03	أحمامة البيداء أطالت بكاك	06	زهد
04	من ليس بالباكي ولا المتباكي	36	زهد
05	لو كنت في ديني من الأبطال	33	زهد
06	ألا خبر بمنتزح النواحي	20	زهد
07	أاحور عن قصدي وقد برح الخفا	14	زهد
08	الشيب نبه ذا النهى فتنبها	16	زهد
09	قد بلغت الستين ويحك	18	زهد
10	كأني بنفسي وهي في السكرات	43	زهد
11	ما أميل النفس إلى الباطل	22	**زهد** + هجاء

12	أنت المخاطب أيها الفتى	**07**	زهد
13	قالواألاتستجيد ا بيتا	13	زهد
14	ألفت العقاب حذار العقاب	09	زهد
15	يا أيها المغتر بالله	53	زهد
16	ماعيدك الفخم إلا يوم يغفر لك	04	هجاء
17	أي خطيئاتي أبكي دما	03	زهد
18	برزت في ميدان كل بطالة	03	زهد
19	ألاحي العقاب و قاطنيه	06	هجاء
20	يضيع مفروض ويغفل واجب	23	رثاء
21	عج بالمطي على اليباب الغامر	60	رثاء +زهد
22	ماعناء الكبير بالحسناء	43	مدح
23	ويل لأهل النار من النار	88	زهد
24	بصرت بشيبة وخطت نصلي	11	زهد
25	ألا قل لصنهاجة أجمعين	48	هجاء
26	إن أولي العلم بما في الفتن	45	زهد
27	تمر لداتي واحدا بعد وحد	03	زهد
28	ماتوج الملك إلا بابن سلمان	09	مدح
29	رفعتم على قاضيكم فخفضتم	05	هجاء
30	أيا قوس خراط يشير ولا يدمي	02	وصف
31	السوط أبلغ من قال ومن قيل	16	هجاء
32	أيا وزيرا لم يزل آخذا	05	عتاب
33	أين الملوك و أين ماجمعوا	05	زهد

34	فإن الردى غالى أهل الردى	05	زهد
35	لا قوة لي ياربي فانتصر	03	زهد
36	وذي غنى أوهمته همته	05	زهد
37	أتيتك راجيا ياذا الجلال	07	زهد
38	كل امرئ فيما يدين يدان	04	زهد
39	كم آمن للمنون لاه.	07	زهد

الغرض	النسبة المئوية %
الزهد	% 69،23
الهجاء	% 17،94
الرثاء	% 12،05
الوصف	% 02،56

من خلال هذين الجدولين، تتّضح هيمنة غرض الزهد على باقي الأغراض الأخرى في ديوان أبي إسحاق الإلبيري، مما يعطي الانطباع حول هذه الشّخصية الورعة التّقية، بأنّها شخصية كرّست حياتها لإصلاح مجتمعها وتطهيره من براثن المادية الفاسدة،التي سادت المجتمع الأندلسي،والانطباع الآخر هو تحقيره للشعر غير الدّيني، فهو في نظره ثرثرة جوفاء قد عابه الأنبياء والرّسل.[1]و يظهر ذلك في قوله: [2]

(1) محمد العريس : موسوعة شعراء العصر الأندلسي . دار اليوسف .بيروت .لبنان .ط 1 . 2005 . ص 15.

(2) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان . 80

ولوْ أَنَّنِي أدْعو الكَلامَ أَجَابَنِي كَإِجابَةِ المَأْسورِ دَعْوةَ آسِرِ
لكنْ رَأَيْتُ نَبِيَّنَا قد عابَهُ من كُلِّ ثَرْثارٍ وأشْدَقَ شاعِرِ
فَصُمْت إلاَّ عن تُقَى وَلَرُبَّمَا قَذفَتْ بِحارُ قَريحَتِي بِجَواهِرِ

وفاصل القول أنّنا لا نزعم أنّنا وضعنا يدنا على معظم نقاط الضوء التي عكستها الومضات المشرقة في حياة شاعر الزهد أبي إسحاق الإلبيري، لأنّه لا يمكن لصفحات أن تجمل في بعض كلمات حياة شخصية ورعة تقيّة دأبت على النّشاط والحركة العلمية والإصلاحية ما يقارب السّتين عاما، ونقشت اسمها على جدارية التاريخ الأندلسي خاصة والإسلامي عامة، لكن ما يشفع لنا أنّنا حاولنا بالقدر المتيسّر أن نقتطف من زهر حياته ما يفيه حق التّعريف ، ويرضي في القارئ نزوة الفضول .

الفصل الأول : مضامين الزهد في شعره .

. تمهيـــد:

01/ الزهد في الدنيا

02/ الزهد في المال

03/ مجاهدة النّفس

04/ ثنائية الخوف والرجاء

05/ ذكر الموت واليوم الآخر

06/ الدعوة إلى العلم وتوظيف العقل

07/ التّوبة والاستغفار

تتجاذب الإنسان بمقتضى الفطرة البشرية نزعتان ملازمتان له، بهما يتحدّد سلوكه في الحياة، تنزع به إحداهما إلى الشّر بما جبل عليه من هوى النّفس ، التي تدفعه في طلب الدنيا والسّعي الحثيث وراء تحصيل المستطاع من متاعها، وتنزع به الأخرى إلى الخير بفضل ما وهب من عقل يميّز به طريق الهدى من الضلال والرّشد من الغيّ.

لكن أمام تآلف بريق الدنيا ومغرياتها وسلطان النّفس الأمّارة بالسّوء، لقوله تعالى: **((وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي))** [1]، يميل إلى الشّر الذي تمثّله الدنيا وزخرفها . من زاوية نظر شعراء الزهد . التي تفضي به إلى الارتماء في أحضان الحياة المادية الإباحية الضّالة ، و الانشغال عن الحياة الرّوحية الشّريفة، التي تمثّل أعلى درجات الوعي الإنساني لحقيقة الوجود.

ويعدّ المجتمع الأندلسي من أكثر المجتمعات التي عكست هذا الصّراع بين النّزعة المادية والنّزعة الرّوحية، لما وفّرته له البيئة الاجتماعية من ترف مادي تحت تأثير الرّخاء الاقتصادي في أواخر القرن الثاني للهجرة، الذي أبهر الفرد الأندلسي و أغراه، وكان السبب في توجيهه وجهة مادية، تجلّت في ميله إلى اللّهو والمجون بما فيه من موسيقى وغناء وخمر وجواري.

هنا كان من الطبيعي أن يهبّ شعراء الزهد في الأندلس لمواجهة هذا الانحراف في السلوك ،وهذا اللون من الحياة الذي كلفت به فئات مختلفة من الناس، فظهر نوع من الشعر الزهدي يغلب عليه الوعظ والإرشاد ، يدعوا فيه أصحابه الناس إلى الزهد في الدنيا ومتاعها ، والتّفكير في الموت ولقاء ربهم ، سعيا منهم إلى تطهير النّفوس من شرورها وآفاتها، بأسلوب وعظي بعيدٍ عن الطّعن والتّجريح.[2]

---

(1) سورة يوسف. الآية. 53

(2) عبد القادر هني. مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي قبل سقوط قرطبة. دار الأمل. تيزي وزو.الجزائر. ص195-196

قال مالك بن دينار[1] : [2]

أَتَيْت القُبور فَنادَيْتُها فأين المُعَظم وَ الْمُحْتَقَرْ
وأين المُذِل بسلطانـه وأين العزيز إذا ما قَدِرْ
وأيْنَ المَلِيكُ إذا مَا دَعَا وأَيْنَ الْعَزِيزُ إذا مَا افْتَخَرْ

ومن أولئك الشعراء الذين هبّوا لتقويم المعوج في مجتمعهم، أبو إسحاق الإلبيري الذي وصفه منهج حياته زاهدا يخشى ربه، ويحرص على التّقوى والعمل الصالح، ويشتغل بقضية المصير والاستعداد ليوم الرّحيل، بالانقطاع إلى العبادة وإقامة الفرائض.

والشاعر أبي إسحاق الإلبيري ، في سلوكه هذا المنهج، إنّما يستند إلى المفهوم الإسلامي الخاص للزهد ، بوصفه الاستعلاء على كثير من الشّهوات والإغراءات التي تفضي إلى تهذيب النّفس وتزكيتها، وترويضها على حب الله و طاعته، فهو ليس رهبانية أو انقطاعا عن الدنيا ، وإنّما هو معنى يتحقّق به الإنسان ، ويجعله صاحب نظرة خاصة للحياة الدنيا ، يعمل فيها ويكد ، ولكنّه لا يجعل لها سلطانا على قلبه، ولا يجعلها تصرفه عن طاعة ربّه.[3]

لذلك ليس شرطا أن يكون الزهد في الإسلام مقترنا بالفقر ، بل قد يتفّق للإنسان الزهد والغنى معا، ولنا في كبار الصحابة أمثلة على ذلك ، فالخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وعبد الرحمان بن عوف من كبار الأغنياء ، ولكنّهما كانا زاهدين فيما يملكان ، فقد جهّز عثمان بن عفان جيش البصرة ، واشترى بئر رومه من يهودي، كان يمنع المسلمين عنها، وكذلك عبد الرحمن بن عوف يخرج من تجارته وأرباحها كلّما كانت للمسلمين حاجة إلى المال. [4]

---

(1)مالك بن دينار ، يكنى أبا يحي ، كان يكتب المصاحف بالبصرة ، وهو من الزهاد . ت 131 هـ . أنظر عبد الحكيم حسان.التصوف في الشعر العربي :وكتبة الآداب . القاهرة.مصر.ط2 .ص170

(2)عبد الحكيم حسان. نفسه. 171

(3) أبو الوفا الغنيمي التفتازاني. مدخل إلى التصوف الإسلامي.دار الثقافة للنشر والتوزيع.القاهرة. مصر.ص 59

(4) أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: نفسه. 60

فالدّارس لشعر الزهد عند أبي إسحاق الإلبيري ، يصادف فيضا من القيم و المواعظ التّربوية،التي تسعى إلى الارتقاء بالنّفس الإنسانية عن سفوح الشّهوة المادية الزّائلة إلى قمّة الصّفاء الرّوحي والالتزام الديني الخالد.

فقد قام شعره الزّهدي على مجموعة من المضامين الدّينية والتّأملية ، مزجت بين التّرغيب والتّرهيب ، التّرغيب في الآخرة وما فيها من خير ومسرّات ، والتّرهيب من الدنيا وما فيها من شرور وآفات ، كما دعت إلى مكارم الأخلاق كالتّقوى والقناعة، وركّزت على ذكر الموت والاستعداد له ،ووصف أهوال القبر والحساب، وغيرها من المضامين التي تنبع من عدّة مناهل دينية ، ولعلّ أبرزها مصادر التّشريع الإسلامي . القرآن والسنة النبوية . باعتبار أنَّ الشاعر فقيه متشبع بتعاليم الإسلام وأحكامه.

لذلك نرى أنّ شعر الزهد عند الإلبيري يحتاج إلى دراسة مستقلة، للوقوف على أهمّ المضامين الزّهدية التي كان لها الحضور الكثيف والمهيمن في ديوانه بغرض الإفادة والاستفادة، ولعلَّ أبرزها الإعراض عن الدنيا والزهد في متاعها ، باعتبار أنّ الدنيا النقطة المحورية التي تدور حولها باقي النقاط وتتفرّع ، لذلك من الصّعب الفصل بينها وبين باقي المضامين الأخرى ، لكونها قيّم وأخلاق يستوجب على المرء أن يتحلّي بها في الحياة الدنيا،كالزهد في المال والتّوبة والاستغفار ومجاهدة النّفس . بالتّقوى والقناعة . وطلب العلم...الخ ، ولعلّ هذا ما سيلاحظه المتلقي من خلال محاولتنا استكشاف مضامين شعر الزهد عند الإلبيري ، التي تظهر هذا التّرابط والتّداخل بين الدنيا وبقية المضامين.

1/ الزهد في الدنيا :

الزهد في الدنيا هو العنصر الأساسي من عناصر الزهد، بل هو المحور الرئيس له، ومنه تنطلق وإليه تعود بقية العناصر، وهذا النوع من الزهد لا يستقيم إلا بعد نظرين صحيحين.

أ . نظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها وخسّتها، وما يعقب زوالها من الحسرة والأسف.

ب . النّظر في الآخرة ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من خيرات ومسرات [1]، فهي كما قال تعالى: ((**والآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**)).[2]

فالزاهد في الدنيا لا يزهد فيها لذات الزهد ولا كراهية لها، وإنّما رغبة في الآخرة إيثارا لها. للأسباب السّالفة الذكر. فالنّفس الإنسانية لا تترك مألوفا ومحبوبا من شهوات الدنيا إلا لمحبوب هو أحبّ إليها منه، والمؤمن الذي آثر الآخرة على الدنيا يمتاز بثلاث صفات تتمثّل في: قوة الإيمان وقوة العقل وقوة البصيرة والإرادة، فبقوة الإيمان وثق في وعد الله له بالنعيم في الآخرة [3] لقوله تعالى: ((**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**))،[4] وبقوة العقل والبصيرة أحسن الاختيار لنفسه، حين آثر مايبقى على ما يفنى.

أما قوة الإرادة فإنَّها مكَّنته من قهر الشَّهوات في نفسه والانقياد لها، لأنّه يطمح بفكره إلى ما بعد هذه الحياة، يطمح إلى دار الدّوام التي تستحق المعاناة والمجاهدة. [5]

لذلك فكل ما يرجوه أن ينال مغفرة الله، وهو أمل إذا ظفر به لا يأسف على ما فاته من لذَّة الدنيا.

---

(1) ابن قيم الجوزية: لفوائد. تح.أبو عبد الرحمان فواز احمد زمرلي. دار ابن حزم. بيروت. لبنان. ط 1. 2002 ص 142.

(2) سورة الأعلى: الآية 17

(3) عبد الستار محمد ضيف: شعر الزهد في العصر العباسي.مؤسسة المختار للنشر والتوزيع.القاهرة.مصر.ط1. 1426هـ - 2005. ص 103

(4) سورة الرحمان:الآية 46

(5) عبد الستار محمد ضيف: نفسه. 106

فلا غرو إن رضي بحياة خشنة غليظة، تعافها نفس الحريص على الدنيا.[1]

فقد حُدِّث عن عمر بن الخطاب انه قال : ((الناس طالبان : فطالب يطلب الدنيا فارفضوه في نحره، فإنّه ربَّما أدرك الذي طلب منها فهلك بما أصاب منها، وربَّما فاته الذي طلب منها فهلك بما فاته منها، وطالب يطلب الآخرة، فإذا رأيتم طالب الآخرة فنافسوه.)).[2]

كما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ((**وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَثَلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ . وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ . فِي الْيَمِّ فَالْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعْ**)).[3]

وقال رجل لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وهو في خطبة له :((يا أمير المؤمنين، صف لنا الدنيا)). فقال : ((ما أصف من دار أولها عناء، وآخرها فناء، في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، من صح فيها أمن، ومن مرض فيها ندم، ومن استغنى فيها فتن، ومن أفتقر فيها حزن.)). [4]

فالزاهد إذن احتقر الدنيا وسما بهمّته إلى الآخرة، وهو عبد ورع فقير خفيّ، ولكن له قلب طاهر نظيف، وله المنزلة العليا عند ربّه، فحبُّ الدنيا عنده من جاه ومال من المهلكات التي يجب علاج القلب منها، لأنَّ من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخَلق، مشغوفا بالتودّد إليهم و المراآة لأجلهم، وذلك بذر النّفاق، وأصل الفساد، ويجر لا محالة إلى التّساهل في العبادات، واقتحام المحظورات.

لذلك آثر الزهاد الآخرة فجعلوها همَّهم وغايتهم وشغلهم، ولم يروا في الدنيا إلاَّ مزرعة لها ومتجرا، فكانوا يعملون في الدنيا ابتغاء الآخرة في حذر شديد من أن تفتنهم بمتاعها،فتنقلب الوسيلة غاية، فللدنيا على النّفوس سلطان قاهر،[5] مصداقا لقوله تعالى:

.(1) عبد الستار محمد ضيف:شعر الزهد في العصر العباسي. 106

(2) الجاحظ: البيان والتبيين.ج3.تح. عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي. مصر. ط 4. 1975.ص 138

.(3) الإمام مسلم: صحيح مسلم. ج17.شرح النووي.دار الفكر.1981. باب فناء الدنيا. ص192

(4) المبرد: الكامل في اللغة والأدب .مج1.تح.عبد الحميد هنداوي.دار الكتب العلمية.بيروت.لبنان.ط1. 1419 هـ 1999 م. 214.

(5) عبد الستار محمد ضيف: نفسه. 128

((**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ**)) [1]، وقوله أيضا : ((**كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى**)).[2]

لذلك تميّز الزهاد بميزتين :

أ . القناعة بالقليل في الدنيا والاكتفاء منها بالقوت.

ب . السَّخاء بما في أيديهم من المال ينفقونه في وجوه الخير، ويدخرون به لأنفسهم ثوابا باقيا [3]، فقد أشار أبو إسحاق الإلبيري لهاتين السمتين . السَّخاء والقناعة . في قوله : [4]

ما يَثْقُلُ المِيزانُ إلاَّ بِامْرِئٍ قد خَفَّ كاهِلَهُ من الأَثْقَالِ

فَخُذْ الكَفاف ولا تَكُنْ ذا فَضْلةٍ فالفَضْلُ تُسأل عنه أيَّ سُؤالِ

ودعْ المطارِفَ والمَطِيَّ لأهلِهَا واقْنَعْ بأطْمارِ ولُبْسِ نِعالِ

فهُمْ وأنت وفَقْرُنا وغِناهُمْ لا يَسْتَقِرُّ ولا يَدومُ بِحالِ

إنَّ المتأمل في فناء الدنيا وزوال متاعها ينتهي به إلى أن يراها هيِّنة الشَّأن، قليلة القيمة، لا تستحق أن يحيا لها الإنسان، أو أن يحرص عليها ويسعى لها، ومن ثم فإنَّه يزدريها ويزهد فيها، ليتقي شرّها وغدرها.

فقد روي أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة فقال لها : كم تزوجت ؟ قالت : لا أحصيهم.قال : فكلهم مات عنك أم طلقك ؟ قالت : بل كلهم قتلت. فقال عيسى عليه السلام : بؤسا لأزواجك الباقين، كيف يعتبرون بأزواجك الماضين، كيف تهلكينهم واحدا بعد واحد ولا يكونون منك على حذر. [5]

---

(1) سورة التغابن: الآية 15

(2) سورة العلق: الآية 06

(3) عبد الستار محمد ضيف: شعر الزهد في العصر العباسي. 130

(4) أبو إسحاق الإلبيري:. الديوان. 40

.(5) الغزالي: إحياء علوم الدين. ج 3.دار الكتاب العربي. 210

فمن عرف أنَّ هذا مصير الدنيا هان عنده أمرها وزهد فيها، فلا دوام لها ولا لشيء من متاعها، ومن نال مجدا فيها سوف يخليه وينتقل عنه، ومن منح جمالا سيسلبه، ومن جمع مالا لا محالة تاركه، وإذا كان الناس يمتازون في الحياة الدنيا على حسب حظوظهم من متاعها، فإنَّ الموت ساوى بينهم جميعا حين يحيل كل شيء إلى لا شيء.

أمام هذه الحقيقة الجليَّة والمصير المحتوم، صوَّر شعر الزهد تجارب هؤلاء الزهاد تصويرا دقيقا وشاملا، حول إيثارهم للآخرة الباقية، على حطام الدنيا الفانية ،من ذلك شعر الزاهد الأندلسي أبو إسحاق الإلبيري، الذي تزاحمت معاني الزهد في الدنيا وذمّها في شعره، مثل ذلك قوله: [1]

ولا تَحْزَنْ على ما فاتَ مِنْهَا إذا ما أنت في أُخْرَاكَ فُزْتَا
فَلَيْسَ بِنافِعٍ مانِلْتَ فِيـهَا مِن الفانِي، إذا الباقِي حُرِمْتَا

فالزهد هنا يقوم على المقارنة والمفاضلة بين الدنيا والآخرة، فصاحب الدنيا مغترٌّ بدار فانية، نعيمها إلى ذهاب وفناء، وضررها أكثر من نفعها، أما صاحب الآخرة فقد شغل قلبه بحب ربِّه الذي يجزل له العطاء والثَّواب.

فقد قال الحسن البصري في هذا المعنى:((التَّفكر يدعو إلى الخير والعمل به، والنَّدم على الشر يدعو إلى تركه، وليس ما يفنى وإن كثر يعدل ما يبقى، فاحذروا هذه الدَّار الصَّارعة الخادعة، التي قد تزيّنت بخدعها وغرَّت بغرورها.)) [2]

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 24

(2) محمد مصطفى حلمي: الحياة الروحية في الإسلام. الهيئة المصرية للتأليف والنشر. 1970. ص 74

إنَّ الزاهد المسلم لا يكره الدنيا ولا يؤثر الفقر، وإنَّما يكره أن يفتن بها فتلهيه عن الآخرة، فالدنيا لا تحمد ولا تذمُّ لذاتها، وإنَّما بحسب ما توجَّه إليه، فإن وجِّهت للخير كانت خيرا، وإن وجِّهت للشر كانت شرًّا [1]،وذلك مصداقا لقول رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ((**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُ الَعَبْدَ التَّقِيَ الغَنِيَّ الخَفِي**)). [2]

لذلك حرص الزُّهاد على الأخذ من المال ترياقه، وان يتجنَّبوا سمومه، ورأوا أنَّ ترياقه أخذ القوت منه وصرف الباقي إلى الخيرات، وماعدا ذلك فسموم وآفات، تعود على صاحبها بالحسرة والنَّدم يوم يلقى الله مفلسا، لانشغاله عن العبادات، لهذا جاء أغلب شعر الزهاد عبارة عن مواعظ وحكم تعرِّض بالدنيا وتبصِّر بعيوبها، كما هو الحال في قصيدة لأبي إسحاق الإلبيري تبلغ أبياتها مائة وثلاثة عشر بيتا، وفيها يخاطب من يكنى أبا بكر كما جاءت الإشارة إلى اسمه في القصيدة. يقول : [3]

أبا بَكْرٍ دَعَوْتُكَ لوْ أَجَبْتَا إلى ما فِيه حَظُّكَ إنْ عَقِلْتَ

وهي قصيدة تعدُّ نسيجا لوحدها في موضوعها، ومقاصدها المتعددة، ومراميها المتنوِّعة، فهي صورة قيِّمة لما يوعظ به الإنسان ويزجر به الغافل التَّائه.

يقدِّم فيها للمخاطب حججا منطقية، ليكون كلامه أوقع في النفس وأبلغ في التأثير، ويسلك فيها سبلا علمية في ضرب الأمثلة ليبلغ غايته من النصح، وهي أول قصيدة في الديوان من بحر الوافر [4].

يقول الإلبيري معرضا بالدنيا وزخرفها كاشفا عوراتها إلى كل من خفي عنه شرها،في أسلوب وعظي يقوم على النصح والتوجيه.

---

(1) عبد الستار محمد ضيف: شعر الزهد في العصر العباسي. 130

(2)الإمام مسلم: صحيح مسلم. باب الزهد. 100

(3) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 20

(4) منجد مصطفى بهجت: الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي.مؤسسة الرسالة. بيروت.لبنان. ط1 .1986 ص 215.

يقول : [1]

تَفُتّ فؤادك الأيـام فَتًّا وتنحت جسمك الساعات نَحْتَا

وتدعوك المَنونُ دعاء صدق ألا يا صاح : أنت أريـد أنتا

أراك تحب عِرْسًا ذات غدر أبت طلاقهـا الأكياس بتا

تنام الدهر وَيْحَكَ في غَطِيطٍ بها حتى إذا مِتَّ انْتَبَهْتَا
فكم ذا أنت مخدوع وحتى متى لا تَرْعَوِي عنها وحَتَّى

فالدنيا عند الشاعر عروس غادرة، والعاقل من يبتعد عنها دون رجعة، أوَّابا إلى ربّه قبل أن يوافيه الموت على غفلة.

وكم ينخدع المرء ولا يرعوي، وكان أولى به أن يرفض متاع الحياة الدنيا وزخرفها وملذَّاتها من طعام وشراب، مكتفيا بالقليل منها، فالقوت الحقيقي هو قوت الروح، الذي يسمو بها ويرتقي، فعليه إذا أن لا يهتم بدنس الدنيا من المال والجاه، فلن يضرّه الفقر إذا عرف طريق ربه و اطمأنَّت روحه، فالدنيا تسرّ مرَّة وتسوء دهرا، ويحياها الإنسان على حبٍّ مع أنَّه مسجون فيها، فكيف يحب الحرُّ سجنه ويفتن به، ويتلذَّذ بطعامها، و سيأتي يوم تأكله حطاما.

ويكفي الإنسان عبرة أنَّه في كل يوم يشهد دفينا، فهو لم يخلق ليخلد فيها، إنَّما خلق ليعمرها فترة ويعبرها، وحريَ به أن لا يحزن على مافاته منها، بل عليه أن يتطلَّع إلى آخرته ويفرح بما فاز به فيها، وان يلازم قرع باب ربِّه بالدّعاء والتَّسبيح، فسيفتح له يوما.[2] لقول رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ((**الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ**)).[3]

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري:الديوان. 19-20
(2) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي.عصر الدول والإمارات الأندلس. 355
(3) الإمام مسلم: صحيح مسلم.باب الزهد. 93

و يواصل الشاعر تنبيهه للغافل في الدنيا بقوله : [1]

فلو بكت الدِّمَا عيناك خوفًا لذنبك لم أقل لك قد أَمِنْتَا
ومن لك بالأمان وأنت عبد أُمِرْت فما ائتَمَرْتَ ولا أطعتا
ثَقُلت من الذُّنوب ولست تخشى لجهلك أن تخف إذا وُزِنْتَا

وَتُشْفِقُ لِلْمُصِرِ على المعاصي وترحمه، ونفسك ما رحمتا
تفر من الهجير وَتَتَقِّيهِ فهلا عن جَهَنَّم قد فَرَرْتَا

فلو أنَّ الإنسان لم يعمل الصَّالحات، وبكى وبالغ في بكائه، حتى ولو بكى دما، فإن ذلك لن يعصمه من سخط ربِّه مادام لم يطع أوامره ويتجنَّب نواهيه، ومن عجيب أمر هذا الإنسان، أن يشفق ويرقَّ قلبه على العاصي لربِّه، ولا يشفق ويرقَّ لنفسه، والأعجب أن ترى هذا الإنسان في الدنيا يفرُّ من الهاجرة، ولا يتزود للفرار من جهنَّم ولهيبها المشتعل.[2]

وفي خطاب آخر موجَّه للدنيا، يعاتب الإلبيري الدنيا على قسوتها وغدرها وتجردها من عاطفة الأمومة بقوله: [3]

ولقد عَهِدْنا الأُمَّ تلطف بِابْنِهَا عَطْفًا عليه وأنت ما أَقْسَاكِ
ما فوق ظهرك قَاطِنٌ أوظَاعِنٌ إلا سيهشم في ثِفَالِ[4] رَحَاكِ
أنتِ السَّرابُ وأنت داءٌ كامِنٌ بين الضُّلوعِ فما أَعَزَّ دَواك !
يُعْصَى الإله إذا أُطِعْتِ وطاعتي لله ربِّي أن أَشُقَّ عَصَاكَ
فرْضٌ علينا بِرُّنَا أُمَّاتِنَا وعُقوقُهُنَّ مُحَرَّمٌ إلاَّكِ !

لقد عهدنا الأم تعطف على أبنائها وترأف بهم، و أنت شرسة تعاملينا بكل قسوة

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 26
(2) شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس. 355
(3) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه. 35
(4) الثِّفال بالكسر. هي الجلد الذي يبسط تحت رحى اليد ليقي الطحين من التراب.أنظر ابن منظور: لسان العرب.ج1. ص 363

وبلا رحمة أو شفقة، فأنت إذن أمٌّ مزيَّفة، بل أنت سراب خادع لا ينبغي الوثوق بك،أو الاطمئنان إليك وحبّك، ومادمت تخليَّت عن عاطفة الأمومة، وظهر زيفك وخداعك، فمن الحكمة عقوقك وبغضك أشدّ البغض، لأن في طاعتك معصيّة لله وإغضاب له.[1]

وفي صورة قاتمة للدنيا تعبِّر عن رؤية الشاعر لها، يواصل الشاعر أبو إسحاق الإلبيري في نصحه للنَّاس بأن لا يأمنوا لهذه الدنيا، لأنَّها تظهر لهم الخير ثم تطعمهم الشر، متعجِّبا في الآن نفسه من أمر الإنسان وقد كبَّلته الدنيا بقيودها فأصبح سجينا يحب سجنه بها، ولو تأمَّل قليلا لأدرك أن هذه الدنيا التي طعم من طعامها وهو حي، عما قريب سيكون في قبره طعاما لها،لأنه لم يخلق ليخلد فيها، ولكن ليعمرها فترة عابرة.[2] يقول : [3]

فليست هذه الدُّنيا بِشيءٍ تَسُوؤُكَ حِقْبَةً وتسر وَقْتَا
سُجِنت بها وأنت لها مُحبٌ فكيف تُحب ما فيه سُجِنْتَا ؟
وتُطْعِمك الطَّعامَ وعن قَريبٍ سَتَطْعَمُ منك ما منها طَعِمْتَا
ولم تخلقْ لتَعْمرَها ولكنْ لتعْبُرَها فَجِدَّ لما خُلِقْتَا

والمعنى نفسه يتردّد في شعره، الذي إنْ دلَّ على شيء إنَّما يدلُّ على طول تأمّل في الحياة الدنيا، وإدراك حقيقة خداعها للإنسان المفتون بمظاهرها،وكيف يخدع فيها ويغترّ بها ومنيَّته تلوح له بين لحظة وأخرى مذكِّرة إيَّاه بساعة الرَّحيل، التي هي قدر كل حي مُطَبَّبٍ وطَبِيبٍ، [4] ساعتها لا ينفعه الحزن والأسى من كثرة الذنوب.

---

(1) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول الإمارات الأندلس. 355
(2) محمد عويس: من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي. ص 51
(3) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان.ص 23
(4) محمد عويس: نفسه. 52

يقول الإلبيري: [1]

تُغازِلني الْمَنِيَّةُ من قريب وتَلْحَظني مُلاحظة الرَّقِيبِ
وتَنْشُرُ لي كتابا فيه طَيِّي بخط الدهر أسطره مَشِيبِي
كتاب في معانيه غُموض يلوح لكلِّ أَوَّابٍ منيب

إلى أن يقول كذلك : [2]

هي الأقْدار والآجال تأتي فتنزِل بِالْمُطَبَّبِ وَ الطَّبِيبِ
تُفَوِّقُ أسْهما عن قوس غيب و ما أغراضها غير الْقُلُوبِ
فَأَنَّى بِاحْتِرَاسٍ من جنود مُؤَيَّدَةٍ تُمَدُّ من الغُيوبِ
وما آسَى على الدُّنيا و لكن على ما قد ركبت من الذّنُوبِ
فيا لَهَفِي على طُول اغْتِرارِي ويا ويْحِي من اليوم الْعَصِيبِ

وفي تقاطع مع هذه الصورة التي رسمها الإلبيري للدنيا قال بعض السَّلف، نذكر منهم عامر بن قيس الذي قال : ((الدنيا والدة للموت، ناقضة للمبرم،مرتجعة للعطية، وكلّ ما فيها يجري إلى مالا يدري، وكل مستقر فيها غير راض بها، وذلك شهيد على أنَّها ليست بدار قرار.)) [3]

وقال الفضيل بن عياض ((جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد)). [4]

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 31
(2) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه. 32
(3) الجاحظ : البيان و التبيين. ج 3.ص 143
(4) القشيري: الرسالة القشيرية. شرح.أبي يحي زكريا الأنصاري الشافعي.مؤسسة الكتب الثقافية.بيروت لبنان.ط1. ص 118.

في قصيدة أخرى يعقد الشاعر حوارا تأمليا بينه وبين الدنيا، يوضِّح فيه كيف تأسس زهده ونسكه على حقائق ثابتة، مكَّنها في فكره ووجدانه إيمانه العميق بروح الإسلام وتفقهه في أمور الدين.

والحوار في هذه القصيدة يستغرق ستة وثلاثين بيتا، يستهله بمخاطبة الباكي والمتباكي على ما فاته من حظوظ الدنيا ونعيمها، ذامًّا هذا التَّباكي الذي يتنافى مع الكياسة والفطنة، فالكيِّس الذي لا يغتر بدنياه وبريقها، [1] لأنَّه يعلم علم اليقين أنَّ الله يراقبه في كل حين، والأحرى به أن يبكي على ما اقترفت يداه من ذنوب ومعاصي يحاججه بها الله يوم يلقاه.يقول: [2]

من ليس بِالْبَاكِي ولا المتباكي لقبيح ما يأتي فليس بِزَاكِ
نادت بي الدنيا فقلت لها أَقْصِرِي ما عد من الأكياس من لَبَّاكِ
ولما صفا عند الإله ولا دنا منه امْرُؤٌ صافاك أو داناك
مازلتي خادعتي ببرق خُلَّبٍ ولو اهتديت لما انخدعت لذاك

ثم يعرض بالدنيا من خلال حديثه بلسانها، كاشفا عن شراكها وخداعها من البيت الخامس إلى البيت العاشر، ويأتي حديثها عن نفسها على رأي محمد عويس في كتابه (من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي) على شكل أسئلة استنكارية،مقرَّة فيها بسطوتها على الإنسان وقمعها لغروره وبطشه[3]. يقول : [4]

قالت : أَغَرَّكَ من جِناحِكَ طُولهُ وكَأَنْ به قَدْ قُصَّ في أَشْرَاكِي
تالله ما في الأرض موضع راحَةٍ إلاَّ وقد نُصِبَتْ عَلَيْهِ شِباكِي
طِرْ كيف شِئْتَ فَأَنْتَ فِيها وَاقِعٌ عانٍ بها لا يُرْتَجى لِفَكاكِ

(1) محمد عويس: من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي. 52
(2) أبو إسحاق الإلبيري :الديوان. 34
(3) محمد عويس: نفسه. 52
(4) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه. 34

منْ كان يَصْرَعُ قِرْنُهُ في معْرَكٍ فَعَلَيَّ صَرْعَتُهُ بغير عِرَاكِ
ما أعرف العَضْبَ الصَّقِيلَ ولا القنا ولقد بَطَشْتُ بِذِي السِّلاح الشَّاكِي
كم ضَيْغَمٍ عَفَّرْتُهُ بِعَرينِهِ ولكَمْ فَتَكْتُ بِأَفْتَكِ الْفُتَّاكِ

ثم يبدأ من البيت الحادي عشر في الرد على هذه الأسئلة الاستنكارية، مبديا تعجّبه من غدرها ومن شدّة بغضها لمن يهواها، في صورة عكسية للمألوف، فالحب يوجب الحب، لكن من لؤمها فهي تقابل الحب بالبغضاء والغدر ،والعجب كلّه هو أمر هذا الإنسان، كيف يخدع في الدنيا، وقد تجلَّت له شراستها وقسوتها مع أقرب الناس إليها،وهم أولادها المفتونون بها، فهي أم ضارية تأكل أولادها فور ولادتهم، فبئس الأم هي، فهي إذا سراب خادع للأبصار، وداء كامن بين الضلوع،[1] يجب على المؤمن مداواة نفسه منها ، يقول : [2]

فأجَبْتُها مُتَعَجِّبا من غَـدْرِهَا أَجْزَيْتِ بِالْبَغْضَاءِ من يَهْـوَاكِ
لأَجَلْتُ عيني في بَنِيكِ فَكُلُّهُم أَسْرَاكِ أو جَرحاك أو صَرْعاكِ
لو قارَضوك على صنيعك فيهم قطعوا مدى أعمارهم بِقَـلاَكِ
طَمَسْتِ عقولهم ونور قُلوبِـهِم فتهافتوا حِرْصًا على حَلْوَاكِ
فكأنهم مثل الذباب تساقطت في الأَرِي[3] حتى اسْتُؤْصِلُوا بهلاك
لا كُـنْت مِن أُمٍّ خادِعة لنَا أكَّالَـةٍ بَعْد الـولاَدَة، مَا أَقَـلَّ حَيَاكِ !

ويسترسل الشاعر ماضيا في تحقيره للدنيا، التي خبر حقيقتها، كاشفا عوراتها للغافل ليصحو من غفلته، فهي زائلة فانية، إذ لم يخلد فيها إنسان قط فقيرا كان أم غنيّا، سيِّدا أومسودا، لأنَّ كل شيء فيها هالك، ومن ثم فعلى الإنسان العاقل المؤمن

(1) محمد عويس: من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي. 53
(2) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان . 35
(3) الأري .العسل.أنظر ابن منظور: لسان العرب.ج1. 52

بقضاء الله وقدره، أن يسلك المسلك القويم، فيزهد في هذه الدنيا ويحقرها، إذ في حياة النّسك والزهد راحة لمن يريد أن يعيش سعيدا مطمئنا في الدّارين.[1]
يقول الإلبيري : [2]

ما إنْ يَدوم الفَقْر ولا الغِنَى سِيَّان فقرك عندنا وغِنَاكِ
أين الجبابرة الأُلَى وَرِيَاشُهُمْ قد باشروا بعد الحرير ثَرَاكِ
ولطالما ردُّوا بأردية البها فتعوضوا منها رداء رداك
كانت وجوههم كأقمار الدُّجَا فغدت مُسَجَّاةً بثوب دُجَاكِ
وَعَنَتْ لقيُّومِ السماوات العلا ربِّ الجميع، وقاهر الأملاك
وجلال ربي لو تصح عزائمي لزهدت فيك ولا ابتغيت سِوَاكِ
وأخذت زادي منك من عمل التقى وشددت إيماني بنقض عُرَاكِ
وَحَطَطْت رحلي تحت ألوية الهدى ولما رَآنِي الله تحت لواك

وعن حقيقة الدنيا والدعوة إلى الزهد فيها قال ابن الجلاء : ((الزهد والنظر إلى الدنيا بعين الزوال، لتصغر في عينك، فيسهل عليك الإعراض عنها)).[3] وقال رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ((**يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلاَث فَيَرْجِعُ اثْنَانُ وَيَبْقَى وَاحِدٌ، يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ**)). [4]

وتتكرّر معاني ذمّ الدنيا في شعر أبي إسحاق الإلبيري من خلال هذه الأبيات التي يخاطب فيها الدنيا، مذكّرا إيَّاها بفنائها إنْ آجلا أو عاجلا، فلا تبق لها أرض ولا أفلاك، ولا زرع أو نبات، فكلٌّ من عليها فان، . يبقى وجه الله باسطا يديه على الأكوان[5]. ثم بإرادة من الله وبأمره تبعث الخليقة بعد الممات، لتجزى كل نفس بما

---

(1) محمد عويس: من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي. 53- 54
(2) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 36
(3) القشيري: الرسالة القشيرية. باب الزهد. 116
(4) الإمام مسلم : صحيح مسلم.باب الزهد. 95
(5) محمد عويس: من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي. 54

قدّمت من عمل، ليكون الجزاء من جنس العمل إن خيرا فخير، وإن شرّا فشر، وجزاء الزاهد في الدنيا السَّاخط عليها، المؤثر لحياة النسك والعبادة، رضوان ربِّه ومغفرته. يقول : [1]

مهلاً عليك فسوف يلحقك الفنا فَتُرَيْ بلا أرض ولا أَفْـلاَكِ
ويعيدنا ربٌّ أمات جميعنا ليكون يُرْضِي غير من أرضاك
والله ما المحبوب عند مليكه إلا لبيب لم يزل يَشْنَـاكِ
هجر الغواني واصلاٌ لعقائل ضحكن حبًّا للوليِّ الباكـي
إني أَرِقْتُ لهُنَّ لا لحمائم تبكي الهديل على غصن أرَاكِ
لا عيش يصفو للملوك وإنما تصفو وتحمد عيشة النُّسَاكِ
ومن الإله على النبِّي صلاته عدد النجوم وعِدَّة الأمْلاَكِ

هذه الفكرة عبَّر عنها حسن البصري بقوله : ((إنَّما الفقيه الزاهد في الدنيا، البصير بذنبه، المداوم على عبادة الله، عز وجل)). [2]

وعن الزهد في الدنيا عبَّر ابن عطاء السكندري كذلك بقوله : ((علامة في فقدها وعلامة في وجدها، فالعلامة التي في وجدها الإيثار منها، والعلامة التي في فقدها وجود الراحة منها شكر لنعمة الفقدان)). [3]

وقال بعض الحكماء : ((الدنيا كالماء المالح كلما ازداد صاحبه شربا، ازداد عطشا، وكالكأس من العسل، في أسفله السم، فللذائق منه حلاوة عاجلة، وفي أسفله الموت الزعاف)). [4]

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 36-37

(2) أبو الوفا الغنيمي التفتازاني : مدخل إلى التصوف الإسلامي. 75

(3) عبد الحكيم عبد الغني قاسم: المذاهب الصوفية ومدارسها.مكتبة مدبولي.القاهرة. مصر. ط2. 1999.ص 57

(4) إميل ناصيف: أروع ما قيل في الزهد والتصوف.دار الجيل. بيروت. لبنان.ص 87

وقال حكيم لبعض أصحابه :((تريد أن أريك الدنيا، فقال: نعم.فأخذ بيده وانطلق حتى وقف به على مزبلة فيها رؤوس الآدميين ملقاة، وبقايا عظام نخرة، و خرق قد تمزقت وتلوَّثت بنجاسات.فقال : هذه رؤوس الناس التي تراها كانت مثل رؤوسكم مملوءة

من الحرص والاجتهاد على جمع الدنيا، وكانوا يجدُّون في جمع المال وعمارة الدنيا كما تجدُّون، فاليوم تعرَّت عظامهم وتلاشت أجسامهم كما ترى، فهذه جملة أحوال الدنيا تشاهد وترى، فمن أراد أن يبكي على الدنيا، فليبك فإنَّها موضع بكاء.)) [1]

ومن مضامين شعر أبي إسحاق الإلبيري الدالة على فناء الدنيا وزوالها، ذكر الشَّيب والشباب، وما يطرأ على الإنسان من تحول وتغيَّر نتيجة تعاقب مراحل عمره، كلّ ذلك مدعاة للتّأمل في الدنيا، والزهد فيها، فالشّيب مقدمة للفناء والزوال وانقضاء العمر. يقول الإلبيري : [2]

ما لِغُصِني ذَوَى وكان نضيرًا ولظهري انْحَنَى وكان مُقَوَّمْ
ولحدي نبا وكان مُبِيْرًا ولِجيشي انْثَنَى وكان عَرَمْرَمْ
ولِدهْري أَدال شَرْخَ شبابي بمشيب عند الحسان مُذَمَّمْ
فأنا اليوم عن هَواهُنا سَالٍ وقديما بهن كنت متيَّمْ
لو بِرَوْقِ الزَّمَان يَنْطَح يَوْمًا رُكْنَ ثَهْلانَ هدَّهُ فَتهَدَّم

وفي أبيات أخرى يورد الشاعر المعنى نفسه، بذكره للشَّيب كنذير للفناء الحتمي الذي لا مفرَّ منه للإنسان، داعيا إيَّاه إلى التَّبصر بأمر الدنيا والاعتبار والإعراض عنها، فالعاقل من الموت تنبه، والجهول عنه لهى ولا انتهى.

---

(1) إميل ناصيف: أروع ما قيل في الزهد والتصوف. 88
(2) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 50

يقول الإلبيري : [1]

الشَّيبُ نَبَّهَ ذا النُّهَى فَتَنَبَّهَا ونهى الجهول فما استفاق ولا انْتَهَى
بل زاد نفسي رغبة فتهافتت تبغي اللُّهَى وكأن بها بين اللَّهَا

فإلى متى ألهو وأفرح بالمُنَى والشيخ أقبح ما يكون إذا لَهَا

وفي نباهة الحكيم العارف، ومهارة الطبيب الكاشف، يقف الشاعر أبو إسحاق الإلبيري على مكمن الدّاء، الذي شخَّصه في طول الأمل في الدنيا والوثوق بها والاطمئنان لها، وما ينجرّ عن ذلك من تأخير للتوبة والتَّسويف لها، ومردُّ ذلك أسباب: أحدهما حب الدنيا والثاني الجهل.

أما حب الدنيا: فإنَّ الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذَّاتها ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه عن التّفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكلّ من كره شيئا دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأماني الباطلة، فيمنّي نفسه دوما بما يوافق مراده في البقاء في الدنيا، وأصل هذه الأماني كلَّها حبُّ الدنيا والأنس بها، والغفلة عن غدرها.

أما الجهل وهو أن الإنسان يعوّل على شبابه وعنفوانه فيستبعد قرب الموت مع الشباب والصحة. [2] يقول الإلبيري : [3]

وهَجَرْتُ دُنيا لم تَزل غرَّارَة بِمُؤَمِّلِيهَا الْمُمْحِضِينَ لها الوَفَا
سَحقتهم وديارهم سحق الرَّحَا فعليهم وعلى ديارهم الْعَفَا
ولقد يخاف عليهم من ربهم يوم الجزاء النَّار إلاَّ إن عَفَا
إنَّ الجواد إذا تَطَلَّب غايـة بلغ المدى منها وبَذَّ الْمُقْرِفَا
شَتَّانَ بين مُشَمِّرٍ لِمِعَادِهِ أبَدًا وآخر لا يزال مسَوِّفَا

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 47

(2) محمود المصري: رحلة إلى الدار الآخرة.مكتبة الصفا.القاهرة. مصر. ط1 .2005 . ص52

(3) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه. 46

ويقول كذلك : [1]

إن الأَلِبَّاءَ وهـم قِلَّـة فَرُّوا إلـى الله من النَّـارِ
وطَلَّقوا الدنيا بتاتا ولـم يَلْوُوا عليها حذر النـَّار
وأبْصروا من عيبها أنـها فتَّانـة تدعو إلى النَّـار

إن تطليق الدنيا والزهد فيها، عند الالبيري لا يعني الانعزال والانفراد بالنفس في زاوية من الزوايا، والانقطاع للعبادة والنسك، دون البحث عن أسباب الرزق، فهذا يخالف روح الإسلام وتعاليمه، والفطرة البشرية التي فطرت على السَّعي إلى الكسب من أجل العيش، فالشاعر وإن نظر إلى متاع الدنيا بعين السخط، لكنَّه في المقابل يدعو إلى السَّعي وراء الكسب الحلال دون الإفراط فيه، خشية أن يفتن المرء ويغتر، لقوله تعالى في سورة التوبة: ((**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**))، [2] وفي هذا الصدد يقول الإلبيري: [3]

لا خَيْرَ فِي كَسْبِ الحَرامِ وقَلَّمَا يُرْجَى الخَلاصُ لِكَاسِبِ الْحَلاَلِ

بهذه الروح الدينية القوية بما فيها من ثقة بالله سبحانه، ومن تمييز بين جوهر الدين والخُلق وعرض الدنيا الزائل، توجَّه أبو إسحاق الإلبيري بهمَّة عالية إلى الآخرة الباقية مستعينا بالصبر والصمود في مواجهة محن الحياة وخطوب الزمان، لأن الدنيا الفانية كلها لا تساوي عنده جناح بعوضة، لذلك ترددت في شعره عبارات الشكر والحمد الله على كل نعمه.

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 91-92

(2) سورة التوبة: الآية 34

(3) أبو إسحاق الالبيري: نفسه. 40

يقول : [1]

فَعَسى من له أُعَفِّرُ وَجْهِي سيرى فَاقَتِي إليه فَيَرْحَمْ
فَشَفِيعِي إليه : حُسن ظُنوني ورجائي له، وأنِّي مُسلم
ولَهُ الحَمْدُ أنْ هَداني لِهَذا عددَ الْقَطْرِ ما الحَمَامُ تَرَنَّمْ

وإليْهِ ضَرَاعَتِي وابْتِهَالِي في مُعافاة شَيْبَتِي من جَهَنَّمْ

فهو شاعر أوى إلى الزهد في حياته طواعية، لأنَّه أبصر من أمره ما كان خافيا عنه، فرأى أنَّ ما ناله من لذَّات الدنيا إلى فناء، وما اكتسب من أوزارها باق سوف يُسأل عنه أمام الله، وتبيَّن له أنَّ السَّعيد من ينجو من النَّار لا من تسعده دنياه وترضيه.

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 51

2 / الزهد في المـال:

المال عصب الحياة، و زينة من زينتها، لذلك فُطرت النُّفوس على حبِّه وجمعه، ويؤكِّد ذلك ما ورد في القرآن الكريم لقوله تعالى: ((**الْمَالُ وَالْبَنُون زِينَةَ الْحَيَاة الدّنْيَا**)) [1] وقوله تعالى كذلك في سورة الفجر((**وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا**)) [2].

والإسلام لا يُنفِّر من المال، كما أنه لا يُنفِّر من الدنيا، وإنَّما يحذِّر من أن يمتلك قلب المرء فيتخذه هدفا وغاية، فإذا أصيب القلب بداء حب المال كان شرًّا عليه وعلى المحيطين به، وقد فطن الشعراء الزهاد إلى خطورة هذه الآفة،فلم يكتفوا بتطهير أنفسهم منها فحسب،بل راحوا انطلاقا من مسؤولياتهم الدِّينية والخُلقية والاجتماعية يحاربون هذه النَّزعة المادية غايتهم تخليص المجتمع من شرِّها، وإذا تأمَّلنا شعر أبي إسحاق الإلبيري وجدناه ينكر ما يراه من تنافس على حب المال، والسَّعي الجاد إلى جمعه.

ينطلق الشاعر في حديثه عن المال من وجهة نظر حول قضية الوجود الإنساني، المقترنة بالحديث عن ثنائية العلم و المال، حيث يعقد الشاعر في أغلب أشعاره مقارنة بين هذين القطبين في حياة الإنسان، منطلقا من مرجعيته الإسلامية التي شكلت فهمه للوجود الإنساني،والذي يجب عليه تغليب الجانب العقلي الذي يمثله العلم على الجانب المادي الذي تمثله الثروة، فمن الجهل واللاَّعدل تغليب المال على العلم في هذه القضية، وهو ما ذهب إليه محمد عويس في تعليقه على الأبيات التالية للإلبيري في كتابه (من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي) [3] يقول أبو إسحاق الإلبيري: [4]

جَعلتَ المالَ فوق العِلمِ جَهْلاً لَعَمْرُكَ في القضية مَا عَدَلْتَا

---

(1) سورة الكهف: الآية 46

(2) سورة الفجر: الآية 20

(3) محمد عويس: من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي. 62

(4) أبو إسحاق الإلبيري:الديوان 22

ويواصل الشاعر إبراز فضل العلم على المال من خلال الدعوة إلى التَّمعن ومراجعة صفحات التاريخ والاعتبار بها،لما تنطوي عليه من عظات وحكم.

فأيُّ قيمة للإنسان غير العالم إذا مَلَكَ مُلْكَ العراق وإذا ما شيَّد القصور و الحدائق والجنان، ونفسه خربة خاوية، إنَّه بجهله يهدم هذه الصروح المادية التي شيَّدها بماله، بينما العلم يبني بيوتا لاعماد لها، ويتكلم عن صاحبه ويرفعه حيًّا ويذكره بخير بعد وفاته،[1] يقول الإلبيري: [2]

ولا تَحْفِلْ بِمالك وَالْـهُ عنه فليس المـال إلا مَا عَلِمْتَا
وليسِ لِجاهلٍ في النَّاس معنى ولو مُلْكُ العراق له تَأَتَّى
سَينطقُ عنك عِلمك في نَـدِيٍّ ويكتب عنك يوما إن كَتَبْتَا
وما يُغنيك تَشْيِيدُ الْمَبانِـي إذا بالْجَهْلِ نَفْسَك قَدْ هَدمتا

ويستدِّل الشاعر في تفضيله للعلم على المال، بما ورد في القرآن الكريم ما يدل على هذه الأفضلية،إذ كان من دعاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما جاء في سورة طه ((**وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا**)) [3]

فهذا الدعاء إنَّما جاء بعد تمعّن وتدبّر في حقيقة الوجود الإنساني، ودليلا على قيمة العلم وأفضليته على المال عند الله سبحانه وتعالى.

وحين يفاضل الشاعر بين العالم وصاحب المال، ينتصر للأول على الثاني، إذ لصاحب العلم مكانة عالية ومنزلة رفيعة عند ربه وفي مجتمعه، فالمفاضلة بينهما عنده كمن يجلس فوق الكواكب وبين من يجلس فوق الحشايا، لهذا ينصح الشاعر المرء

---

(1)محمد عويس:من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي. 63

(2) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 22

(3) سورة طه: الآية 114

بالتجارة الرَّابحة، تجارة العلم والتَّفقه في الدِّين بقصد معرفة الله وكسب رضاه وودِّه[1].

يقول الإلبيري في هذا المعنى مقارنا و مفاضلا بينهما، ومبرزا جوانب امتياز العلم على المال، من خلال عرض حجج وبراهين دينية وعقلية. [2]

وبَيْنَهُما بِنَصِ الوَحْيِ بَوْنٌ ... سَتَعْلَمه إذا طه قَـرَأْتَا

لَئِنْ رَفَعَ الغَنِيُّ لِواءَ مَـال ... لأَنْتَ لواء علمك قد رَفَعْتَا

وإنْ جَلس الْغَنِيُّ عَلى الحشايا ... لأَنْتَ على الكَواكِب قد جَلَسْتَا

ومَهْمَا افْتَضَّ أبْكَارَ الْغَوانِـي ... فَكَمْ بِكْر مِن الْحِكَمِ افْتَضَضْتا

وليس يَضُرُّك الإقْتارُ شَيْئا ... إذا ما أنْت رَبَّك قد عَرفْتا

فَماذا عنْده لك من جَمِيـل ... إذا بِفِنَاءِ طَاعته أَنَـخْتَا

فَقابل بِالقُبولِ صَحِيح نُصْحي ... فإن أعْرضْت عَنه فَقَدْ خَسرْتا

وإنْ راعَيْتـه قَولاً وفِعْلاً ... وتاجَرت الإله بِـه رَبِحْتَا

ولا يتَّفق العلم مع حب المال،فهما كالزيت والماء لا يمتزجا بالرغم من منفعتهما للمرء، فكم من عالم أفسده حب جمع المال،فلعبت به الدنيا وزادته إذلالا، وساوته في المنزلة مع الجهال، فخسر دينه ودنياه[3]، وفي هذا الوصف قال الإلبيري: [4]

لا شَيء أَخْسَرُ صفقة من عالم ... لعبت به الدُّنيا مع الْجُهَّالِ

فغدا يُفَرِّقُ دينه أَيْـدِي سَبَا[5] ... وَيُزِيلُهُ حِرْصًا لجمع المالِ

---

(1) محمد عويس: من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي. 64

(2) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 23

(3) محمد عويس: نفسه. 64

(4) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه. 39

(5) سبا: أي فرقتهم طرقهم التي سلكوها، والعرب لا تهمز سبا في هذا الموضع لأنه كثر في كلامهم فاستثقلوا فيه الهمزة وإن كان أصله مهموزا .أنظر ابن منظور : لسان العرب.ج2 . ص77

وأبغض المال عند الله ما كان من كسب حرام، لأنَّ الكسب الحرام كالنَّار في الهشيم تحرق أقرب شيء إليها، فلا خير يرجى فيه، فالمال عبء ثقيل على صاحبه في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا بلاء وفي الآخرة حساب وعقاب.إلا من أنفقه في سبيل الله . وكان حلالا . ومرضاته فإنه يبقى في ميزان صاحبه،فيوم الحساب لا يفرق الله بين غني وفقير، بل الغني من ثقلت موازينه بالحسنات، والفقير من خفت موازينه، ويكفي أغنياء الدنيا وعيد الله لهم يوم القيامة بقوله في سورة التوبة ((**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** (34) **يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورَهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونْ**(35))).[1]

من ثمَّ فعلى الإنسان المؤمن أن لا يسعى في جمع المال واكتنازه إلا ما يسد رمقه ويكفي حاجته في هذه الدنيا الفانية، فكم من غني قبر في الثَّرى و لم يغنيه ماله شيئا، ولنا في القبور عبرة لمن يعتبر، وأراد النَّجاة لنفسه يوم البعث للحساب.

يقول الإلبيري ناصحا: [2]

ما إن سَمعتُ بِعائلٍ تُكْوَى غداً بالنَّار جَبْهته على الإقْلاَلِ
وإذا أرَدْت صحيح من يُكْوَى بها فاقْرأ عَقِيبَةَ سورة الأَنْفالِ
ما يثقلُ الميزان إلاَّ بإمْرِىءٍ قدْ خَفَّ كاهِله من الأثقَالِ
فَخذْ الكفاف ولاتكن ذا فَضْلَة فالفَضْل تُسْأَلُ عنه أيَّ سُؤَالِ
ودع المطارفَ والمَطِيَّ لأهلها وأقنع بِأَطْمارٍ وَلِبْسِ نِعَالِ
فهمْ وأنت وفَقرُنَا وغِناهُم لا يستقرُّ ولا يدوم بِحالِ
وطُفْ بالبلاد لكي ترَى أثار من قدْ كان يَمْلكها من الأَقْيَالِ

---

(1) سورة التوبة: الآية 34-35

(2) أبو إسحاق الإلبيري:لديوان 40-41

إلى أن يقول: [1]

وإذا أتَيْتَ قُبورَهم فَاسْـأَلْهُمُ عما لَقوا فيها من الأَهْوَالِ
فَسَيخْبِرُونَكَ إن فهمت بحالِهِمْ بعبارة كالوحْيِ لاَ بِمقالِ
إنَّا بها رهْنٌ إلى يوم الجَـزَا بِجَرائِم الأَقْوال و الأفْعالِ
منْ لا يُراقب ربَّه ويَخَافه تَبَّتْ يداهُ ومَالَه مِن وَالِ

ويستمرُّ الشاعر في إبراز وجهة نظره حول الإعراض عن الجانب المادي مستندا على حقيقتين واضحتين في شعره: حتمية الفناء بالنسبة للإنسان،وعدم الاطمئنان إلى الغنى المادي، فكم من غنيّ أمسى معدما وكم من ملك جبَّار أفنى الموت ملكه بلا انتظار، [2] وفي هذا المعنى يقول داعيا إلى الاعتبار : [3]

أيْن المُلوكُ وأين ماجَمَعُوا وما ذَخروهُ من ذَهَبِ الْمَتَاعِ الذَّاهِبِ
قَصَفَتْهُمْ ريح الـرَّدَى ورَمَتْهُمُ كَفُّ المَنُونُ بكلِّ سَهمٍ صَائِبِ

ويقول كذلك [4]:

وَارُوهُ لَحْـدَهُ وَسَنُّوا عليه قَيْدَ التُّرَابِ سَنَّا
وانْتَهَبُوا ماله وَشَنُّوا الغاراتِ فيما حَواهُ شَنَّا

لهذا ينصح الشاعر الإنسان بعدم الثقة في الغنى المادي والاغترار به، فصرف الزمان ذو دول، فكم غني افتقر، وكم من فقير اغتنى، فالغنى الحقيقي هو غنى النفس والكفاف من القوت بما يرد الحاجة.

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 41-42
(2) محمد عويس : من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي. 66
(3) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه. 115
(4) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه. 120

يقول: [1]

وذي غِنَى أَوْهَمتهُ هِمتُهُ أن الغِنَى عنه غير مُنْفَصِلِ
فجَرَّ أذيال عُجْبِهِ بَطَرًا واختالَ للكبرياءِ في حُلَلِ
بَزَّتْهُ أيدي الخطوبِ بِزَّتَهُ فاعتاض بعد الجديد بالسَّمَلِ
فَلاَ تَثِقْ فِي الغِنى فآفته الفقر، وصَرْف الزمان ذو دُوَلِ
كَفَى بِنَيل الكَفافِ منه غِنًى عنه فَكُن فِيه غيْرَ مُحْتَفِلِ

إنَّ مجموع هذه الأبيات تشكل خلاصة رأي الشاعر في الثروة المادية، من منظور إسلامي يعبِّر عن المرجعية الفكرية للشاعر ،والتي تجلَّت في زهده في الثروة المادية باعتبارها سبب شرور الإنسان في حياته ومماته.مصداقا لقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ((**إِنَّمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ**)). [2] و ما ورد عن السَّلف في التعريض بالمال، فقد روي أن رجلا نال من أبي الدرداء وأراه سوءاً، فقال أبو الدرداء:((اللَّهم من فعل بي سوءاً فأصح جسمه وأطل عمره وأكثر ماله)).[3]

فكثرة المال غاية البلاء مع صحة الجسم وطول العمر، لأنّهم إذا اجتمعوا لابدَّ أن يفضوا إلى الطُّغيان.

قال العلاء بن زيد في ذمه للمال: ((تمثَّلت لي الدنيا وعليها من كل زينة، فقلت أعوذ بالله من شرِّك، فقالت: إنْ سرَّك أن يعيذك الله منِّي، فأبغض الدِّرهم والدينار، وذلك لأنَّهما الدنيا كلّها، إذ يتوصل بهما إلى جميع أصنافها، فمن صبر عنهما صبر عن الدنيا)) .[4]

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 118
(2) الأمام مسلم:صحيح مسلم. باب الزهد. 94
(3) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين.ج4. دار الكتاب العربي.ص 08
(4) أبو حامد الغزالي: نفسه: 08

وروي عن مسلمة بن عبد الملك، انه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند موته فقال: يا أمير المؤمنين صنعت صنيعا لم يصنعه أحد قبلك.
تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار. وكان له ثلاثة عشر ولدا . فقال عمر: أقعدوني، فأقعدوه. فقال: أمَّا قولك لم أدع لهم دينارا ولا درهما، فإنِّي لم أمنعهم حقا لهم ولم أعطهم حقا لغيرهم، وإنَّما ولدي أحد رجلين، إما مُطيع لله فالله كافيه، والله يتولى الصالحين، وإما عاص لله، فلا أبالي على ما وقع. [1]

لذلك كرَّس الشاعر شعره ليكون وسيلة تربوية وخلقية تكشف عن حقيقة الوجود الإنساني الذي ينبني على العلوم الشرعية، والتي بفضلها يرتقي الإنسان ويتخلَّص من إغراءات المادية الزائفة والزائلة، إلى صفاء الروح بالإيمان لله والإخلاص له ابتغاء مرضاته.[2]

(1) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين. ج 4. ص 09
(2) محمد عويس: من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي. 67

3 / مجاهدة النفس(التقوى والقناعة):

إنَّ أكبر عائق في طريق الزاهد إلى بلوغ غايته الروحية هو نفسه، لما فطرت عليه من التَّعلق بالدنيا ومتاعها من مال وجاه وترف، لذلك كان من الطبيعي أن يخوض الزاهد صراعا عصيبا مع نفسه، يجاهد هواها ويحدُّ من رغباتها، ويطهِّرها من آفاتها، ويقهر فيها شهوة حب الدنيا، ويروّضها على حياة الزهد،[1] فالمجاهدة هي فطم النَّفس عن المألوف وحملها على مخالفة هواها في عموم الأوقات، وخرق عوائدها في جميع الحالات.

وهي ثلاث : مجاهدة الظّواهر بدوام الطّاعات وكفِّ المنهيات، ومجاهدة البواطن بنفي الخواطر الرديئة، ومجاهدة السَّرائر باستدامة الشهود بالحضور. وعدم الالتفات إلى غير المعبود. [2]

لذلك سجلت أشعار أبي إسحاق الإلبيري وعيه بخطر النفس على صاحبها إذا انقاد لهواها، لهذا فهو دائم الشَّكوى منها إلى ربِّه على جهلها و ميلها إلى اللَّهو والشَّهوات وتفريطها في الطاعات.يقول : [3]

إلى اللهِ أشْكو جَهْلَ نَفْسي فإنَّها تَميلُ إلى الرَّاحاتِ والشَّهَوَاتِ

وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال : ((أقعدوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها طلاعة تنزع إلى شر غاية)). [4]

وعن الشيخ أبي عبد الرحمن السَّلمي أنه قال : ((سمعت جدي أبا عمرو بن نجيد يقول: من كرمت عليه نفسه هان عليه دينه)). [5]

---

(1) عبد الستار محمد ضيف : شعر الزهد في العصر العباسي. 185

(2) عبد الله بن عجيبة: معراج التشوف إلى حقائق التصوف .تح.عبد المجيد خيالي.مركز التراث الثقافي العربي.الدار البيضاء.المغرب.ط1 .1425هـ -2004 م.ص 38

(3) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان . 54

(4) عبد الستار محمد ضيف: شعر الزهد في العصر العباسي. 185

(5) القشيري : الرسالة القشيرية . 101

فالنفس أمَّارة بالسُّوء، فلا غرو إن نظر إليها الشاعر أبو إسحاق الإلبيري على أنَّها منبع السّوء والشّر، فخاف وساوسها وأبغضها واعتبرها عدوَّه الأول، لما جبلت عليه من عصيان وسوء أدب، على رأي عبد الله بن خبيق[1]الذي قال ((الخائف عندي من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان)). [2]

وقول ابن عطاء : ((النفس مجبولة على سوء الأدب والعبد مأمور بملازمة الأدب، فالنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة والعبد يردها بجهده عن سوء المطالبة، فمن أطلق عنانها فهو شريكها في فسادها))،[3] هذه النظرة السَّوداوية المبغضة للنفس ترجمها الشاعر في قوله : [4]

وأَبْغَضْتُ نَفْسِي لِعصيانِـهَا وعاتبتهـا بأشَدِّ العِتَابِ
وقُلْتُ لها َبانَ عنك الصِّبَا وجَرَّدَكِ الشَّيْب ثوب الشَّبابِ
وما بعد ذلك إلا البِلَـى وسُكنى القُبور وهَوْل الحِسابِ
فأيْقَضَهَا العَتْبُ من نَومها ولكنَّها جمَّـةُ الاضْطِرابِ
فكَمْ أنشَأَتْ مُزْنةً لِلتُّقَى وعادت وشيكا كلمح السَّرابِ
وكَمْ وعَدَتْنِي بِتَـوْبٍ وكَمْ وما أنجزت وعدها في الْمَتَابِ
وكم خَدَعَتْنـي على أنَّنِـي بَصيرِ بطُرقِ الخَطا والصَّوابِ
فَلَسْتُ على الأمْنِ من غَـدْرِهَا ولوْ حَلفَتْ لي بِآيِ الكتـابِ

---

(1)هو أبو محمد عبد الله بن خبيق من الزهاد المتصوفة، كوفي الأصل سكن الثغور بأنطاكية.انظر:عبد الستار محمد ضيف : شعر الزهد في العصر العباسي. 186

(2) عبد الستار محمد ضيف : نفسه. 186

(3) القشيري : الرسالة القشيرية. 150

(4) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان . 64

هذه المشاعر تعكس ما يعتمر في نفس الشاعر من صراع بين رغبتها في أن تمتد لها الآمال والأيام، وما يجب أن تتفطَّن إليه من حقيقة الدنيا الفانيـة،لذلك دعاها إلى التَّبصر في تعاقب عمرها، فقد بان عنها الصّبا وجرَّدها المشيب ثوب الشباب، وبعد المشيب تسكن التراب ثم تبعث للحساب،وقد وقف الشاعر على مكمن داء نفسه، الذي شخَّصه في حبِّها للدنيا، والشَّهوة العاجلة، وتفريطها في الجنة الآجلة، وهي من علامات الحمق والسفاهة، لذلك سعى إلى إخراج الدنيا من قلبه، فلا يعمرها إلا حب الله ولا يشغلها إلا التَّزود لليوم الآخر. يقول في هذا الموضع: [1]

ما أمْيلَ النَّفسَ إلى الباطِلِ وأهْونَ الدُّنيا على العَاقِلِ
تُرْضِي الفتى في عاجل شهوةٍ لو خسر الجنـة في الآجلِ
يَبيـعُ ما يبقى بما يَنْقضي فِعْلَ السَّفِيهِ الأحْمقِ الجاهِلِ

وللنَّفس على الإنسان سلطان جائر، وحب الدنيا على القلب داء قاهر، إذا اجتمعا فهما الشر كلّه، وإذا افترقا فلا خير بعده، ولا فكاك لمن بهما ابتلي، وعن مكرهما عمي، إلا لمن تزوَّد بخير زاد . القناعة والتقوى . فقد نجا، لقوله تعالى: ((**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِي يَا أُولِي الأَلْبَابِ**)).[2]

فالتقوى والقناعة حصنا المؤمن من زيغ النفس وأهوائها، ومفاتن الدنيا وأدرانها. قال أبو يزيد البسطامي[3]((طوبى لمن كان همه واحدا ولم يشغل قلبه بما رأت

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان . 59

.(2) سورة البقرة : الآية 197

(3) هو طيفور بن عيسى بن شرشر وان، كان مجوسيا فأسلم، له لسان في علوم المكاشفات والتدقيق والفناء والبقاء أنظر عبد الرحمان بدوي: الشطحات الصوفية.وكالة المطبوعات.الكويت.ط3. 1978.ص 203

عيناه وسمعت أذناه، فمن عرف الله فإنه يزهد في كل شيء شغله عنه)). [1]

وقال أبو العباس المرسي . وهو صاحب المقام المشهور في الإسكندرية . ((الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة،والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا)) [2]

وأبو إسحاق الإلبيري لمَّا ضمَّن شعره الدعوة لهذه الخصال، أظهر جانبا من الدِّراية في وصف الدواء للنفوس العليلة المتمثل في التقوى والقناعة ،كما أظهر الجانب الدعوي الإصلاحي في شخصه، والذي ينبئ إحساسه بالمسؤولية اتجاه أمته .

أ / الدعوة لتقوى الله :

إن العزَّ في التقوى والرجاء والخشية، وأنَّ العصمة لا تكون إلاَّ إذا آب المرء إلى ربِّه، واستمسك بحبله ورجائه، فالمتقون هم الذين أضناهم الشظف والجوع والسهر، وخلصت أرواحهم لله،وسلكوا سواء السبيل،[3] فهي خير زاد يستزيد به في هذه الحياة،لقوله تعالى ((**وَاتَّقُوا اللهَ حَقَ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**)) .[4]

انطلاقا من هذا المفهوم الذي يؤسِّس للمنهج الدَّعوي الذي آثره الشاعر أبو إسحاق الإلبيري لنفسه، تبرز الدعوة إلى التقوى في ما توفر من شعره، من خلال حديثه عن سلوك الإنسان في حياته، باعتبار أن سلوكه يمثِّل الجانب العملي الذي تظهر فيه خلاصة الحقائق الروحية والعقلية، التي تؤسِّس لإدراكه السَّليم لحقيقة وجوده وعلاقته بربِّه، لذلك غلب على شعر الإلبيري المعاني التي تدعوا الإنسان إلى أن يطهّر نفسه بالتوبة الخالصة لله مما ارتكبه من معاص تغضب خالقه عز وجل، وأن يحصِّن

---

(1) عبد الرحمان بدوي : الشطحات الصوفية . 170

(2) أحمد أمين : ظهر الإسلام. ج3 .مكتبة النهضة المصرية. القاهرة.مصر.ط2 .1959.ص81

(3) محمد الصادق عفيفي : ثورة الخمريات وثورة الزهديات. دار الفكر .بيروت .لبنان .ط.1.1971.ص125

(4) سورة آل عمران :الآية 102

نفسه بالتقوى والعمل الصالح، فالشاعر في دعوته هذه ينصح نفسه أولا، باعتبارها الأولى بالنّصح، ومعاتبا لها على ما اقترفته من آثام، داعيا إياها إلى التوبة والتقوى جبرا لما أصابها من عطب، وتطهيرا لقلبه المخطئ بحب الدنيا الذي دنَّس نقاوته،[1] ومن قسوته التي أعمت بصيرته. يقول: [2]

أَأَحُور عن قصدي وقد بَرِحَ الخَفَا ... ووقفت من عمري القصير على شفا
وأرى شؤون العينِ تمسك ماءها ... ولَقَبْل ماحَكتِ السَّحَابَ الوُّكَفَا
وأخالُ ذاك لعبرة عرضت لها ... من قسوة في القلب أشبهت الصَّفَا
ولقَلَّ لي طولُ البكاء لِهفْوتيٍ ... فَلَرُبَّما شفع البكاء لمن هفا
إنَّ المَعاصِي لاَ تُقيمُ بِمنزلٍ ... إلا لتجعل منه قاعا صَفْصَفَا
ولو أنني داويت معطب دائها ... بِمَراهِم التَّقْوى لوافقت الشِّفَا
ولعفت مَوْرِدها المشُوبَ بِرَنْقِهَا ... وغسلت رَيْنَ القلب في عين الصَّفَا
وهَزَمْت جَحْفَلَ غَيِّها بإنابَةٍ ... وسَللتُ من ندم عليها مُرْهَفَا

ويصف لمن أراد حسن العاقبة،عليه أن يطهر نفسه ويكبح جماح غيِّها،وذلك بخشية الله، قبل أن ينقضي عمره ويقبر ثم يبعث للحساب،فيقف أمام ربِّه مذموما ذليلا، تعصره روح النَّدم على ما اقترفت يداه من ذنوب وآثام، لكن ساعتها لا ينفعه ندم ولو بكى دما طلبا للرَّحمة والمغفرة، وكيف يرحم وهو لم يرحم نفسه في الدنيا بتقوى الله، فمصيره الهلاك في جهَّنم و بئس المصير.

---

(1) محمد عويس: من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي. 67
(2) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان. 45

يقول الإلبيري : [1]

وَنَفْسَكَ ذُمَّ لا تذْمُمْ سِوَاهَا بعيبٍ فهي أجدرُ من ذَمَمْتَا
فَلَوْ بَكتْ الدِّمَـا عَينـاكَ خَوْفَا لِذنْبِكَ لم أقل لك قد أَمِنْتَا
ومِنْ لكَ بِالأمان وأنت عَبْد أُمِرْت فما ائتَمَرْتَ ولا أطَعْتَا
ثَقُلت من الذُّنُوبِ ولست تَخْشَى لجهلك أنْ تَخِفَّ إذا وُزِنْتَا

وتُشْفِقُ للمُصِرِّ على المعاصِي وتَرْحَمُهُ، ونفسك ما رَحِمْتَا
ولو وافَيْتَ رَبّك دون ذنبٍ وناقَشَكَ الحِسابَ إذًا هَلَكْتَا
تَفِرُّ من الهَجِيرِ وَتَتَّقِيهِ فهلاَّ عن جَهَنَّم قد فررتا؟
ولستَ تُطِيقُ أهْوَنَها عذابًا ولو كنتَ الحديدَ بِها لَذُبْتَا

كذلك بالعمل الطيب وتجنّب الخبيث تتمُّ سلامة الإنسان في هذه الدنيا، وبيّن الشاعر ذلك من خلال إبرازه الفرق بين العملين . الطيب والخبيث . في هذه الدنيا، سواء كان هذا العمل متَّصلا بالإنسان ذاته أم متَّصلا بعلاقة الإنسان بغيره أو مع ربِّه، فالسلوك الإنساني السَّوي لابد أن يكون في إطار ما رسمه الإسلام للإنسان البيِّن في قوله تعالى : **((وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا))** ،[2] وقال علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) : ((سادة الناس في الدنيا الأسخياء، وسادة الناس في الآخرة الأتقياء)) .[3]

---

(1)أبو إسحاق الإلبيري : الديوان . 26-27

(2) سورة الفرقان :الآية 63

(3) القشيري : الرسالة القشيرية. 108

من ثمَّ جاء حديث الشاعر في هذا الجانب متَّفقا و تعاليم الإسلام في الجانب العملي من شريعة التَّوحيد السَّمحة، فقد تحدث الشاعر عن العمل الإنساني وتنوعه بين الخير والشر، وجزاء هذا وذاك في الدنيا والآخرة . يقول: [1]

فَلا ترْضَ المَعايِبَ فهي عــارٌ عظيمٌ يورث الإنسانَ مَقْتَا
وتَهْوِي بِالوَجِيـهِ من الثُّرَيَّا وَتُبْدِلُهُ مكان الفَوْقِ تَحْتَا
كما الطَّاعاتُ تَنْعَلُكَ الـدَّرَارِي وتجعلُكَ القريبَ وإنْ بَعُدْتَا
وتنشرُ عَنكَ في الدنيا جَميـلاً فَتُلْفَى البَرَّ فيها حيثُ كُنْتَـا
وتَمْشي في مَنَاكِبِهـا كريمـا وتَجْني الحمْدَ مِمَّا قد غَرسْتَا
وأنت الآن لم تُعرف بِعـابٍ ولا دنَّسْتَ ثوبَكَ مذْ نشَأْتَ
ولا سابَقْت في ميـدان زورٍ ولا أوضعت فيـه ولا خَبَبْتَا
فإنْ لم تنْأَ عنـه نشبت فيه ومن لك بِالخَلاص إذا نَشِبْتَا
ودَنَّسَ ما تَطهَّرَ مِنْكَ حتى كأنَّك قبل ذلك ما طَهَرْتَا
وصِرْت أسيرَ ذنبِك في وَثاقٍ وكيف لك الفَكاكُ وقد أُسِرْتَا

فتقوى الله في رأي الشاعر تنبع من عمق الإيمان بالعقيدة الإسلامية السَّمحة، التي تدعو إلى العمل الصالح بقصد النَّجاة من عذاب الله يوم القيامة، ومن ثمَّ تكون هذه التقوى عاكسة لطهر النفس التائبة والخاشعة لله في السِّر والعلن، والمؤملة في رحمة الله ومغفرته يوم الحساب،فالتقوى دافعة للمهالك مُبصِّرةٌ بخير المسالك لقوله تعالى : ((**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جَثِيًّا**)) [2]

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان . 28

(2) سورة مريم : الآية 71-72

هذا الوعد للمتَّقين والوعيد للظَّالمين من الله سبحانه وتعالى، تجلىَّ أثره في مشاعر الخوف والفزع التي انتابت الشاعر أبا إسحاق الإلبيري في قوله : [1]

فيا لَهَفِي على طُول اغْتِرارِي ... ويا ويْحِي من اليَوْمِ العَصِيبِ
إذا أنا لم أنُـحْ نفسي وأبْكِـي ... على حُوبي بِتَهْتانِ سَكوبِ
فَمَنْ هذا الّذي بَعْدي سَيبكي ... عليها من بَعِيدٍ أو قَريب؟

فالخوف من سوء الجزاء يوجب الاتِّقاء، على رأي أبي هريرة(رضي الله عنه) لما جاءه سائل يسأله عن التقوى فقال أبو هريرة : ((هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال السائل نعم، قال أبو هريرة: فكيف صنعت ؟ قال السائل : إذا رأيت الشوك عدلت عنه، أو جاوزته، أو قصرت عنه، قال أبو هريرة:ذاك التقوى)).[2]

فاتّقاء الذُّنوب وامتثال الأوامر، واجتناب المناكر في الظواهر والسَّرائر، ومواصلة الطاعات والإعراض عن المخالفات والمعاصي،شرط صحة التقوى، كما قال سهل بن عبد الله التستري أبو محمد :((من أراد أن تصح له التقوى فليترك الذنوب)).[3]

والمعاصي كما صورها أبو إسحاق الإلبيري كالسيل الجارف، لا يمرُّ بمنزل إلاَّ وحطَّه من عليائه، أو كالدَّاء الخبيث الذي يستعصى دواؤه، إذا تمكن من جسد الإنسان العاصي نخره وأفناه ،لذا وجب على المؤمن أن يتَّقيها بمراهم التقوى والطاعة ، يقول الالبيري : [4]

إنَّ المَعاصي لا تُقِيم بمنزلٍ ... إلاَّ لِتَجْعَلَ منه قاعًا صَفْصَفَا
ولـو أنَّنِي داويت مَعْطَبَ دائِها ... بِمَراهِمِ التَّقوى لَوَافَقَت الشِّفَا

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان. 32
(2) محمود المصري : رحلة إلى الدار الآخرة. 41
(3) القشيري : الرسالة القشيرية. 107
(4) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان أبو إسحاق الإلبيري .نفسه. 45

فالتقوى إذا في شعر أبي إسحاق الإلبيري أعظم الأسباب التي تعود بالمؤمن إلى حسن الخاتمة، فهي سبب لتكفير السَّيئات ومغفرة الذنوب، وكبح هوى النفس وتقلّب القلوب، وهي خلق إسلامي ينبئ بسلامة العقيدة والسَّريرة، واستقامة السلوك، وتطويع النفس ولجمها،وقد ورد ذكرها والدعوة لها في التراث الأدبي على لسان العديد من الشعراء ، ولعل أبرزهم الشاعر أبو العتاهية الذي قال : [1]

ماالفَخْرُ إلاَّ في التُّقى والزُّهد، وطَاعَة تُعْطِي جِنان الْخُلدِ
لا بدَّ من وِرْدٍ لأهل الوِرْدِ، إمَّا إلى خَجلٍ ،وإمَّا عَدٍّ

ب / القناعة :

القناعة عامل مهمّ من عوامل الزهد، بل هي الرَّكيزة الأساسية، ولو وطأ الإنسان نفسه لها ورضي بها، لتخلَّص من أدران الطمع، واستقرَّ به المقام، وطابت روحه واطمأنَّت، [2] وقد ورد في الأثر حديث كثير، يدعو إلى التَّحلي بهذا الخلق الكريم،الذي يعدُّ من علامات الإيمان و الزهد والمجاهدة، قال أبو هريرة : ((ماصدقتكم أنفسكم تأملون مالا تبغون وتجمعون ما لا تأكلون وتبنون ما لا تسكنون)). [3]

وقال بشر الحافي : ((القناعة ملك لا يسكن إلا في قلب مؤمن)). [4]

أمَّا عند الإلبيري فقد ارتبطت دعوته للقناعة والكفاف، في عدد قليل من الأبيات التي وردت في شعره، بالزهد في الدنيا ومتاعها، باعتبارهما نقيضين لا يجتمعان في نفس المؤمن، فالقناعة بما تمثِّله من رضى بالقليل، وحب الدنيا بما يمثله من حرص

---

(1) أبو العتاهية : الديوان.تق. مجيد طراد .دار الكتاب العربي. بيروت .لبنان. 1425 هـ . 2004 م .ص111

(2) محمد الصادق عفيفي : ثورة الخمريات وثورة الزهديات . 130

(3) أحمد بن حنبل الشيباني: الزهد .تخ.محمد بن عيادي بن عبد الحليم. مكتبة الصفا.القاهرة.مصر.ط1. 1424 هـ 2003 .ص 226

(4) القشيري :الرسالة القشيرية. 157

على التَّحصيل، خطَّان لا يلتقيان في موضع واحد، والشاعر حينما يدعو للقناعة ويحبِّب فيها، فإنَّه يرى فيها التِّرياق الشَّافي من نوازع النفس وأهوائها، والحصن الكافي لصد الدنيا

وإغرائها، فهي حيلة المؤمن المؤمل في الآخرة ونعيمها، والمتَّقي لجهنَّم وسعيرها، فالمؤمن الفقير القانع بالموجود، أغنى نفسا من الغنيِّ الطَّامع في المفقود، وكما أنَّ القناعة تورث السَّكينة والاطمئنان، فإن الحرص على الدنيا يورث الشَّقاء والطُّغيان. يقول الشاعر في ذمِّ الغنى وعدم الوثوق به فآفته الفقر، ويدعو إلى تحصين النفس بالكفاف: (1)

فلاَ تثقْ في الْغِنَى فَآفَتُه الْفَقْرُ وَصَرْفُ الزَّمَـانِ ذو دُوَلِ
كَفَى بِنيلِ الكَفافِ مِنْهُ غِنَـى عنه فَكنْ فيه غيرَ مُحْتفِـلِ

ومعاني هذه الأبيات تتقاطع في صورة جلية مع معنى قول مالك بن دينار في الدعوة للقناعة والكفاف:((إني لأغبط الرجل يكون عيشه كفافا،ويقنع به)). (2)

فالقناعة إذا خلق من أخلاق شاعر الزهد أبي إسحاق الإلبيري،الذي آثر شظف عيش يكبح شهواته،على رغد عيش يورث التَّفريط في عباداته، مستندا في ذلك على قناعته بأنَّ الدنيا دار فناء وعبور إلى الآخرة دارالشقاء أو السرور، فمن عرف هذا المصير للدنيا، وحصَّن نفسه بالقناعة ، ورضي برزقه واكتفى، تساوى عنده الفقر و الغنى، يقول:(3)

قَالوا ألاَ تَسْتَجِدُّ بيتًا تُعْجَب من حُسْنِهِ البُيُوتْ
فقلتُ ماذلكُمْ صوابٌ حَفْشٌ كثير لمن يموتْ

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان. 118

(2) أبو عبد الله القرطبي : قمع الحرص بالزهد والقناعة. تح.الصادق بن عبد الرحمان الغرياني.دار ابن حزم. بيروت . لبنان.ط1. 2006 . ص 120.

(3) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه. 62

لولاَ شتاء ولفحُ قيـظٍ وخوفُ لصٍّ وحِفظُ قُوتْ
وَنِسْوةٌ يَبْتغِينَ سِتْـرًا بنيت بُنْيانَ عَنْكَبـوتْ
وأيّ مغْنًى لِحُسْنِ مَغْنًى ليسِ لأَرْبابِـهِ ثُبـوتْ

وفي موضع آخر يعبِّر الشاعر عن اختياره لحياة الكفاف طواعية، بالرغم من مهارته في تحصيل المال وجمعه، لأنَّ الله عوَّضه عنه بنفس راضية بقليل القوت،و إيمانا منه كذلك بأنَّ لا غنى إلا غنى النفس . فكلّ ما زاد عن حاجته بلاء يؤذيه في الدنيا والآخرة. يقول : [1]

ولو أنَّني أرْضى القَذا في مَشْرَبِي لَكَرِعْتُ كَرْعَة ظَامِئٍ بِهَواجِرِ
وعبَرت بَحْرَ الرِّزقِ ألْتَمِسُ الغِنَى حِرصا عليه وكُنتُ أمْهَر ماهِرِ
لكنَّنِي عُوِّضْت منه عِنايَة بِقناعة وتَجَمُّلٍ في الظَّاهِرِ
فمن الْغِنَى ما قد يَضرُّ بِأهْلِهِ والفقرُ عند الله ليس بِضَائِرِ
ولقد أصَبْت من الْمَطاعِمِ حاجَتي ومن الملابس فوق ما هو سَاتِرِي

فالشاعر أبو إسحاق الإلبيري عرف طريق ربِّه فسلكه عن إيمان ودراية، وشخَّص داء نفسه فعالجها بمراهم التقوى والقناعة،فتحقَّق له بذلك الاطمئنان الروحي و الرِّضى النَّفسي، وهما للمرء المؤمن نعم الغاية المرجوة.

(1) أبو إسحاق الإلبيري :الديوان . 81

4/ ثنائية الخوف والرجاء :

قلب الزاهد دائما معلَّق بالدَّار الآخرة، والتَّفكير فيها يحتلُّ الصَّدارة في عقله، فهو يحيا منتظرا لها ومرتقبا مصيره، أفي الجنة أم النار؟.

فالجنة والنار في عقيدة المسلم مقام الطائعين والمذنبين، والجنة ذروة النَّعيم، كما أن النار قمة الشَّقاء، وهذا المفهوم راسخ وثابت في الدين الإسلامي،[1] لذلك يحيا الزاهد وقلبه تتنازعه ثنائية الخوف والرجاء في الحياة وبعد الموت . قدر كل حي .، فالخوف هو انزعاج القلب من لحاق مكروه أو فوات مرغوب، وثمرته النهوض إلى الطاعة والهروب من المعصية[2] قال أبو القاسم الحكيم: ((من خاف من شيء هرب منه ومن خاف من الله هرب إليه))[3].

وقال ذو النون المصري : ((الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلُّوا الطريق)).[4]

والرجاء سكون القلب إلى انتظار محبوب بشرط السَّعي في أسبابه وإلا فأمنية وغرور قال ابن الوراق: ((الرجاء ترويح من الله تعالى لقلوب الخائفين، ولولا ذلك لتلفت نفوسهم وذهلت عقولهم))[5] ، فالخوف والرجاء لقلب المؤمن كجناحي الطير لا يطير إلا بهما.

والزاهد في ذكره الدَّائم للموت، يذكر ما بعده من وحشة القبر وهول الحساب وعذاب النار، ويذكر كذلك ما فرَّط في جنب الله ويستحضر وعيده للعصاة، فيملأ الخوف قلبه وتسيل عيونه بدموع الخوف والرَّهبة، ثم يقلِّب فكره فلا يجد ملاذا آمنا إلاَّ ربَّه يفرُّ إليه يلتمس في رحابه المغفرة والرحمة.

---

(1) منجد مصطفى بهجت: الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي. 469

(2) أحمد بن عجيبة: معراج التشوف إلى حقائق التصوف. 28

(3) القشيري: الرسالة القشيرية. ص126

(4) القشيري: نفسه. 127

(5)عبد الستار محمد ضيف: شعر الزهد في العصر العباسي. 145

و شعر الزهد عند أبي إسحاق الإلبيري يصوِّر هذا الجانب من حياة الزهد التي آثرها الشاعر،والتي فرَّ إليها مستجيرا بها من ترف وسطوة المادية المتوحشة التي طبعت عصره، تصويرا يحيط به، كاشفا بذلك عن فيض من المشاعر المتلاطمة كأمواج البحر الهائج، فنرى فيه المشاعر الحارة والمتنوعة من الخوف والنَّدم إلى التوبة والأمل والرجاء وذكر يوم الحشر و مافيه من أهوال،لأنه يعلم علم اليقين أنَّ الفائز المنعم الحق من نجا منه، في هذه المعنى يقول أبو إسحاق الإلبيري : [1]

وغَدًا بميدانِ السِّباقِ سَنَلْتقِي فَيُرَى الثَّقِيلُ من الخفيف الضَّامِرِ
وَاسَوأَتَا إن كنت سكَّيْتًا به أرجو اللَّحاقَ على هَجِينٍ عَاثِرِ
والويلُ كل الويلِ لي إن لم يكنْ مولايَ في تلك الشَّدائدِ ناصرِي
إني لأشكره على آلائه فهو الوفي بعهده للشَّاكِرِ
وإليه أضرَعُ في إنابةِ مخلصٍ فهو الذي أرجو لسَدِّ مفارِقِي

ويشتدُّ خوف الشاعر من الله حين يشعر بدنوِّ الأجل، وهو في غفلة لم يتزوَّد لغده الموعود، فتتملَّكه حينئذ مشاعر النَّدم والحسرة على ما فرَّط في حق ربِّه ونفسه، فهذا الخوف دلالة على ورعه وتقواه، فهو كما قال بشر الحافي: ((ملك لا يسكن إلاَّ في قلب تقيّ))[2]، وكما قال تعالى : ((**وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**)). [3]

وعن أنس بن مالك أنَّ النَّبي . صلى الله عليه وسلم . دخل على شاب وهو في الموت، فقال : ((**كَيْفَ تَجِدُك ؟ قال : وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أَرْجُو اللهَ وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي. فَقَالَ رَسُولُ الله . صلى الله عليه وسلم . :لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ، إِلاَّ أَعْطَاهُ اللهَ مَا يَرْجُو، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ.**)) [4]

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 81-82

(2) عبد الستار محمد ضيف: شعر الزهد في العصر العباسي. 143

(3) سورة آل عمران: الآية 75

(4) الترمذي:الجامع الصحيح. سنن الترمذي. ج 3. تح. محمد فؤاد عبد الباقي.دار الكتب العلمية.بيروت. لبنان.ص311.

وفي قصيدة ختم أبياتها بكلمة النار، وجاءت في خمسة وثلاثين بيتا، يخوِّف فيها أشدَّ التَّخويف من النار، في تصوير اعتمد اللَّون الأسود،ليعكس مشاعر الانزعاج والخوف من النار.يقول أبو إسحاق الإلبيري : [1]

وَيلٌ لأهْلِ النَّار في النَّار ماذا يُقاسون في النَّارِ
تَنْقَدُّ من غَيْظٍ فتغْلِي بِهم كَمِرْجَلِ يَغْلِي على النَّارِ
فيَسْتَغِيثُونَ لكي يُعْتبُوا ألاَلعًا من عثْرَةِ النَّار
وكُلُّهم مُعْتَرِف نَادمٌ لو تُقْبلُ التَّوبَةُ في النَّارِ

ويسترسل الشاعر في وصف أهل النار وأهوالها، قائلا :لا تقبل التوبة في النار، ولا ينفع ساعتها الندم، فالشَّقي من يفرُّ من النار إلى النار، وويل له ساعتها من النار، إذ لا راحة له فيها ولا أمان،[2] فهو فيها كما يقول الشاعر: [3]

فتارةً يَطْفو على جَمرِهَا وتَارَة يَرسُبُ في النَّارِ
وكُلَّما رامَ فِرَارا بهَا فرَّ من النار إلى النار
يَطُوفُ من أفْعَى إلى أرْقمٍ وسُمُّهَا أقْوى من النَّار
وكَمْ بها من أَرْقَم لاَ يَنِي يلسَعُ من يُسْحَبُ في النَّار
لا رَاحةٌ فيها ولا فَتْرَةٌ هَيْهات لا راحةَ في النَّارِ

وتتدافع صور وصف النار في القصيدة وصور ساكنيها، وما يلاقونه من عذاب وأهوال تحبس الأنفاس، وتذهل العقول و تعجز الجبال عن تحمله، فالشَّقي من كان لها حطب، والسعيد من منها هرب.

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 90
(2) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس. 355
(3) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه. 90

يقول الإلبيري : [1]

أنفاسُها مُطْبقةٍ فوقهم وهَكَذا الأنفاسُ في النَّارِ
سُبحان من يُمسِكُ أرواحهم في الدَّركِ الأسفلِ في النار
ولَوْ جِبال الأرض تَهْوِى بها ذابت كَذَوْبِ القَطْرِ في النار
طُوبَى لِمن فازَ بِدار التُّقَى ولمْ يَكُنْ مِنْ حَصَبِ النَّارِ
وَوَيْل مَنْ عُمِّرَ دهرا ولم يُرْحَمْ ولم يُعْتَقْ من النَّارِ

ويقول أيضا محذِّرا من النار، ومزهِّدا في نعيم الدنيا، فأيّ نعيم إذا أدى إلى الشَّقوة والحزن وسوء المصير يوم نلقى الله خزايا على ما فرَّطنا من أمور ديننا، فهذا الموقف يستوجب منا التَّفكير والحذر من هول ما سنلاقي من عذاب النار، يقول : [2]

ولمْ أجد لذَّةَ طَعْمٍ إذا فَكَّرْتُ في الزَّقُومِ في النَّارِ
أَيُّ التِـذَاذٍ بنَعيم إذا أدَّى إلى الشَّقْوَةِ في النَّار
أم أيُّ خَيرٍ في سُرورٍ إذَا أعْقَبَ طُولَ الحُزْنِ في النَّارِ
فَفَكِّرُوا في هولها واحْذَرُوا مَا حَذَّرَ اللهُ من النَّارِ
فإنَّها راصدةٌ أهْلَهَا تَدْعُهُمْ دَعًا إلى النَّارِ

وفي أسلوب وعظي يتقلَّد الشاعر دور النَّاصح الواعظ الملم بأمور الدِّين والدنيا، الحريص على صلاح أمَّته ونجاتها،المدرك لواجبه الدِّيني والأخلاقي فيتوجَّه إلى الناس عامة يحذّرهم من النار، عدوَّهم الأول،داعيا إيَّاهم إلى تحصين أنفسهم بذكرهم الله كثيرا، فبذكر الله تطمئن القلوب مصداقا لقوله تعالى:((**إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ**

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 91
(2) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه. 92

الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ)) [1] وقوله أيضا:((**اِتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدّتْ لِلْكَافِرِينَ))**. [2]

يقول أبو إسحاق الإلبيري : [3]

يا أيُّها النَّاسُ خُذوا حِذركم وحَصِّنوا الجنة للنـَّارِ
فإنَّها من شرِّ أعدائكُـمْ ما في العِدا أعْدَى من النَّارِ
وأكْثِروا من ذِكْر مَولاكُـم فَذِكْرُه ُ ينْجِي من النـَّارِ
وهو بها في خطر بَيِّـنٍ لو كَاسَ ما خَاطر بالنـَّارِ

إلى أن يقول : [4]

فَطَابَت الأنْفسِ مِنْهم بِأَنْ أمَّنَهُمْ من فَزَعِ النـَّارِ
والله لو أَعْقِلُ لم تَكْتَحِلْ بالنَّومِ عَينِي خِيفَةَ النَّارِ ولا
رَقَا دَمْعِي ولا عِلْمَ لي أَنِّي في أمْنٍ من النـَّارِ

أمام هذه الحقيقة المفزعة للنَّار، لا يجد الشاعر إلاَّ ربَّه يلجأ إليه في خوف ورهبانية وتضرع، سائلا إيَّاه العفو والعتق من النار، وهي غاية ما يتمنى ويرجو، بعد ما أدرك حقيقة الدنيا وغدرها، يقول : [5]

فَنَسْأَلُ الله بأَسْمَائِـهِ ووجْهِـهِ الفوزَ من النَّارِ
فليس مِثْلِـي طالبا حبَّةً إلاَّ المُعافاةَ من النَّارِ
و طالما اسْتَرْحَمْتُهُ ضارعا يا رَبِّ حَرِّمْني على النَّارِ
فأنت مَولايَ ولا ربَّ لي غيرُك،أعْتِقْنِي مِن النَّارِ

---

(1) سورة يس: الآية. 11
(2) سورة البقرة:الآية. 24
(3) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 91
(4) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه. 92
(5) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه. 92-93

ولم تزلْ تَسْمَعُنِي قائِـلا : أعُـوذُ بِاللهِ من النارِ

وفي قصيدة أخرى عدَّها شوقي ضيف من روائع شعره [1]، تقع في ثلاثة وخمسين بيتا، ختمها جميعا بلفظ الجلالة، ينبِّه فيها الغافل عن ذكر ربِّه، ويدعوه فيها إلى الفرار من عقاب الله إلى مغفرته وثوابه، وأن يلجأ إليه ويسأله من فضله وأن يداوم قيام الليل متهجِّدا ،وتلاوة القرآن الكريم ولو آية يكسى بها نورا من الله، ويمرِّغ وجهه في التّراب ساجدا متذلِّلا لربِّه، ليجزى خير الجزاء وهو العتق من النار. يقول : [2]

يا أيُّها المغتَـرُ باللهِ فَرَّ من اللهِ إلَـى اللهِ
ولُذْ به واسألْهُ من فَضْلـهِ فقد نَجَا مَنْ لاذَ باللهِ
وقُمْ له و الليل في جُنحِـهِ فحبَّذا من قـامَ للهِ
واتل من الوحي ولو آيـة تكسى بها نور من الله
وعَفِّرْ الوجْهَ له سَاجِدا فَعَزَّ وجْـه ذلَّ للهِ
فما نَعِيـمٌ كَمُناجاتِـهِ لِقَـانِت يُخْلِصُ لله
وَابْعُدْ عن الذَّنبِ ولا تَأْتِـهِ فَبُعْدُه قُرْبٌ مِنَ اللهِ

وإذا كان الشاعر قد لاذ بربِّه من ذنوبه التي أثقلته، فهو دائم الاستغفار وندمه شديد لعصيانه ربِّه، الذي تتوالى عليه نعمه، فكيف يقابل هذه النِّعم التي لا تعدُّ ولا تحصى بالجحود وسوء الفعل، لذلك فأبو إسحاق الإلبيري يرى في ذنوبه عارا قبيحا وخسارة شنيعة في حق نفسه،فيتملَّكه الحزن والخوف والخجل من ربِّه، فيستحث نفسه على الإكثار من البكاء لعل حزنه و دمعه يغسلان تلك الذُّنوب.ويشفعان له يوم السؤال. [3]

(1) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس. 356
(2) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 65
(3) عبد الستار محمد ضيف: شعر الزهد في العصر العباسي. 157

يقول : [1]

أيُّ خطيئاتي أبكـي دَمَا وهي كثيرٌ كنجوم السَّمَا
قد طمست عقلي فما أهْتَدِي و أَوْرَثَتْ عَيْنَ فؤادي العَمَى
إنَّا إلى الله لقد حَلَّ بِي خَطْبٌ غدا صُبْحي به مظْلِمَا

إنَّ هذه الأحاسيس المضطربة ندما وحسرة وحزنا وخوفا، ليست شاهدا على كثرة الذُّنوب، بقدر ماهي شاهدة على قوَّة الإيمان، وما عمر القلب من التقوى، وما ملأ النفس من الخشوع والهيبة لعظمة الله وجلاله، فأبو إسحاق الإلبيري كان من الفقهاء الزهاد، قضى حياته في خدمة الدين واعظا ومدرسا.

وفي تعبير آخر يحمل نفس المعاني، تندفع أحاسيس الشاعر الحزينة كحمم بركانية، تشكو أسر الذنوب وكثرتها لمولاها، عساه يحرّرها منها بعفوه ورحمته، يقول : [2]

أنا إنَّما أبكي الذُّنُوب و أَسْرَهَا ومُنَايَ في الشَّكْوَى مَنَالُ فَكَاكِي
وَ إذا بكَيْت سَأَلْتُ رَبِّي رَحْمَةً وَتَجَاوُزًا، فبُكَايَ غَيْر بُكاكِ

إنَّ هذه النَّبرة الحزينة في شعر أبي إسحاق الإلبيري، تعطي الانطباع بأنَّ الشاعر يرى الله معه حيث كان ويراقبه، ولذا فهولا يفكِّر إلاَّ فيه، ولا ينطق ولا يعمل إلاَّ بما يرضيه، وتلك هي مراقبة الحق على دوام الأوقات التي اعتبرها ابن عطاء[3] أفضل الطاعات، وعلامتها كما حدَّدها ذو النّون المصري[4] في قوله: ((إيثار ما آثر الله تعالى، وتعظيم ما عظم الله تعالى، وتصغير ما صغر الله تعالى)). [5]

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 71

(2) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه. 33

(3) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآدمي، من كبار مشايخ الصوفية وعلمائهم – ت 309هـ – انظر عبد الستار محمد ضيف : شعر الزهد في العصر العباسي.ص 155.

(4) أبو الفيض ذو النون المصري، اسمه ثوبان، وقيل الفيض بن إبراهيم، أصله من النوبة، ثم نزل بأخميم من ديار مصر فأقام بها، هو من كبار الصوفية عرف بعلمه وورعه– ت 245 هـ – انظر عبد الستار محمد ضيف: شعر الزهد في العصر العباسي.ص155.

(5) عبد الستار محمد ضيف: نفسه. 155

وهي من درجات الإيمان التي عدَّها الرسول الكريم . صلى الله عليه وسلم . في قوله: ((**إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ**)). [1]

من هنا كان فزع الشاعر كبيرا من الذنوب،لاسيما حينما يقرنها بنعم الله تعالى عليه، فضلا على أنَّها عصيان لله الذي ملأ حبه قلبه، وحائل دون تحقيق الغاية التي جنَّد نفسه لها وباع في سبيلها الدنيا ومتاعها، تلك الغاية هي الظفر في الآخرة بالنَّعيم والرِّضوان، مصداقا لقوله تعالى : ((**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**)). [2]

روي عن عيسى بن طلحة عن أبي هريرة أنه قال : (لن يلج النار من بكى من خشية الله عز وجل، حتى يعود اللَّبن في الضرع). [3]

كما صوَّر شعر الزهد مشاعر الخوف عند الشعراء الزهاد كأبي إسحاق الإلبيري، عند تذكره للموت وما بعده، فإنَّه كذلك صوَّر مشاعر الرجاء، حين يتَّجه فكر الشاعر إلى جانب الكرم الإلهي، حيث صفات الرّحمة والعفو والفضل والجود واللُّطف، فيشرق قلبه بالرجاء والأمل.

ذلك أنَّ حال المؤمن يصلح بالأمرين معا، ولا يستقيم خوف بدون رجاء،قال أبو بكر الواسطي [4]((الخوف له ظلم يتحيَّر صاحبه يطلب أبدا المخرج منه، فإذا جاء الرجاء بضيائه خرج إلى مواضع الرَّاحة، فغلب عليه التَّمني، ولا ينفع حسن النَّهار إلاَّ بظلمة الليل، فيهما صلاح الكون، فكذلك القلب مرَّة في ظلم الخوف أسير، فإذا طرق طوارق الرجاء فهو أمير))، [5] لذلك يلحظ في شعر أبي إسحاق الإلبيري لما يطمئنه إلى عفو

---

(1) البخاري: الصحيح. ج3.باب التوبة .ضبط .محمد عبد القادر أحمد عطا.دار التقوى .القاهرة .مصر .ص 285

(2) سورة التحريم: الآية 6

(3) احمد بن حنبل: الزهد.تخ. محمد بن عبادي بن عبد الحليم. مكتبة الصفا.القاهرة.مصر. ط1. 2003.ص227

(4) محمد بن موسى أبو بكر الواسطي من كبار الصوفية بمرو.أنظر عبد الستار محمد ضيف : شعر الزهد في العصر العباسي.ص 144

(5) عبد الستار محمد ضيف: نفسه.ص 144

ربِّه ومغفرته يقول: [1]

إنَّا إلى اللهِ لقد حاقَ بِي ما يُورِثُ الخِزْيَ غَدًا والحَزَنْ
والحمدُ لله ففي كَفِّه منحٌ لمن شاءَ وفيها المِنَنْ
وهو الَّذي أرْجُو فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ رَجَائِي فِيهِ طُوْلاً فمنْ ؟

المتأمِّل في الحياة الروحية التي كان يحياها أبو إسحاق الإلبيري من خلال أشعاره في الزهد والخوف والرجاء والحزن والتَّفكر، وهي عنده دعائم هذه الحياة الروحية، يلاحظ أن زاهد البيرة، لم يزهد لأنَّ الزهد عنده هو المثل الأعلى الذي كان يطمح إلى تحقيقه لذاته، وإنَّما اتَّخذ من الزهد وسيلة تعينه على الخلاص من شرِّ عذاب النار والحصول على خير نعيم الجنة، فهو زاهد إذا لأنَّه كان يرى أن كل نعيم دون الجنة حقير، وكل بلاء دون عذاب النار هيِّن ويسير، لذلك كانت حياته عبارة عن فيض من مشاعر الخوف من سوء الجزاء، ورجاء العفو والمغفرة، قال حسن البصري : ((ابن آدم ! نفسك نفسك، إنَّما هي نفس واحدة،إن نجت نجوت، وإن هَلَكَت هَلَكْت، ولم ينفعك من نجا، وكل نعيم دون الجنة حقير، وكل بلاء دون النار يسير.)) ،[2]وقال أبوعلي الدقاق : ((دخلت على الإمام أبي بكر بن فورك عائدا، فلما رآني دمعت عيناه، فقلت له : إن شاء الله تعالى يعافيك ويشفيك، قال : لن تراني أخاف من الموت، إنَّما أخاف مما وراء الموت)). [3]

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 104
(2) محمد مصطفى حلمي:الحياة الروحية في الإسلام. 75
(3) القشيري: الرسالة القشيرية. 126.

5/ ذكر الموت و اليوم الآخر:

إنَّ الحياة في هذه الأرض موقوتة محدودة بأجل، والموت نهاية حتميَّة لكلِّ حي، يموت الصَّالحون ويموت الطَّالحون، يموت المجاهدون ويموت القاعدون، يموت الشّجعان الذين يأبون الضَّيم، ويموت الجبناء الحريصون على الحياة بأيِّ ثمن، [1] فالموت هادم اللَّذات ضريبة لازمة على رقاب بني آدم، وذكره يوجب التَّجافي عن دار الغرور، ويقتضي الاستعداد للآخرة، والغفلة عنه تدعو إلى الانهماك في الشَّهوات. ففكرة الموت ليست بجديدة على الإنسان، فهو كلّ يوم يقوم بتشييع أخ له أو قريب، وكما شيَّع آباءه وأجداده من قبل، فإنه سوف يلج هذا الباب عندما يحين حينه.[2]

فالموت لم يغب عن فكر الإنسان زاهدا كان أم فاجرا، انطلاقا من فكرة الدِّين عن الموت بأنَّه محتوم على كلِّ إنسان،لا يعصم منه أحد، وأنَّ بعده حياة تقوم على الجزاء إن خيرا فخير وإن شرًّا فشر .[3]

من هنا فالحديث عن الموت والصّور العديدة التي يتحقق بها، وكل ما يتَّصل به من معان ذات مغزى غيبي ماورائي لها صداها الواسع المثير في نفوس الناس ، وكان لها أثر لا ينكر في إثراء الإبداع الفني وتجديده .[4]

لذلك كانت قضية الموت من الموضوعات الرئيسية في شعر الزهد العربي عامة والأندلسي خاصة الهادف إلى وعظ الناس، وإلى مقاومة الانحراف الاجتماعي ــــــــ

(1) محمود المصري : رحلة إلى الدار الآخرة. 103

(2) محمد الصادق عفيفي : ثورة الخمريات وثورة الزهديات. 125-126.

(3) عبد الحكيم حسان : التصوف في الشعر العربي . 209

(4) احمد فلاق عروات : فكرة الموت في التراث العربي .الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب وتطويرها. الجزائر .2005 .ص 341

والأخلاقي التي تسبَّبت فيه الحضارة المادية التي فتحت لها الأندلس أبوابها، فانشغلت طائفة كبيرة من الناس بالتَّفكير في الدنيا ومصائرهم فيها لا بعدها،فحب الحياة دافع

لكراهية الموت، ووجود الموت قوة متسلِّطة حقيقية دافع للخوف من الحياة، فهي عيش مُهدَّد بالزَّوال[1]، هذا السبب دفع الشعراء . شعراء الزهد . إلى التَّذكير بالنَّقيض وهو الموت، وسيلة للعظة والتَّنبيه، بأنَّ ما ينال من عرض الدنيا مهما كان عظيما ووافرا فإنَّه لا يجديهم مثقال ذرَّة من نفع ولا ينجيهم من عذاب يوم عظيم[2] لقوله تعالى : ((**إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)** ،[3] وقال أبوبكر الصديق لخالد بن الوليد :(أَحْرِصْ عَلَى الْمَوْتِ تُوهَبُ لَكَ الْحَيَاةُ) [4] .

إنَّ الشعراء في حديثهم عن الموت،لا يتحدَّثون عنه حديثا فلسفيا ولا حديثا عاطفيا، ولكنَّهم يتحدَّثون عنه حديثا دينيا يخاطب الروح، إنَّهم يريدون الارتفاع بالإنسان عن سفوح الجسد إلى قمم الروح،عن طريق طرح فكرة الموت والتَّزود له بالعمل الصالح قبل أن يضمَّهم القبر، ثم يقفون أمام الله يوم الحساب فيجازى كل امرئ بما كسبت يداه.[5]

من هنا كان اهتمام شعراء الزهد . كأبي إسحاق الإلبيري . بتصوير أثر الموت في النفوس التي تذكره فينغِّص عليها مسرَّة الدنيا ، ذلك أنَّها لا تذكر الموت وحده، وإنَّما تذكر معه وحشة القبر وعظيم الحساب وهوله، وهو ما يدفع بها إلى الزهد في الدنيا متَّجهة إلى الآخرة،[6] فعلى المرء أن يتفكَّر في الموت وسكراته وصعوبة كأسه

---

(1) كاميليا عبد الفتاح : الشعر العربي القديم . دار المطبوعات الجامعية .الإسكندرية .مصر . 2008.ص207

(2) عبد القادر هني : مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي . 198

(3) سورة نوح : الآية 1

(4) الجاحظ : البيان والتبيين . ج 3 . 170

(5) علي محمد سلامة : الأدب العربي في الأندلس .الدار العربية للموسوعات .ط 1 1989 .ص 226

(6) عبد الستار محمد ضيف : شعر الزهد في العصر العباسي . 105

ومرارته، فالموت وعد صادق وحاكم عادل، فهو مبكي العيون ومفرِّق الجماعات وهادم اللَّذات وقاطع الأمنيات، فلكل جامع للمال، ومجتهد في البنيان، ليس له من ماله إلاَّ الأكفان، وملكه للخراب والذَّهاب وجسمه للتّراب والمآب. [1]

قال أبو علي الدقاق : ((من أكثر من ذكر الموت أُكْرم بثلاثة أشياء : تعجيل التوبة وقناعة القلب ونشاط العبادة، ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء، تسويف التوبة وترك الرِّضى بالكفاف والتَّكاسل في العبادة)). [2]

هذه الحقيقة يصوِّرها الشاعر أبو إسحاق الإلبيري،الذي يعدُّ واحدا من شعراء الزهد الذين نظروا إلى الموت بعين الخائف الحذر من غدره ، بقوله : [3]

كَمْ آمنَ لِلمَنونِ لاهٍ عن الرَّدى باتَ مُطْمَئِنَّا
صَبَّحهُ وافِدُ المَنايـا فعاين الموت حين عَنَّا
حتى إذا ما قَضَى بَكاهُ حَميمُهُ مُعْوِلاً مُرِنَّا
وارَوْهُ في لَحْدِهِ وسَنُّوا عَلَيْهِ قَيْدَ التُّراب سَنَّا
وانتَهَبُوا ماله وشنُّوا الغَارات فيما حوَاه شَنَّا
لِمِثْلِ هَذا فَكُنْ مُعِدَّا مَا قَدْ أَعَدَّ الهُدَاةُ مِنَّا
وارْتقِبْ المَوْتَ فَهُو حَتْمٌ يَخْترِمُ الطِّفْلَ و المُسِنَّا

وفي وقفة اعتبارية على الممالك البائدة، يتعجَّب الشاعر من أمر الناس كيف لايعدُّون شيئا لحياتهم الآخرة، ويصرفون كلّ همهم في الإعداد لدار هم عنها راحلون، فيشيِّدون القصور ويعدُّون لها الفرش ويحشدون فيها أنواع الزِّينة، وهم يعلمون علم اليقين أنَّهم مفارقوا هذا النَّعيم بلا رجوع وتاركوا حياتهم هذه القصيرة البائدة إلى حياة طويلة خالدة، يلقى فيها الإنسان ماقدَّمت يداه من عمل، فهي أولى بالإعداد من حياة

---

(1) علي محمد سلامة:.الأدب العربي في الأندلس . 226

(2)محمود المصري : رحلة إلى الدار الآخرة . 109

(3) أبو إسحاق الإلبيري :. الديوان . 120

فانية ، يقول : [1]

أين المُلوكَ وأين ماجَمَعوا وما ذَخَروهُ من ذهب المَتَاعِ الذَّاهِبِ
ومن السَّوابِغِ والصَّوارِمِ والقَنَا ومن الصَّواهِلُ بدِّنٍ وشَوَازِبِ

كانَتْ سَوابقُـهَا تحْمَل منـهم أقْمارَ أَنْدِيةٍ وأُسْدَ كتـائِبِ
كانُـوا لُيوث خَفِيَّةٍ لكنَّهم سَكَنُوا غِيَاضَ أسِنَّةٍ وقواضِبِ
قَصَفَتْهُمُ رِيحُ الرَّدَى ورمَتْهُمُ كَفُّ المَنُونِ بِكُلِّ سَهْمٍ صائِبِ

لا غرو إذن إن وجدنا أبا إسحاق الإلبيري يتَّخذ من الموت وفناء الحياة منطلقا من أهم منطلقاته الزهدية، فأيُّ لذَّة مهما كان قدرها تصبح مشوَّهة تافهة حين يكون مصيرها الفناء والزَّوال، إنَّ هذا المصير أحال الدنيا سرابا خادعا، فهي دار نفاق في المشاعر والسَّرائر وفراق للأهل والصَّحب و القرائر .

يقول أبو إسحاق الإلبيري في هذا المعنى، يبكي فراق الأحبَّة الذين غيَّبهم الموت وأفناهم ،ومعاتبا نفسه والذين يحضرون الجنائزعلى عدم اعتبارهم بالدَّفين .[2]

يقول : [3]

تَمُرُّ لِداتِي واحدً ا بعد واحدٍ وأعلم أنِّي بعدهُمْ غير خَالِدِ
وأحمل موتاهم وأشْهَد دفنهم كأنِّي بعيدٌ منهم غيْرَ شاهِدِ
فها أنا في علمي بهم وجهالتي كَمُسْتَيْقِظٍ يَرْنُو بِمُقْلَةِ رَاقِدٍ !

وأبو إسحاق لمَّا يخشى الموت، يخشى ما بعده من مشاهد القيامة وأهوالها ثمَّ القرار في أحد الدَّارين، وكل هذا يدل على أنَّه زاهد و ناسك، فهو يعبد الله تعالى خوفا من عقابه ورجاء ثوابه، لهذا فهو دائم العتاب لنفسه ومذكِّرا إيَّاها بالموت، إن أحسَّ منها

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان . 115

(2) هنري بيرس : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف . تر.الطاهر أحمد مكي .دار المعارف .القاهرة .مصر. ط 1 1988 . ص 408.

(3) أبو إسحاق الالبيري : نفسه 105

غفلة أو انحراف إلى باطل يخشاه . يقول : [1]

أَفي السِّتِّينِ أهْجَعُ في مِقْيَلِي وحادي الموت يُوقِظُ لِلرَّوَاحِ

وقد نَشَرَ الزَّمانُ لِواء شَيْبِي لِيَطْوِيَنِي ويسلبني وشاحي
وقد سَلَّ الحمامُ عليَّ نَصْلاً سَيَقْتُلُنِي وإن شاكَتْ سِلاحِي
ويحملني إلى الأجْداثِ صَحْبِي إلى ضِيقٍ هناكَ أو انْفِسَاحِ
فَأُجْزَى الْخيْرَ إن قدَّمْتُ خيْرًا وشَرًّا إنْ جُزِيتُ على اجْتِراحِي

فالشاعر يُذَكِّرُ المرء من خلال نفسه، بأن لا يغفل عن ذكر الموت والتَّفكر فيه قبل فوات الأوان، وأن لا يطيل التَّسويف في إصلاح عطب نفسه وسوء عمله، فقد تنزل به المنيَّة غدوة أوعشية، لحظتها لا حصاد له إلاَّ النَّدامة على ما سلف من سوء أمره، مصداقا لقوله الله تعالى في سورة "المنافقون" ((**وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِي أَحَدُكُم الْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّي لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ**)) [2] و لحظتها يقول العبد عند حضور ملك الموت : يا ملك الموت أخِّرني يوما أعمل فيه صالحا لنفسي، فيقول ملك الموت : فنيت الأيَّام فلا يوم، فيقول : أخِّرني ساعة، فيقول : فنيت السَّاعات فلا ساعة، فيقول : أتركني أتكلم، فيقول : فرغ كلامك فلا كلام، فتبلغ الروح الحلقوم فيؤخذ بكظمه فتقطع الأوقات والأعمال، ويبقى عدد الأنفاس ليشهد فيها المعاينة عند كشف الغطاء، فيحتدَّ بصره، فإذا كان آخر نفس زهقت نفسه فيدركه ما سبقت له من شقاوة أو سعادة ،[3]ورُوي عن سلمان الفارسي

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري :الديوان . 43-44

(2) سورة المنافقون : الآية 10

(3) أبو الفرج ابن الجوزي: بستان الواعظين ورياض السامعين .تح.محمد الاسكندراني.دار الكتاب العربي.بيروت.لبنان.ودار الأصالة.الجزائر .1425هـ .2005م.ص 180

(رضي الله عنه) أنَّهُ قال :((ما من يوم إلاَّ وملك الموت ينادي أهل الدنيا عجِّلوا عجِّلوا ، لأنَّ أهل القبور محبوسون من أجلكم، اتركوا ما جمعتم و خرِّبوا ما بنيتم، الويل لكم إن أدرككم الموت على هذه الحالة، بنيتم الدُّور ونسيتم القبور،اذكروا القبر

ووحشته، والموت وسكرته، والسِّراط ودقَّته ، الموت سكرة في سكرة، وحيرة في حيرة وجذبة يالها من جذبة، فالمسكين يكابد غصص المنون، داهش العقل كالمحزون، فالله الله عباد الله أفيقوا من سكراتكم، وانتبهوا من نوماتكم واستيقظوا من غفلاتكم، قبل نول المنية، وحلول الرَّزية ووقوع البليَّة، لا مال نافع، ولا حميم شافع ...)). [1]

والشاعر أبو إسحاق الإلبيري لما يتذكَّر الموت تنتابه نوبة من الرَّهبة والوجل أمام هول ما سيلاقيه من مصير، فترتسم أمامه ظلمة القبر ووحشته وشقاوته في وحدته، فلا مال يغنيه ولا ولد يواسيه، فالموت للأبدان موئدة،والقبر موعظة للألباب والأفئدة، يقول : [2]

ما أَوْعَظَ القَبْرَ لو قَبِلْنَا مَوْعِظَةً النَّاطِقِ الصَّمُوتْ
يُوحِي إلى مُمْتَطِي الحَشَايَا مالَكَ من مَضْجَعِي عَمِيتْ
نَسِيتَ يَوْمِي وطُول نَوْمِي وسَوْفَ تُنْسَى كما نَسِيتْ

الشاعر لما يُذكِّر بالموت،غرضه إصلاحي تربوي، يسعى إلى محاربة شره الناس وكلفهم بالدنيا ومتاعها، وانشغالهم عن عدَّة الآخرة، فهي ليست بدار إقامة واستقرار، وإنَّما محل فرقة واغترار، فعلى الإنسان أن يحذرها فلا يأخذ منها إلاَّ القليل ويصرف أكبر همِّه في التَّزود للآخرة دار القرار، قبل أن يدركه سلطان الموت بلا انتظار، لذلك نلمس في شعره غلبة أسلوب الوعظ الذي يظهر في عبارات النصح والتوجيه والعتاب التي تضمنتها أغلب قصائده الزهدية ، و مثال

(1) أبو الفرج ابن الجوزي : بستان الواعظين ورياض السامعين . 176
(2) أبو إسحاق الإلبيري :الديوان . 62-63

على ذلك قوله: [1]

جَمعتُ لك النَّصَائِحَ فَامْتَثِلْهَا حَياتَكَ، فهيَ أَفْضَلُ ما امْتَثَلْتَا
وَطَوَّلْتَ العِتابَ وزِدْتُ فيه لأنَّكَ فِي البَطالَـةِ قد أَطَلْتَا

فَلا تأْخذْ بِتَقْصِيري وسَهْوِي وَخُذْ بِوَصِيَّتِي لك إن رَشَدْتَا

يبدو أنَّ الشاعر أبا إسحاق الإلبيري كان شديد الحزن كثير الغم والألم في حياته، يكاد يعتم نفسه دوما شيء من الكآبة واليأس،لما يشاهد عيانا في كل الأوقات تقريبا من اختطاف الموت للأحياء دون تمييز بين كبير وصغير، وسيد ومسود، لكي ينتقلوا بعد ذلك إلى عالم الحساب والعقاب، وهي حقيقة تبرز مأساة الحياة وهشاشتها في نظر الشاعر بكل صدق، فلا طيِّب ولا لذيذ إذا كان هذا هو مصير الإنسان في نهاية المطاف، وربَّما تمنى لو يحدث الدَّهر انقلابا، فيرجع به إلى العدم كأنه لم يخلق، خوفا من البعث وتجديد الخلق بعد الفناء، ثم العرض على صاحب القدرة، في مشهد رهيب يتجاوز حدود الوصف البشري.

(1) أبو إسحاق الإلبيري .الديوان . 30

6 / الدعوة إلى العلم وتوظيف العقل:

الصِّلة بين العلم والزهد قويَّة، لأنَّ العلم ولا سيما الدِّيني منه كثيرا ما يدفع صاحبه إلى الزهد، فهو يبصِّر الإنسان بأمور الدنيا وحقائق الحياة وآيات الله فيها، فيزداد تعظيما لقدرة ربِّه وعرفانا بنعمه،وتزداد نفسه تقوى وقلبه إيمانا وخشية، وقد بيَّن القرآن الكريم ما يختص به العلماء من خشية لله في قوله تعالى: ((**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**))،[1] فإذا اجتمع للمسلم العلم والزهد، فقد حاز الخير كلَّه،لقوله تعالى كذلك : ((**يَرْفَعُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**)). [2]وقوله أيضا: ((**قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**)). [3]

ذُكِر عن محمد بن كعب أنه قال: ((إذا أراد الله بعبد خيرا جعل فيه ثلاث خصال: فَقَّهه في الدين وزهَّده في الدنيا، وبصَّره بعيوب نفسه)) [4].

وقال أحد الحكماء:((أصل العلم الرَّغبة وثمرته السَّعادة، وأصل الزهد الرَّهبة وثمرته العبادة، فإذا اقترن الزهد والعلم فقد تمَّت السَّعادة وعمَّت الفضيلة، وإن افترقا فيا ويح مفترقين، فما أضرّ افتراقهما، وأقبح انفرادهما)). [5]

وأفضل ما اكتسبته النُّفوس وحصَّلته القلوب ونال به العبد الرِّفعة في الدنيا والآخرة هو العلم والإيمان الذي يورث الزهد، ولهذا قرن الله سبحانه وتعالى بينهما في قوله: ((**وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ**)).[6]

---

(1) سورة فاطر: الآية 28

(2) سورة المجادلة: الآية 11

(3) سورة الرعد:الآية 43

(4) عبد الستار محمد ضيف: شعر الزهد في العصر العباسي. 233

(5) عبد الستار محمد ضيف: نفسه. 234

(6) سورة الروم: الآية 56.

و للشاعر أبو إسحاق الالبيري وجهة نظر في العلم، فهو يمثِّل عنده الجانب العقلي في قضية الوجود الإنساني، لذلك لا يتحدَّث عنه حديث الفيلسوف المبهم، فالعلم من وجهة نظره هو التَّأمل في حقيقة هذا الوجود، والذي يستند إلى مرجعية دينية تهدف إلى غرس مفاهيم العلم في نفوس المسلمين، وصولا إلى الرَّاحة النَّفسية التي ينشدها الإنسان المسلم الزاهد في ملذَّات الحياة الدنيا، الذي يرجو نوال حسن العاقبة في الحياة الآخرة.

من ثمَّ نجد العلم عند الشاعر هو العلم بتعاليم الإسلام و التَّفقه في أموره، بما ينفع الإنسان، ويوضِّح شعره هذه الرؤية،وكيف أنَّ هذا العلم هبة من الله سبحانه وتعالى، لما يوفِّره للمرء من زاد عقلي وروحي يعلي من شأنه[1] ويأتيه بالخير الكثير مصداقا لقوله تعالى: ((**يِ ُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّ ْكَرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبَابِ**)). [2]

هذه المعاني تتردَّد في بعض القصائد من ديوان أبي إسحاق الإلبيري، نحو ذلك ما جاء في قصيدته الأولى من ديوانه، وهو يخاطب من يكنى (أبا بكر)، ناصحا إيَّاه وموضحا آراءه ومواقفه من العلم وفضله على المرء.

ففي هذه القصيدة تتَّضح رؤيته للعلم النَّافع الذي يجعل من ينتفع به إماما يأمر فيطاع، ويكسبه المكانة الرفيعة في دنياه وآخرته. يقول: [3]

أبا بَكْرٍ دَعَوْتُكَ لوْ أَجَبْتَا إلَى ما فِيهِ حَظُّكَ إنْ عَقَلْتَا
وتَجْلو ما بِعينك من عَشَاهَا مُطاعًا إن نَهَيْتَ و إنْ أَمَرْتَا
وتَحْمِلُ منه في ناديك تاجًا ويَكْسوكَ الْجَمالُ إذا اغْتَرَبْتَا
ينالُك نَفْعُهُ ما دمْتَ حيًّا ويَبْقَى ذُخْرُهُ لك إن ذَهَبْتَا

(1) محمد عويس: من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي. 55
(2) سورة البقرة: الآية 269
(3) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 20-21

هو الْعَضْبُ المُهَنَّدُ ليس يَنْبُو تُصِيبُ به مَقاتِلَ من ضَرَبْتَا

وكَنْزا لاتخاف عليه لِصًا خفيف الحَمْلِ يُوجد حيث كُنْتَا
يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الإِنْفَاقِ مِنْه ويَنْقص أنْ بِه كفًّا شَدَدْتَا

كما يدعو الشاعر المرء إلى استثمار هذا العلم، بتوظيفه و العمل به في أوجه الخير، لأنَّه سيسأل عنه يوم القيامة مصداقا لقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) **((لاَ تَزُولُ قَدَمَا ابْنَ آدَم يَوْمَ الْقِيَّامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أربع: عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلاَهُ، وَمَالَهُ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ))**. [1]

فالعلم هبة من الله تعالى وأمانة يحاسب عليها من أوتيها، وهو مطالب بالعمل بها، ولا بد أن يكون العمل بها في موضعها الصحيح [2].يقول. [3]

فَقُوت الرُّوحِ أرْواحُ الْمَعانِي وليس بِأَنْ طَعِمْتَ وأنْ شَرِبْتَا
فَواظِبْهُ وَخُذْ بالْجِدِّ فيه فإن أعْطَاكَهُ اللهُ أخَذْتَا
وإنْ أُوتِيتَ فيه طَوِيل باعٍ وقال الناس إنَّكَ قد سَبَقْتَا
فلاَ تَأْمَنْ سؤال اللهِ عنْهُ بِتوبيخٍ: عَلِمْتَ فَهَلْ عَمَلْتَا ؟

ويتجلَّى مفهوم العلم من خلال شعره، على أنَّه العلم بالعقيدة الإسلامية نظرا وعملا، الذي يؤسِّس لتقوى الله المقترنة بثوب الإحسان، بكونها الغاية الروحية التي تشكِّل أساس العلاقة بين الإنسان المؤمن العالم بأمر دينه وبين خالقه عز وجل، الذي يراقبه

---

(1) الترمذي: الجامع الصحيح سنن الترمذي.باب العلم. ج5. ص28.
(2) محمد عويس: من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي. 52
(3) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 21

في كل حين، يقول الإلبيري: [1]

فَرأْسُ العِلم تقوى الله حَقًا وليس بان يقال: قدَ رأَسْتَا
وضافِي ثَوْبكَ الإِحْسانُ لاَ أن تُرى ثوب الإِساءة قد لَبِسْتَا
إذا لم يُفِدْكَ العِلْمُ خيرًا فَخَيْرٌ منه أن قد جَهِلْتَا
وإنْ أَلْقاكَ فَهْمكَ فِي مَهَاوٍ فَلَيْتَكَ ثم لَيْتَك ما فَهِمْتَا

وبالعقل يكتسب العلم، ومن ثم ينصح الشاعر المرء أن يمعن بفكره ليستنبط العبرمن صروف الدَّهر وتقلباته، ويجدَّ في الأخذ بها، في حوار ذاتي مع نفسه التي يراها الأولى بهذا النصح، لأنَّها مكمن دائه وسبب بؤسه ، يقول الإلبيري: (2)

وَقُلْ لي يا نَصِيحُ لأَنْتَ أَوْلَى بِنصْحِكَ لَوْ بِعَقْلِكَ قد نَظَرْتَا
تُقَطِّعُنِي على التَّفْرِيطِ لَوْمًا وَبِالتَّفْرِيطِ دَهْرَكَ قد قَطَعْتَا

كما يدعو إلى توظيف العقل في التَّأمل في خلق الله للإنسان وللكون، وكيف يتغيَّر حال الإنسان من حال إلى أخرى، كما تتغير أحوال الكون، ويضرب مثلا على تغير مراحل عمر الإنسان من شباب وكهولة وشيخوخة وشحوب واصفرار، كحال الشمس أثناء الغروب بعد أن كانت مشرقة في الصباح، وما هذه العبر إلاَّ ليتأمَّل المرء في حقيقة وجوده ويعتبر (3). يقول: (4)

أَرَى الأَعْصارَ تَعْصِرُ ماء عُودِي وَقِدْمًا كُنْتُ رَيَّانَ الْقَضِيبِ
أَدَالَ الشَّيْبُ يَا صَاحِ شَبابـي فَعُوِّضْتُ الْبَغِيضَ من الْحَبِيبِ
ويُدِّلْتُ التَّثـاقُلَ من نشاطـي ومن حُسْنِ النَّضارَةِ بِالشُّحوبِ
كَذاكَ الشمس يعْلوها اصْفِـرَارٌ إذا جَنَحَتْ ومالتْ لِلْغُروبِ

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 22
(2) أبو إسحاق الإلبيري:نفسه. 25
(3) محمد عويس: من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي. 57
(4) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه. 31

وتتكرّر الدَّعوة نفسها في شعره، من خلال دعوته للمرء أن يتدبَّر في أمر خلقه وتركيبه، ويتأمَّل الكون من حوله ، وكيف أحكم الله خلقه وأبدع في تكوينه، في أجمل صورة ركَّبه ، إنَّ مثل هذا التَّأمل والتّدبر العقلي إنَّما هو عين الحكمة والعلم النافع، فيقول: [1]

لو شُغِلَ المَـرْءُ بِتَرْكيبِـهِ كان به في شُغْلٍ شاغِلِ
وعايَنَ الحِكمَةَ مَجْمُـوعةً مَاثِلَةً في هَيْكَلٍ مَاثِـلِ
وانظُرْ إلى الطَّاعَةِ مشْهورَةً في الفَلَكِ الصَّاعِدِ والنَّازِلِ
والْحَظْ بِعَيْنَيْكَ أديمَ السَّمَا من طالعٍ فيها ومن آفِـلِ
كلٌّ على مَسْلَكِـهِ لا يُرَى عن ذلك الْمَسْلَكِ بِالمَائِلِ
وَدَبَّرَتْ أَنْفُسَـها لم تَغِبْ واطَّلَـعَ النَّاقِصُ كَالكَامِلِ

والإنسان المؤمن حق الإيمان والمدقِّق بعقله في خلق الله للإنسان وللكون، سيجد نفسه وكأنَّه في بستان عقول،[2] على رأي محمد عويس ، وهي صورة رائعة يرسمها الشاعر، إذ يبدو الكون من حول الإنسان المتأمِّل والمفكر وكأنَّه في بستان أزهار، وثماره إنَّما هي دلائل القدرة الإلهية التي رسمت هذه اللَّوحة الكونية الرَّائعة التي لا تتجلى مفاتنها إلاَّ لعبد مخلص لله متدبِّرٍ بعقله في سرِّ هذا الوجود. يقول: [3]

وانْظُرْ إلى المُزْنَةِ مَشْحونَـةً مُثْقَلَةً الكاهِلِ كَالْبَـازِلِ
تحِنُّ من شوقٍ إلى وقْفَـةٍ أو خَطْرَةٍ بالبَلَدِ المَاحِلِ
يالك بُسْتانَ عُقـولٍ بَـدَا لِعَيْنِ قَلْبِ المُؤمِنِ العاقِلِ
فَسِرُّ هذا الشَّأنِ لا يَنْجَلِـي إلاَّ لِعَبْدٍ مُخْلِصٍ فاضِلِ

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. ص 60

(2) محمد عويس: من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي. 59

(3) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه. 60

و ما دام الإنسان هو المعني بهذا التَّأمل و التَّدبر العقلي في مسألة الوجود، اتَّجه الشاعر إليه مخاطبا إيَّاه مباشرة يطالبه بالتَّدقيق وإعمال الفكر لكي ينبني إيمانه بالله على حقائق عقلية خالصة، ترسوا به إلى الراحة النفسية والاطمئنان الروحي،[1] فيقول: [2]

أنْت المُخاطَبُ أيُّها الإنْسَانُ فَأَصغِ إليَّ يَلُحْ لَكَ البُرْهَانُ
أُودِعْتَ ما لَو قُلْتَهُ لك قُلْتَ لِي هَذا لَعَمْرُكَ كُلُّهُ هَذَيَانُ
فانْظُرْ بِعقلك من بَنَانِكَ واعْتَبِرْ إتقان صنعته فثم الشان
ِللهِ أَكياسٌ جَفوا أَوطانَهمْ فَالأرْض أَجْمَعُهَا لَهُمْ أَوْطَانُ
جَالت عُقولهم مَجال تَفَكُّرٍ وَتَدَبُّرٍ فَبَدا لها الْكِتْمانُ
رَكِبتَ بِحار الفَهمِ في فُلَكِ النُّهَى وجَرَى لها الإخْلاَصُ و الإيمَانُ
فَرَسَت بهم لما أَتَوْا مَحْبُوبَهُمْ مَرْسَى لهم فيه غِنى وأَمانُ

وفي قصيدة نونية في خمسة وأربعين بيتا، مَجَّدَ فيها الشاعر صورة العالم الفقيه الورع الزاهد في ملذَّات الحياة الدنيا الزَّائفة والفانية، والذي آثر حياة العلم والزهد، فاتَّخذ من علمه عطاء يوزِّعه بعدل على طالبيه لينتفعوا به وينفعوا،[3] وهي صورة أقرب ما تكون لشخصية الشاعر الورعة. يقول: [4]

إِنَّ أُولِي العِلمِ بِما في الْفِتَنْ تَهَيَّبُوهَا من قَديمِ الزَّمَنْ
فاسْتَعْصَمُوا الله وكان التُّقَى أَوْفَى لَهُمْ فِيها مِنَ أَوْفَى الْجُنَنْ
واجْتَمَعُوا في حُسْن تَوفِيقِهِ وافْتَرقُوا في كُلِّ سَعْيٍ حَسَنْ
فعالِم مُسْتَمْجِدٌ عامِلٌ يَسْلُكُ بِالنَّاسِ سواء السُّنَنْ

(1) محمد عويس: من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي. 59
(2) أبو إسحاق الإلبيري:الديوان. 61
(3) محمد عويس: نفسه. 60
(4) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه. 101

يَنْثرُ من فِيه لَهُم جَوْهرًا من عِلْمِه ليس له ثَمَـنْ
يَقْسِمُهُ طُلاَّبُـهُ بَيْنَـهُمْ قِسمة تَعْديلٍ بِقَدْرِ الفِطَـنْ
يَلبَسُ من إِيمانِهِ لأُمَـةً فَضْفاضَةً يَغْنَي بِها عن مِجَنْ
وحابسٌ في بيته نفسَـهُ مُعْتَزِلٌ مُسْتَمْسِكٌ بِالسُّنَـنْ
يأخُـذُ مِن دنياه قوتـًا لـهُ مُقْتَنِعًا مِثلَ عِذارِ الرَّسَـنْ

ويواصل الشاعر في تعداد صفات هذا العالم التَّائب من الذَّنب، الباكي بكاء الخاشع لله، القائم في جنح الليل منيبا مبتهلا، لا ينطق لسانه إلا ذكرا لله وتسبيحا له، فنوَّر الله له قلبه بالإيمان وخصَّه برحمته[1]، يقول: [2]

وتائِبٌ من ذَنْبِـهِ مُشْفِقٌ يَبْكي بُكاءَ الواكِفاتِ الهُتُنْ
تخاله بين يَدَيْ رَبِّـهِ في ظُلَمِ اللَّيْلِ كَمِثْلِ الغُصُنْ
إنْ مَهَّدَ النَّاس لِدُنْياهُمْ شَمَّرَ في تَمْهِيدِهِ لِلْجَنَـنْ
كأنَّما الأرض له أَيْكَـةٌ وهو بها قُمْرِيَّـةٌ في فَنَنْ
وصامِتٌ في قلبه مِقْوَلٌ بِالذِّكْـرِ لله طويلٌ لَسِنْ
وتَراه كالأَبْلَهِ في ظَاهِرٍ وهو من أذْكى النَّاس فيما يَظُنْ
قدْ نَوَّرَ اللهُ له قَلْبَـهُ بِالذِّكْرِ في السِّرِ لهُ و الْعَلَنْ

وأبو إسحاق الإلبيري في تمجيده للعلماء لا يقف عند هذا الوصف بل يتجاوزه إلى أبعد من ذلك، فهم في رأيه قبس الأمة، ينشرون ما وهبهم الله تعالى من نور علمهم وصلاح عملهم،فيدرؤون الخطر المحدق بها، وتتنزَّه النفوس عن الدنيا وتشرق الأرواح

---

(1) محمد عويس: من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي. 61
(2) أبو إسحاق الإلبيري:الديوان. 102

بالإيمان الحق، وتزدان العقول بعلمهم النافع، يقول: [1]

في مَلَكوتِ الله سُبحانه وتعالَى تَجولُ أَلْبَابُ لُبَابِ الفِطَنْ
فَهُم خُصوصُ اللهِ في أَرْضِهِ حقًّا، بِهِمْ تَدْرَأُ عَنَّا المِحَنْ
سَمُوا بِفَضْلِ اللهِ نَحو الَّتِي منْ حَلَّ في جِيرَتِها قد أَمِنْ
ونَزَّهُوا الأَنْفسَ عن مَنْزِلٍ نازِلُهُ مسْتَوْفِزٌ لِلظَّغَنِ

والشاعر في حديثه عن علوِّ شأن العلماء يظهر ضعف نفسه وهوانها أمامهم، إلى درجة أنه يتمنَّى أن يكون خادما لهم لمكانتهم العلمية العظيمة، لينتفع منهم و يقتدي بهم، لكن منعه عن كل هذا دنيا غادرة ابتلي بها، ونفس ضعيفة غافلة عن التوبة بالرغم من مناداة الشيب له منبِّها إيَّاه بدنوِّ أجله وانقضاء عمره [2]، يقول: [3]

فَلَيْتَنِي كُنت لهم خادِمًا وَلَيْتَنِي إذْ لمْ أكُنْ لم أَكُنْ
ومن سواهم فَرِجال رَجَوا أنْ يَعْبُروا البحر بِغَيْرِ السُّفنْ
وإنَّما قَصَّر بي عَنْهُمْ حُبِّي لِدَارِ مُلِئَتْ بِالفِتَنْ
لا غارتِ الدُّنْيا ولا أَنْجَدَتْ فَالعاقِلُ الْحُرُّ بِها مُمْتَحَنْ
تَميلُ لِلأَحْمقِ من أهْلِهَا وَهِيَ على عاقِلِهِم تَضْطَغِنْ
ياعَجَبًا من غَفْلَتِي بعد أنْ نادانِي الشَّيْبُ فارْحَلَنْ !
وأدْرِكِ الفائِتِ مِن قَبْلِ أنْ يَفْجَأَكَ الموتُ فلا تَنْظَرَنْ

فالعلاقة بين الزهد والعلم متينة، والتَّفاعل بينهما قويّ، فلا غرو إن وجدنا الزّهاد محبِّين للعلم، يقبلون عليه بكلِّ طاقتهم، بعد أن طرحوا الدنيا وحطامها، ووجدوا في العلم ما يملأ حياتهم كلها،وفي الكتب خير أنيس ينسيهم لذَّة الدنيا من حولهم، فهم

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 103
(2) محمد عويس: من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي. 62
(3) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه . 103

خلاصة الوجود ولبِّه، لأنَّهم أدركوا أن العلم وحده هو الذي يعطي للحياة قيمتها، بل هو الذي يجعلها جديرة باسمها، وبدونه تصبح الحياة أشبه بالموت، فالجاهلون أموات، والعلماء أحياء حتى بعد موتهم. [1]

قال الإمام أبو تراب المراغي[2]عندما عرض عليه تولي القضاء فأبى: ((قعودي في هذا المسجد ساعة أحبُّ إليَّ من أن أكون ملك العراقيين، ومسألة من العلم يستفيدها منِّي طالب أحبُّ إليَّ من عمل الثَّقلين)). [3]

إنَّ الزهد الذي أقترن بالعلم اقترانا، كان لابدَّ منه لكي يستقيم نهج الزهد، وحتى يرشد طريق العلم، وهو ما وجدناه في حياة الزُّهاد المسلمين في مختلف العصور، حتى لقد كان من الصعوبة أن نجد فرقا بين صفاتهم كزهاد ووعاظ، أو صفاتهم كفقهاء محدِّثين . كأبي إسحاق الإلبيري . لأنَّ هذه الدَّوائر تتداخل بحيث يتعذَّر إقامة الفواصل بينها.[4]

---

(1) عبد الستار محمد ضيف: شعر الزهد في العصر العباسي. ص239

(2) هو عبد الباقي بن يوسف أبو تراب المراغي، كان فقيها وإماما فاضلا زاهد بنيسابور، توفي سنة 492هـ أنظر:عبد الستار محمد ضيف: شعر الزهد في العصر العباسي. 239

(3) عبد الستار محمد ضيف: نفسه. 239

(4) عبد الستار محمد ضيف: نفسه: 247

7 / التوبـة والإستغفـار:

التوبة أوَّل منازل السَّالكين، وأوَّل مقام من مقامات الطَّالبين، وحقيقة التوبة هي الرُّجوع عمَّا كان مذموما في الشَّرع إلى ما هو محمود فيه، فأرباب الأصول من أهل السُّنة قالوا : شرط التوبة حتَّى تصحَّ ثلاثة أشياء : النَّدم على ماعمل من المخالفات، وترك الزَّلة في الحال، والعزم على أن لايعود إلى مثل ماعمل من المعاصي،[1] والتوبة لا يصار إليها إلاَّ بعد محاسبة النفس،لأنَّ المرء إذا حاسب نفسه عرف ما عليه من حق، فخرج منه، وتنصَّل منه صاحبه، وهي حقيقة التوبة، فكان تقديم المحاسبة عليها لذلك أولى، ولتأخيرها وجه . أيضا. وهو أنَّ المحاسبة لا تكون إلاَّ بعد تصحيح التوبة، والتَّحقيق : أن التوبة بين محاسبتين : محاسبة قبلها تقتضي وجوبها، ومحاسبة بعدها تقتضي حفظها [2] .وقد دلَّ على وجوب المحاسبة قول الله تعالى:((**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَاقَدَّمَتْ لِغَدٍ**)). [3]

فأمر الله سبحانه وتعالى العبد أن ينظر ما قدَّم لغده، وذلك يتضمَّن محاسبة نفسه على ذلك، فإذا أنزل العبد هذه المنزلة، منزلة محاسبة النفس، أشرف منها على مقام التوبة، لأنَّه بالمحاسبة قد تميَّز عنده ماله وما عليه،[4] قال سفيان الثوري[5] : ((علامة التوبة النَّصوح أربعة:القلَّة،والعلَّة،والذلّة،والغربة))[6].

---

(1) القشيري : الرسالة القشيرية. 92

(2) ابن قدامه المقدسي : كتاب التوابين .تح. خالد عبد اللطيف السبع العلمي. دار الكتاب العربي.بيروت .لبنان.ط1 .1425هـ – 2004م . ص 6.

(3) سورة الحشر : الآية 18

(4) ابن قدامه المقدسي : نفسه .ص 6

(5) هو سفيان بن سعيد الثوري توفي (161هـ) بالبصرة في خلافة المهدي. أنظر: الشيخ عبد الله بن أحمد بن عجيبة :معراج التشوف. 28.

(6) عبد الله بن احمد بن عجيبة : نفسه. 28

ومفهوم التوبة في الإسلام خلق إسلامي، يقترن بصفات المتَّقين [1]، كما تشير إليه الآية الكريمة ((**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ والأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**)). [2]

على هذا المفهوم نتناول موضوع التوبة والاستغفار من خلال ما توفَّر من شعر أبي إسحاق الإلبيري، الذي ينبئ على سلامة عقيدته وفطرته، وحسن خلقه وأدبه، والذي ينمُّ عن طمع في رحمة الله ورجاء في عفوه .

فشعر التوبة والاستغفار عند الإلبيري اقترن بشعوره بالذَّنب على إفراطه في المعصية وتفريطه في الطَّاعات، إدراكا منه قبح الآثام وسوء مغبَّتها، فقرع سنَّ النَّدم على ما اقترف من ذنوب ومعاصي اتِّجاه ربِّه، وأقبل على هدي القرآن مسرعا إلى التوبة والخضوع، راجيا المغفرة والرّحمة والعفو من صاحب القدرة، مسلما أمره إيَّاه عن طواعية وراضيا بحكمه. يقول : [3]

أَتَيْتكَ راجِيًا يا ذا الْجَلاَلِ ... فَفَرِّجْ ما ترى من سوء حَالِي
عَصَيْتكَ سَيِّدِي وَيْلِي بِجَهْلِي ... وَعَيْبُ الذَّنْبِ لمْ يَخْطُرْ بِبالِي
إلى من يَشْتَكِي الْمَمْلُوكُ إلاَّ ... إلَى مَوْلاَهُ يَا مَوْلَى المَوالِي
لَعَمْرِي لَيْتَ أمِّي لم تَلِدْنِي ... ولمْ أُغْضِبْكَ في ظُلَمِ اللَّيَالِي
فها أنا عَبْدُكَ العاصِي فَقِيرٌ ... إلَى رُحْماكِ فاقْبَل لِي سُؤالِي
فإنْ عاقبْتَ يارَبِّي تُعاقِبْ ... مُحِقًّا بِالْعَذابِ وبِالنَّكالِ
وإنْ تعْفُ فَعَفْوُكَ قَدْ أرانِي ... لأَفْعالِي وَأَوْزارِي الثِّقالِ

ونجد الشاعر في موقف آخر، يبكي كثرة ذنوبه ويستعظمها، حتَّى بلغت عدد نجوم السماء، ويتضرَّع إلى الله، طالبا منه العفو والصَّفح عنه، وهذا دليل على أنَّ عاطفته قوية صادقة مفعمة بروح التوبة والنَّدم العميق ،وهي عاطفة لا تحملها إلاَّ نفس مؤمنة

---

(1) منجد مصطفى بهجت : الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي . 254
(2) سورة آل عمران : الآية 133
(3) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان . 119

تقيَّة واثقة من كرم ربِّها، يقول : [1]

أيّ خَطِيئاتِي أبْكي دَمَا وهي كثيرة كَنُجومِ السَّمَا
قد طَمَسَتْ عَقْلِي فما أَهْتَدِي وَأَوْرَثَتْ عيْنَ فُؤادي الْعَمَى
إنَّا إلى اللهِ لقد حلَّ بِي خَطْبٌ غَدا صُبحِي بِهِ مُظْلِمَا

وهكذا نرى الشاعر أبا إسحاق الإلبيري بعد أن أحسَّ بالنَّدم، تتكرَّر عنده معاني التوبة والاستغفار، بإظهار النَّدم والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى طلبا للمغفرة والعفو، وتتجلَّى هذه المعاني في إقرار الشاعر بذنوبه التي عظمت وكثرت، وهذا الإقرار يرسم لنا صورة باطنية لنفسيَّة الشاعر الوجلة، التي تآلفت عليها مشاعر الحزن والخوف من المصير المجهول الذي قد تؤول إليه، والتي يترجمها كذلك استسلامه ورضاه بعقاب ربِّه إن مضى فيه حكمه. يقول : [2]

لا قُوَّة لي يارَبِّي فأنْتصِرْ ولا بَرَاءَةَ لِي من ذَنْبِي فَأَعْتَذِرُ
فإنْ تُعاقِبْ فَأَهْلٌ للعقابِ وإنْ تَغْفِرْ فَعفوك مأمول ومنتظر
إنَّ العظيمَ إذا لمْ يَعْفُ مُقْتَدِرَا عن العَظيمِ فمَنْ يَعْفُو وَيَقْتَدِرُ؟

إنَّ استسلام الشاعر لأمر ربِّه وندمه على ما سلف من أمره، هو صورة من صور التوبة، وهو في أبياته هذه يتمنَّى أن يتحقَّق له شيء من كرم ربِّه الذي يتمثَّل في عفوه، إذ ليس من شأنه اليأس من رحمة الله، والله سبحانه وتعالى يقول: ((**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمِ**)) [3]

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري :الديوان . 71
(2) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه. 117
(3) سورة الزمر : الآية 53

فقد أيقن الشاعر سوء صنيعه وأبصر ما هو عليه من قبيح الأفعال، فمدَّه الله سبحانه وتعالى بصحيح العزيمة، والأخذ في جميل الرَّجاء والتَّأهب لأسباب التوبة والإقلاع عن قبيح الأفعال بالنَّدم على ما فات والتَّوقف عن تعاطي المحظورات، وكبح جماح نفسه عن متابعة الشَّهوات، وإبرام العزيمة على أن لايعود إلى مثلها، بترك التَّسويف، على رأي سهل بن عبد الله: العزيمة ترك التسويف .[1]

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي : ((سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت جعفر بن نصير يقول : سمعت الجنيد يقول: التوبة على ثلاث معان: الأول النَّدم والثاني العزم على ترك المعاودة إلى ما نهى الله عنه والثالث السَّعي في أداء المظالم.))[2]

ويقول الإلبيري في هذا المعنى مظهرا عزمه على توبته إلى الله، و مبديا خوفه من أن يحرم عفو ربه. يقول: [3]

الوَيْلُ كُلُّ الوَيْلِ لِي إنْ لم يَكُنْ مَولايَ فِي تِلْك الشَّدائدِ نَاصِرِي
إنِّي لأَشْكُرُهُ عَلَى آلاَئِـهِ فهو الوَفِيُّ بِعهدِه لِلشَّاكِرِ
وإليه أَضْرَعُ فِي إنابَةِ مُخْلِصٍ فهو الَّذي أرْجُو لِسَدِّ مَفارِقِي

كما اقترن شعر التوبة والاستغفار عند الإلبيري بكبر السِّن، لما تمثِّله هذه المرحلة العمرية من نضج عقلي وفكري، و تؤشِّر لدنو الأجل ، وهي مرحلة توجب التحرُّر من عبودية الهوى، ولجم النفس عن كل مشتهى، والانسلاخ من طيش الصبا،

---

(1) القشيري : الرسالة القشيرية . 95
(2) القشيري : نفسه : 95
(3) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان . 82

والاستعداد ليوم اللِّقاء بالتوبة والرَّجاء ،يقول الإلبيري : (1)

قدْ بَلَغْتَ السِّتِّينَ ويحك فاعلم أنَّ ما بعدها عليكَ تَلَـوَّمْ
فإذا ما انْقضَتْ سِنوكَ وَوَلَّتْ فَصَلَ الحاكِم القضاءَ فَأَبْرَمْ
أنت مثلَ السِّجِلِ يُنْشَرُ حِينًا ثم يُطْوَى من بعدِ ذَاكَ وَيُخْتَمْ
كيف يَلْتَذُّ بِالحيـاةِ لَبِيبٌ فَوَّقَتْ نَحْوَهُ المَنِيَّةُ أَسْهُمْ
ليس يَدري مَتى يُفاجِيهِ منها صَائِب يَقْصِفُ الظُّهورَ وَيَقْصِمْ

فانصرام العمر بلا إنابة صفقة خاسرة . إذ لا يجزى المرء إلاَّ بما قدَّمت يداه . لذا يدعو الشاعر أبو إسحاق الإلبيري إلى التَّعجيل بالتوبة، فبالتوبة تمحى الذنوب وتطهَّر القلوب والأنفس، كما يمحو سجود السّهو غفلة الساهي في صلاته، يقول : (2)

منْ ليس يسْعَى في الخَلاصِ لنَفْسِهِ كَانت سِعايَتُـهَ عليها لاَ لَهَا
إنَّ الذُّنُوبَ بِتَوبةٍ تُمْـحى كَمَا يَمْحُو سُجُود السَّهْوِ غَفْلَةَ مَنْ سَهَا

فهذه الأبيات تتقاطع مع قوله تعالى في سورة الفرقان ((**إِلاَّ مَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا**)) . (3)

ممَّا لاشك فيه، أنّنَّا نحسُّ في كلمات الإلبيري نبرة الصِّدق والثَّبات على المبدأ، فهذه أقوال سديدة مغلَّفة بنسيج الوعظ وموشَّاة بصياغة التوبة،والتي يسعى من خلالها إلى الجدِّ في خلاص النفس وطهارتها من دنس الذنوب.

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري :الديوان. 50
(2) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه . 49
(3) سورة الفرقان : الآية 70

ومن أسس الموعظة عند أبي إسحاق الإلبيري إنَّه يعظِّم من شأن الذّنوب، ويهوِّل من سطوة النَّفس الَّتي تجمح براكب هواها فيلقى مصرعه، فغدا شعره عظات وتعاليم، ودعوة إلى حياة النّسك والمغالات في فطام النفس وحرمانها، وإجبارها على الخضوع والتوبة، وعدم الوثوق بها، فصار أقرب إلى شعراء الأخلاق و الحكمة .

وفي عتاب الشاعر لنفسه على عدم ثباتها على أمر، وإخلافها في وعدها بالتوبة، بالرَّغم من وضوح النَّهج السَّليم، الذي ينجي كُلَّ من سار عليه منشدا الخلاص، إضافة إلى ذلك أفول نجم الشَّباب الطَّلق، ووفود الشَّيب منذرا بالوعد الصَّادق الحق،يقول : [1]

وَأَرَى بها نَـهْجَ الْهِدايَةِ وَاضِحًا يَنْجُو به من ليس عنه جَائِرِ
قد آنَ لِي أَنْ أَسْتَفيقَ و أَرْعَوِي لو أَنَّنِي مِمّنْ تَصِحُّ بَصَائِرِي
فلكمْ أروحُ وأغْتَدِي في غَمْرَةٍ مُتَرَدِّدًا فيها كَمِثْلِ الحائِـرِ
وَأَرَى شَبَابِي ظَاغِنًا في عَسْكَرٍ عَنِّي وشَيْبِي وافِدًا بِعساكِرِ
فَغَدَت مُظَفَّرَةً عَليَّ ولم تَزَلْ قِدْمًا مُعَلاَّةً قِدَاحُ الظَّافِـرِ

ولأبي إسحاق الإلبيري موقف واضح وصريح في ديوانه من الشَّيب، والإقلاع عن الذُّنوب وإعلان التوبة، وقد ورد ذكر الشَّيب في عدة قصائد من ديوانه، لما يوحي به من غروب شمس الصِّبا ودنو أجل الفناء، يستوجب الاتِّعاظ به والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، وتخيّر الزّاد للآخرة لدار الدَّوام . يقول : [2]

شاب القَذَالُ فَآن لي أن أرْعَوِي لوْ كنتُ مُتَّعِظًا بِشَيْبِ قَذَالِ
ولوْ أَنَّنِي مُسْتَبصِرًا إذْ حَلَّ بِي لَعَلِمْتُ أنَّ حُلُولَهُ تِرْحَالِي
فنظرْتُ في زادٍ لدار إقامَتِـي وَسَألتُ رَبِّي أنْ يَحُلَّ عِقالِي

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان. 79

(2) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه. 39

فَلكم هَمَمْتُ بِتوبـة فَمُنِعْتُهَا إذْ لم أكُنْ أهلاً لها، وَبدالِـي
ويَعِـزُّ ذاكَ عليَّ إلاَّ أنَّنِـي مُتقَلِّبٌ في قبضة الْمُتَعالِـي
ووصَلْتُ دنيا سوف تَقْطَعُ شَأْفَتِي بِأُفولِ أَنْجُمِهَا وَخَسْفِ هِلاَلِ

فهذه الأمثلة تبيِّن سرَّ تلك المعاني الجليلة الواضحة، التي تفرَّد بها أبو إسحاق الإلبيري في شعره، إذ يمكن القول إنَّ شعره الزهدي أداة لتطهير النَّفس و تحليَّتها بكلِّ جميل ، وهذا إجماع مكارم الأخلاق .

فشعر الزهد عند أبي إسحاق الإلبيري يحمل مدلولا كبيرا، وعبرة جليلة، فهو يقرع في أذاننا أجراس النَّدم والحسرة، لنتوب إلى الله ونهتدي قبل أن نؤخذ على غفلة،كما يحمل مدلولا آخر، وهو أنَّ الشاعر تخلَّق بأخلاق الإسلام، بحمله لواء الدعوة إلى الإصلاح والرَّشاد والإقلاع عن الذُّنوب والتَّخفيف من ثقل المعاصي، بالدَّعوة إلى التوبة والاستقامة في الحياة الدنيا، باعتبار التوبة عن الذنوب خلقا إسلاميا . كما أسلفت الذِّكر. على أساس أنَّ الإنسان متوقّع منه الخطأ والذَّنب، لكن المطلوب من المذنب التوبة والكفِّ عن ارتكاب الآثام وعدم العودة إليها، وإلاَّ عوقب عليها يوم القيامة كما نصَّت عليه مصادر الشَّريعة الإسلامية، كقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) **((إنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ))** [1] .

(1) الإمام مسلم : صحيح مسلم. باب الزهد في الدنيا. ص1023

الفصل الثاني :آليات البناء الفني .

. تمهيد:

01/ اللغة

02/ الصورة الفنية

03/ الموسيقى الشعرية

التَّجربة الشِّعرية هي الملاذ الآمن للشاعر في هذا العالم الذي يغصُّ بما يبعث القلق والضّجر ،والتي وجد فيها مكانا لذاته تتحرَّر فيه من عمق المأساة التي أفرزتها الأحداث المتراكمة ، مضافا إليها الحياة اليومية بما تحمله من ابتذال، وهي العالم الأمثل الذي يمنحه الحياة والحريّة ليمارس سلطته الشّعرية باعتلاء صهوة اللغة الرّاقية التي تعبِّر عن تجربته الذّاتية باستنفاذ كل طاقاتها التّصويرية والإيمائية والموسيقية، ليحمِّلها وزر انفعالاته العاطفية التي يتوجّه بها من الذآت . ذاته . إلى ذوات أخرى، فاللّغة مشبعة بالتّجربة قادرة بحكم صياغتها أن تحمل رؤية الشاعر للوجود [1] على الشّكل الذي وظِّفت به ، فالشاعر يوظّف اللّغة توظيفا خاصا لتحقيق قيمة صوتية وإيقاعية هي في حدّ ذاتها قيمة جمالية [2] متفاعلة مع رؤيته ومتداخلة معها .

ولكلّ شاعر طريقته في التّعامل مع اللّغة ،حيث يعمل على استفزاز كل الطّاقات التّعبيرية الخلاَّقة في اللّغة حتى يكتمل له الشّكل الفني الذي يجسّد به رؤيته ،ويعبّر بواسطته عن حاضره النّفسي والفكري ، فاللّغة الشّعرية إذن هي انحراف عن مسار اللّغة في التعبير المباشر [1] إلى التّعبير الفنيّ غير المباشر ، باعتبارها أداة من أدوات بنائه الفني.

وقصد الوقوف على الكيفية التي تعامل بها الشاعر أبو إسحاق الإلبيري مع أدوات بنائه الفني في قصيدة الزهد ، يمكننا أن نضع أيدينا على أبنيته الفنية الخاصة التي تبدأ بالكلمة وتنتهي بالبناء الشّعري، مرورا بالموسيقى والصورة وغيرها من العناصر ،ولكلّ عنصر خاصيته الفنيّة في خلق العلاقات التركيبة الجديدة التي تؤدّي بدورها وظائف فنيّة جديدة عن طريق التحامها باللّغة كآلية نقل

---

(1) محمد زكي العشماوي :قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث . دار النهضة العربية. لبنان. 1979.ص 13

(2) محمد زكي العشماوي : نفسه.252

(3) رمضان الصباغ : في نقد الشعر العربي المعاصر دراسة جمالية.دار الوفاء.السكندرية .مصر.ط1. 1998.ص 136

وتفاهم، وهو الأمر الذي يؤكّد أنّ اللّغة لا تنفصل عن بقية العناصر الفنية الأخرى، والتي سنحاول في هذا البحث أن نكشف عن الكيفية التي تمّ بها توظيفها في البناء الفني لقصيدة الزهد عند الإلبيري ،و كيف استطاع الشاعر أن يطوّعها بها ويستثمر عناصرها الصّوتية في تحقيق إيقاعه الموسيقى الخاص ؟ وكيف تفاعلت مضامينه التي درست سابقا مع موسيقاه الشعرية ؟ وإلى أيِّ حدّ وفّق الشاعر في تركيب صوّره الشّعرية ؟

وحتّى تتوفّر لنا الإجابة على كل هذه الإشكالات ،ارتضينا أن نتناول في هذا الفصل على قدر ما تيسّر لنا ،أهم عناصر البناء الفني لقصيدة الزهد عند الالبيري، والمتمثلة في آلية اللّغة والصورة الفنية والموسيقى الشعرية.

1 / اللغة :

العمل الأدبي وحدة متكاملة لا ينفصل فيها الشّكل عن المضمون وعن الآليات الفنية التي تجسّد مضمونا في شكل معيّن.

ووعيا منّا بهذه الوحدة للعمل الأدبي ، فلا مناص لنا في دراسة شعر أبي إسحاق الإلبيري من أن نخصّ كلّ عنصر من عناصر بنائه بدراسة تلامس أهم سماته.

ولا ريب في أنَّ اللغة من أهمِّ عناصر العمل الأدبي بعامة و الشعر بخاصة ، فالشعر فن باللّغة ، والقصيدة ليست إلاَّ تشكيلا خاصا لمجموعة من الألفاظ منتقاة من لغة معينة باعتبار اللّغة وسيلة من وسائل التّبليغ ووظيفة اجتماعية [1] تعبّر عن فكر الشاعر وأحاسيسه تعبيرا يجمع بين الدّقة والجمال ، فهي لغة خاصة تتجاوز مفهومنا عن اللّغة بمعناها الضّيق ، لأنَّ اللّغة في مفهومها العادي أداة توصيل ، على حين إنّها في الشعر منبع لأدقِّ المشاعر والأحاسيس (فاللّغة هي موسيقاه وهي ألوانه وهي فكره وهي المادة الخام التي تجعل منه كائنا ذا ملامح وسمات ،كائنا ذا نبض وحركة وحياة).[2]

فاللّغة إذن أهم عناصر الإبداع الأدبي ، فهي أداة الشاعر ووسيلته لنقل ما يعتمل في خاطره وما يفيض به وجدانه، [3] (ففيها ميدان بلاغته، ومجال إظهار ما لديه من مقدرة وتفوّق ، فطبيعة اللّغة التي يتكلّمها المرء ، ومدى براعته فيها لهما أهمية كبرى في تحديد القيمة الجمالية الناتجة ، فمهما كانت قوّة ملاحظاته وعمق تفكيره وإحساسه، فقد يشين هذه الأشياء جميعا الأسلوب الرّديء ، وأن يزيد من تأثيرها الأسلوب الجيّد).[4]

---

(1) عبد المالك مرتاض :الأدب الجزائري القديم – دراسة في الجذور – دار هومة. الجزائر. 2003 .ص 111.

(2) محمد زكي العشماوي : قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث.41

(3) سالم عبد الرزاق سليمان المصري: شعر التصوف في الأندلس . دار المعرفة الجامعية .الإسكندرية . مصر .ص 161

(4) عباس بيومي عجلان : عناصر الإبداع الفني في شعر الأعشى. دار المعارف .ط1. 1980 . ص187

في ظلّ هذا الوعي بأهمية اللغة في الإبانة عن قلب النّص النّابض بالحياة ، نحاول في هذه الدراسة الدّنو من لغة الشاعر أبي إسحاق الإلبيري للإنصات إلى آهاته وأشجانه التي تصاعدت من خلال نصوصه الشّعرية الزّهدية .

1/1 . المعجم اللّغوي والأسلوب :

لمَّا كان شعر الزهد يتوجّه إلى الله سبحانه وتعالى، حبّا له وشوقا إليه، ورجاء رحمته، وحول النّفس وما يتّصل بها من قناعة وتقوى ، وحول الدنيا ومتاعها من مال وجاه ، وحول الآخرة وما يرتبط بها من الموت والقبر والحساب والعقاب، كان من الطبيعي أن يدور معجمه اللّغوي حول تلك الموضوعات والمعاني المتّصلة بها ، وأن تصدر عنها ألفاظه وتراكيبه ،فإذا قرأنا هذه الأبيات للشاعر التي يقول فيها.[1]

تَفُتُّ فُؤادكَ الأيـَّام فتًّـا وتَنْحَتُ جِسمكَ السَّاعات نَحْتَا
وتَدْعوكَ المَنونُ دُعاء صِدقٍ ألاَ يا صاح: أنْت أريد أَنْتَا
أرَاك تُحبُّ عِرْسا ذات غدر أبتَّ طَلاقَها الأكياس بَتَّـا
تنامُ الدَّهْرَ ويْحكَ في غَطِيطٍ بها حتَّى إذَا مِتَّ انْتَبَـهْتَا
فكمْ ذا أنت مخْدوعٌ وحتىَّ متَى لا تَرْعَوِي عَنْها وحتَّى

تصادفنا في هذه الأبيات الزّهدية الألفاظ التالية (المنون – تفتُّ– تنحت – غدر – متَّ– مخدوع) وهي ألفاظ تدور حول معنى التّزهيد في الدنيا لفنائها ، والتّذكير بالموت، والدعوة إلى الاستعداد ليوم الحساب بالعمل الصالح ،والشواهد على ذلك كثيرة منها قوله أيضا معرضا بالدنيا: [2]

فليستْ هذه الدُّنْيَا بِشَيْءٍ تَسُوؤُكَ حقبة وتَسُرُّ وَقْتا

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان .19– 20
(2) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه.23– 24

وغايتها إذا فكَّرْتَ فيها كَفَيْئِكَ أو كحُلْمِك إنْ حَلَمْتَا
سُجِنْتَ بها و أنت لها مُحِبٌّ فكيف تُحِبُّ ما فيه سُجِنْتَا ؟
وتُطْعِمُكَ الطَّعامَ وعن قريبٍ سَتَطْعَمُ منك ما منها طَعِمْتَا

وتَعْرَى إن لبست لها ثيابا وتُكْسَى إنْ ملابسها خلعتا
وتَشْهَدُ كُلَّ يومٍ دَفْنَ خِلٍّ كَأَنَّكَ لاَ تُرَادُ بِما شَهِدْتَا

فألفاظ الدّنيا والموت وما يحملاه من صفات كالغدر والسجن والفناء ،تتكرّر في شعر الزهد للإلبيري ، والذي يصدر عن عاطفة قوية تغذّيها مشاعر نفسية حادّة من خوف ورجاء وعزّة نفس، وازدراء للحياة الدنيا ،وتطلّع للحياة الآخرة دار الجزاء.

وقد انعكست هذه الأحاسيس على معجم شعر الزهد لأبي إسحاق الإلبيري ، فجاء زاخرا بالألفاظ التي تنتمي إلى عالم الوجدان والشعور ، كما يتجلّى في هذه الأبيات المليئة بمشاعر الرّهبة والخوف من سوء المصير فيقول :[1]

وما آسَى على الدُّنيا ولكن علَى ما رَكبتُ من الذُّنوبِ
فيا لَهفي على طول اغْتِراري ويا ويْحي من اليوم العَصيبِ
إذا أنا لم أنُحْ نفسي وأَبكـي على حُوبِي بِتَهْتانٍ سَكوبِ
فَمَنْ هذا الَّذي بَعْدي سَيَبْكِي عليها من بعيـدٍ أو قريبِ ؟

فعند قراءتنا لهذه الأبيات نجد الإحساس بالخوف والحزن يسيطران على الشاعر، ويطبعان معجمه الشعري بطابعهما، فإذا به يدور حول الألفاظ التّالية: (الأسى – احتراس – الدنيا – الذنوب – ويحي – اليوم العصيب – أنح – أبكي)، وهي ألفاظ ذات صلة وثيقة بعالم الوجدان.

---

(1)أبو إسحاق الإلبيري : الديوان .32

كما يعكس شعر الإلبيري الزّهدي ثقافته التّاريخية والدّينية الواسعة ،وعمق نظرته وكثرة تجاربه ، فكثرت عنده الحكم الصّائبة والأمثال السّائرة.

ومن شعره الذي يستنطق فيه ثقافته التاريخية ، إشارته إلى الملوك الماضين للاتّعاظ بهم، في قوله: [1]

وخفْ أبْنَاءَ جِنْسِكَ وَاخْشَ مِنْهُم كما تَخْشَى الضَّراغِمَ والسَّبَنْتَى
وخالِطُهُمْ وَزَايِلْهُمْ حِـذَارًا وَكُنْ كَالسَّامِرِيِّ[2] إذا لَمَسْتَـا

فالسَّامري رمز تاريخي غائب ، استحضره الشاعر الإلبيري من ماضيه المنسي، وبثَّه في روح نصّه الحاضر لمقصد دلالي أراد به الشاعر أن يستدرج انتباه المتلقي ، الذي يستهويه البعد التاريخي ويثير فضوله ،وهو ما أكسب المعنى مسحة جمالية ،وبعدا دلاليا أعمق.

ومن الإشارات الدّالة كذلك على ثراء ثقافة الشاعر وتجربته العريضة في الحياة، توظيفه للحكمة التي تميّز بها شعره الزّهدي وأكسبته طابعا خاصا قد لا يتجلّى في شعر غيره من شعراء عصره،و الشّاهد على ذلك قوله : [3]

فَرَأْس العِلم تَقْوى الله حقًّا وليس بأن يقال : لقد رَأَسْتَا
وضَافي ثوبك الإحسان لاَ أَنْ تُرَى ثَوب الإساءَةِ قد لَبِسْتَا
إذا لمْ يُفِدْك العلم خيـرا فخيرٌ منه أنْ لوْ قد جَهِلْتَا
وإنْ أَلْقاك فهمك في مَهـاوٍ فَلَيْتَك ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمْتَا
سَتَجْنِي من ثِمارِ الْعَجْزِ جَهْلاً وَتَصْغُرُ في العُيونِ إذا كَبِرْتَا

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان .29

(2) كان السامري عظيما في بني إسرائيل ، دعاهم إلى الضلالة بعبادة العجل ، فجعل الله عقوبته ألا يلامس الناس ولا يماسوه ، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة طه الآية(97) قوله تعالى ((**قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لاَ مَسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلِفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا**)) أنظر ديوان أبي إسحاق الإلبيري .ص 29

(3) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه .22

فالإلبيري يودع هذه الحكم في إجلال للعلم الذي أساسه تقوى الله وحسن العمل، وهذه الحكم والمعاني وألفاظها وتراكيبها ترفدها ثقافة دينية وعقلية تأمّلية واسعة عرف بها الشاعر، كان لها الأثر القوي في معجمه الشعري عامة و الزّهدي خاصة ،فكثرت فيه

الألفاظ التي تذكّر بالفناء والبعث والجزاء والعقاب، من ذلك ما تجلّى في هذا الشاهد الشّعري للشاعر، الذي يقول: (1)

قدْ بلغت السِّتينَ وَيْحك فَاعْلمْ أنَّ ما بعدها عليك تَلَوَّمْ
فإذا ما انْقَضَتْ سِنُوكَ وَوَلَّتْ فَصَلَ الحَاكِمُ الْقَضَاءَ فَأَبْرَمْ
أنت مثل السِّجلِّ يُنْشَرُ حِينًا ثُمَّ يُطْوَى من بعد ذاكَ وَيُخْتَمْ
كَيف يَلْتَذُّ بالحيـاة لَبِيبٌ فَوَّقَتْ نَحْوَهُ الْمَنِيَّةُ أَسْهُمْ

ويقول أيضا: (2)

مَنْ لَيْسَ يَسْعَى في الْخَلاصِ لِنَفْسِهِ كَانَتْ سِعايَتُهُ عليها لاَ لَهَا
إنَّ الذُّنوبَ بِتَوْبَةٍ تُمْحَى كَمَا يَمْحُو سُجود السَّهْوِ غَفْلَةَ مَنْ سَهَا

فألفاظ (انقضت ،ولت ،المنية) تدل على الفناء والزّوال ، وألفاظ (السجل ، ينشر، يطوى،يختم ،الخلاص ، الذنوب ، التوبة ،يمحو) تدل على الحساب الذي يعقبه الجزاء أو العقاب.

كما كان لأسلوب الوعظ والخطابة التّأثير الكبير على المعجم الشّعري الزّهدي للإلبيري، وأعني به الشعر الذي يتّجه إلى النفس أو إلى الغير واعظا ومرشدا، أو يقصد الله مناجيا ومبتهلا.

ومردّ هذا التّأثير أنَّ الشاعر كان فقيها ومدرّسا ، فلاغرو إن وجدنا في شعره الكثير من أساليب النّداء والاستفهام والشّرط وصيغ الأمر و النّهي وما إلى ذلك مما يقوّي التّأثير ، وينهض بمهمة التّرغيب والتّرهيب وصولا إلى ما يهدي إليه من التّقويم والتّهذيب والإصلاح.

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان. 50
(2) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه. 49

ومن أمثلة شعره الذي قام بهذه المهمة الوعظية، واتّسم فيه أسلوبه بأسلوب الوعاظ، قوله: (1)

يا أيُّها الْمُغْتَـرُّ بِاللهِ فَرَّ مِنَ اللهِ إِلَـى اللهِ

وَلُذْ بِهِ وَاسْأَلْهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ نَجَا مَنْ لاَذَ بِاللهِ
وَقُمْ لَهُ وَ اللَّيْلُ فِي جِنْحِهِ فَحَبَّذَا مَنْ قَامَ لِلَّهِ

وقوله أيضا في قصيدة مرهبة تصف النار وأهوالها :[2]

يا أيُّها النَّاسُ خُذوا حِذْرَكُمْ وحَصِّنوا الْجَنَّةَ لِلنَّارِ
فإنَّها من شَرِّ أعْدَائِكُـمْ ما في الْعِدَا أَعْدَى من النَّارِ
وأكْثِروا منْ ذِكْرِ مَوْلاَكُـمُ فَذِكره يُنْجِـي مِنَ النَّـارِ

فهذه الشّواهد الزّهدية من شعر الإلبيري تتوجّه إلى وعظ الآخرين أو إلى وعظ النفس، ومن ثمّ كان اعتمادها صيغ و أسلوب الخطاب للتّأثير القوي في نفوس المخاطبين ،ومن نماذج هذه الصّيغ ، أسلوب النّداء (يا أيها الناس...) وصيغ الأمر والنّهي وهي كثيرة في شعر الإلبيري منها: (انظر، أصح ، خذوا ، حصنوا، أكثروا، قم ،أتل ، لذ...) ، وأسلوب الاستفهام الذي يحمل معاني الإنكار والتّوبيخ أو معنى التّقرير وهو ما يلائم حال المخاطب اللاّهي والغافل، وهو ما يبدو في قول الشاعر: [3]

تَفِرُّ من الْهَجِيرِ وَتَتَّقِيهِ فَهلاَّ عَنْ جَهَنَّمَ قَدْ فَرَرْتَا؟

وقوله أيضا: [4]

سُجِنْتَ بِها وَأَنْتَ لَهَا مُحِبٌّ فَكَيْفَ تُحِبُّ ما فِيه سُجِنْتَا ؟

وفي قوله كذلك: [5]

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.65
(2) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه.91
(3) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه.27
(4) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه.23
(5) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه.21

فَلاَ تَأْمَن سُؤَالَ الله عَنْه بِتَوْبِيخٍ : عَلِمْتَا فَهَلْ عَمِلْتَا؟

هذه بعض النّماذج من الأساليب التي فرضت حضورها في شعر الزهد للإلبيري، والتي سنسندها بهذا الجدول الإحصائي لمجموع الأساليب المُوظَّفة ونسبها.

الأسلوب	النهي	النفي	الأمر	الشرط	الاستفهام
التكرار	17	49	44	32	29
النسبة المئوية	09.94 %	28.65 %	35.37 %	18.71 %	16.95 %

أبرز ما يلاحظ من خلال هذا الجدول أن شعر الإلبيري الزّهدي غلب عليه أسلوبا النّفي والأمر ، ومردّ ذلك كون شعر الزهد يعتمد أسلوب الوعظ والنّصح ، و يحذر من بعض الأفعال التي لا تتفق مع روح الإسلام ويحبّب في أخرى، فكان أسلوب النّفي والأمر الأنسب له في أكثر من قصيدة.

فلجوء الشاعر مثلا إلى توظيف أسلوب النفي بوصفه أحد الخيارات الذي يظهره في شعره ، والذي ظهر في أكثر من موضع،ليعزّز معنى ذكره بنفي آخر، مثال ذلك قوله: (1)

وَلَمْ أَشْرَبْ حُمَيَّا أُمَّ دَفْرٍ وأَنْتَ شَرِبْتَهَا حَتَّى سَكِرْتَا

وَلَمْ أَحْلُلْ بِوادٍ فِيه ظُلْمٌ وَأَنْتَ حَلَلْتَ فِيهِ وَانْهَمَلْتَا

فجاء بأداة النّفي (لم) سابقة للأفعال (أشرب– أحلل) في الشطر الأول ، ليؤدّي معنى يتضاد مع المعنى في الشّطر الثاني .

وفي نمط آخر يوظّف الشاعر أداة النّفي (ليس) في محاولة منه التّأكيد والتّشديد على رفض شيء ما و تركه وانشراحه إلى أمر آخر ، يقول: (2)

وليس يَضرُّكَ الإِقْتَارُ شَيْئًا إذاّ ما أنت رَبَّك قَدْ عَرَفْتَا

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.26

(2) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه.24

والتّكرار كوسيلة من الوسائل اللّغوية ، التي يمكن أن يؤدّي دورا تعبيريا في القصيدة ، كان له حضور لافتا للانتباه في المعجم الشعري للإلبيري ،كتكرار لفظة ما أو عبارة ،ما يوحي بشكل أو بآخر على سيطرة هذا العنصر على فكر الشاعر وشعوره كوظيفة إيحائية

يؤكّد بها إحساسه الذي يتمثّل في شدّة الإشفاق على نفسه لاستشعاره الخطر ، لما يعرفه فيها من تقصير وغفلة ، وما يستشعره من أهوال المصير، حينئذ تكون ظاهرة التّكرار طبيعية لما تعبّر عنه من قوّة العاطفة وتوهّج المشاعر، ويمكن أن نطالع ذلك في هذه المناجاة للشاعر، التي يقول فيها: (1)

يا أيُّها الْمُغْتَرُّ بِاللهِ فَرَّ مِنَ اللهِ إلَى اللهِ
وقُمْ له والليل في جِنْحِهِ فَحَبَّذا منْ قامَ للهِ
وعَفِّر الوَجْه له ساجدًا فَعَزَّ وَجْهٌ ذَلَّ للهِ
وأبعدْ عن الذَّنْبِ ولا تَأْتِه فَبُعْدُهُ قُرْبٌ مِنَ اللهِ

وقوله أيضا: (2)

وَيْلٌ لأهْلِ النَّار في النَّـار ماذا يُقاسون في النَّـارِ

* * *

يَهْوِى بِها الأَشْقَى على رَأْسِهِ فَالْوَيْلُ للأشقى مِنَ النَّارِ
فَتَارَةً يَطْفُو على جَمْـرِهَا وَتَارَةً يَرْسُبُ فِي النَّـارِ

فظاهرة التّكرار في هذين النّصين ليست إلاّ أثرا لما تجيش به النفس من مشاعر الخوف المتوهجة ،والانفعالات القوية، وهو ما يبدو واضحا في اللّفظتين (الله . النار)، فقد كرّر الشاعر لفظتي النار و الله في أكثر من بيت للإيحاء على سلطة الرَّب القادر على الجزاء والعقاب ،وعلى هول النار الجامعة للمعاني المرهبة .

وقد يقع كذلك تكرار الصّيغة الواحدة في عدة أبيات متتالية، كتكرار الشاعر لصيغة الاستفهام (أي) وصيغة (كم) الإخبارية ، في قوله: (3)

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان .65
(2) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه.90-91
(3) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه.92

أيُّ الْتِـذاذٍ بِنَعِيمٍ إذا أدَّى إلى الشَّقْوَةِ في النَّارِ
أمْ أيُّ خَيْرٍ في سُرورٍ إذَا أَعْقَبَ طُولَ الْحَزَنِ في النَّارِ

وفي قوله أيضا : [1]

وكَمْ قَدْ أبْصَرَت عيناك مُزْنًا أَصَابَكَ طَلُّهَا قَبْلَ الْهُمُولِ
وكَمْ عَايَنْتَ خَيْطَ الصُّبْحِ يَجْلُو سَوَادَ اللَّيْلِ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ
فَكَمْ مِمَّنْ مَفَارِقُـهُ ثَغَـامٌ وأَنْجُمهُ على فَلَكِ الأُفُـولِ

وهكذا يقوم التّكرار في أسلوب الشاعر أبي إسحاق الإلبيري ، بوظيفة إيحائية هامة تعبّر عن مدى كلف الشاعر واهتمامه بالمعنى ، مبتعدا عن التّكلف الممقوت والمعاني الملتوية النّاتجة عن التّكرار المعقّد .

ومن أهم ما يتّسم به كذلك المعجم في شعر أبي إسحاق الإلبيري ، الوضوح والسّهولة وتجنّب الغريب ، فالكلمات والتّراكيب فيه واضحة المعنى ، كثيرة الاستعمال، مألوفة لا تكاد تخفى على عامة القرّاء ،وهذا أمر طبيعي في شعر الزهد ، لأنّه يتّجه أساسا إلى الجماهير ، فمن الطّبيعي أن يستمد مادته منها ويضع في مخاطبتها اللّغة القريبة منها ولقلوبها، لأنّه لا يهدف إلاّ إلى الفهم والتّأثير، وقد عبّر عن هذه السّمة واضع الأسس الأولى لشعر الزهد أبو العتاهية في قوله عن الشعر: (ينبغي أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدّمين أو مثل شعر بشار بن برد وأبن هرمة ، فإن لم يكن كذلك فالصّواب لقائله أن تكون ألفاظه مما لا يخفى على جمهور الناس مثل شعري، ولاسيما الأشعار التي في الزهد ، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ،ولا من مذاهب رواة الشعر ولا طلاب الغريب،وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحاب الرياء والعامة وأعجب إليهم ما فهموه.) [2]

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان . 94

(2) أبو فرج الأصفهاني: الأغاني. م 4.تح. إبراهيم الأبياري .دار الشعب .1969. ص1284

لهذا جاء شعر الزهد لأبي إسحاق الإلبيري مطابقا لرأي أبي العتاهية ، فقد كان يشتق أسلوبه فيه من لغة العامة ،مبتعدا فيه عن الغرابة والتّعقيد و العجمة، ودلالة ذلك قوله: (1)

لوْ كُنْتُ في دِيني من الأَبْطَالِ مَا كُنْتُ بِالواني ولا البَطَّالِ
وَلَبِسْتُ مِنْهُ لأُمَـةً فَضْفَاضَةً مَسْرُودَة مِنْ صَالِحِ الأَعْمَالِ
لَكِنَّنِي عَطَّلْتُ أَقْواسَ التُّقَى مِن نَبْلِهَا فَرَمَتْ بِغَيْرِ نِبَالِ

ومن ألوان البديع التي تزيَّن بها شعر الزهد للإلبيري ، نصادف الطّباق والمقابلة بكثافة ، ومردّ ذلك أنّ فكرة الزهد تقوم أساسا على المقابلة بين الرّغبة في الدنيا والرّغبة عنها ،ومن هنا كان هذان اللّونان بما يبرزانه من تضادّ وتقابل ومفارقة ، ملائمين أشدَّ الملاءمة لشعر الزهد ، وكان وجودهما فيه ضرورة تعبيرية وليس مجرد محسِّن بديعي.

فمن المقابلات التي تبرز المفارقة بين المواقف والأفكار قول الشاعر الإلبيري : [2]

واجْتَمَعُوا فِي حُسْنِ تَوْفِيقِهِ وَافْتَرَقُوا فِي كُلِّ سَعْيٍ حَسَنْ

***

فَهُوَ خَفِيفُ الظَّهْرِ لَكِنَّـهُ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِـهِ مِنْ حَضَنْ

***

تَراه كَالأَبْلَـهِ فِي ظَاهِرٍ وَهُوَ مِنْ أَذْكَى النَّاسِ فِيمَا يَظُنْ

وقوله أيضا : [3]

فَإِنْ تُعَاقِبْ فَأَهْلٌ لِلْعِقَابِ وَإِنْ تَغْفِرْ فَعَفْوُكَ مَأْمُولٌ وَمُنْتَظَرْ

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان. 38-39
(2) أبو إسحاق الإلبيري :نفسه. 101-102
(3) أبو إسحاق الإلبيري :نفسه .117

أما الطّباق فيظهر في هذه الشّواهد للشاعر ، في قوله : [1]

تَفْنَى وَتَبْقَى الأَرْضُ بَعْدَكَ مِثْلَمَا يَبْقَى المَنَاخُ وَتَرْحَلُ الرُّكْبَانُ
أَأُسَرُّ فِي الدُّنْيَا بِكُل زِيـَادَةٍ وَزِيَّادَتِي فِيهَا هِي النُّقْصَانُ

وفي قوله كذلك: [2]

فَهَا أنا في عِلْمِي بِهِم وجَهالَتِي كَمُسْتَيْقِظٍ يَرْنُو بِمُقْلَةِ رَاقِدِ !

فالمقابلة والطّباق في شعر الإلبيري ، تجاوزا كونهما لونا بديعيا مهمّته التّزيين، إلى محورين من محاور التّعبير الفنّي في شعره ، وملمحا أساسيا من ملامح معجمه له وظيفته الدّلالية والتّصويرية ، وله قيمته في توضيح المعنى وتدعيمه .

ومن المحسّنات البديعية كذلك التي كان لها حضورا جليا في شعر الزهد للإلبيري ، الجناس الذي أظهر براعة الشاعر وسيطرته على اللغة ،وليس أدل على ذلك من هذه الشّواهد للشاعر والتي نوردها من باب التّمثيل، والتي يقول فيها: [3]

يا طَالِبًا جَاهً بِغَيْرِ التُّقَى جَهِلْتَ مَا يدْنِي من اللهِ
لاَجَاهَ إلاَّ جَاهُ يوم الْقَضَا إذْ ليس حُكْمٌ سِوَى اللهِ

* * *

ليس له حولٌ ولاَ قُوَّةٌ الْحَوْلُ وَالْقُـوَّةُ للهِ

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان .119

(2) أبو إسحاق الإلبيري :نفسه.105

(3) أبو إسحاق الإلبيري :نفسه.65 .67.66

ومَا علَيْها مِنْ حِسابٍ ولاَ تَخْشَى الذي يُخْشَى منَ اللهِ

* * *

إنَّ حِمَـى الله مَنِيعٌ فَمَا يَقْرُبُ شَيْءٌ مِنْ حِمَى اللهِ

وقوله أيضا : [1]

تَنْقَدُّ من غَيْظٍ فَتَغْلِي بِهِمْ كَمِرْجَلٍ يَغْلِي فِي النَّارِ

***

يَهْوِي بِها الأَشْقى على رَأْسِهِ فَالْوَيْلُ لِلأَشْقَى مِن النَّارِ

***

أَنْفَاسُهَا مُطْبَقَةٌ فَوْقَهُمْ وَهَكَذاَ الأَنْفاسُ في النَّارِ

وإجمالا للقول ، فإنَّ الشاعر أبا إسحاق الإلبيري أولى عناية مثيرة للانتباه لآلية اللّغة باعتبارها أهمّ العناصر التي تشكّل هيكل النّص الشعري عامة و الزهدي خاصة ، وهذه العناية أوحت بها مجمل الظواهر اللّغوية التي صادفتنا أثناء رحلتنا التّحليلية لعنصر اللّغة في قصيدة الزهد للإلبيري كالتّلوين الأسلوبي والتّحسين البديعي ، وجزالة اللّفظ وسهولته ووضوح المعنى وسحره وجماله، وقربه من فهم المتلقي ، الذي حرص الشاعر على الوصول إليه بمخاطبته بلغة أكثر ألفة ووقعا على آذانه ، ليفسح المجال للمعنى ويمنحه حرية انسيابية أكبر لتحقيق التّواصل ،وهي غاية حرص عليها أغلب شعراء الزهد فيما نعتقد .

2/1 . الاقتباس :

يعدُّ شعر الزهد في جانبه الأكبر والأهم اتّجاها دينيا ، ما جعل التّأثر فيه قويّا بالقرآن الكريم والحديث الشريف ، الأمر الذي أثَّر بدوره على معجمه ، فكان فيه من

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.90 –

الكلمات والتّراكيب التي تنتمي إلى القرآن والسّنة النّبوية بالقدر الذي يترجم هذا التّأثر،[1] وهو ما سنحاول استبيانه من خلال تلمس مكامن الاقتباس التي انطوت عليها قصيدة الزهد لدى الإلبيري.

أ / الاقتباس الديني (القرآن والحديث):

القرآن الكريم والسّنة النّبوية من مصادر التّراث الدّيني ، وينبوع الفكر الإسلامي ، وقد كانا ومازالا معينا للفصاحة والبلاغة والبيان ، وموردا عذبا يسترفده الشعراء في كل زمان ومكان ، ويفيدون منه لإغناء إبداعاتهم ، وإضفاء الجمال الفني عليها وتعميق تجاربهم الشعرية ، ولم يكونا مقصورين على زمن دون زمن ، آو مكان دون مكان.

والدّارس المتعمّق لشعر الزهد الأندلسي يلحظ بشكل جليّ أنَّ القرآن الكريم كان منهلا أساسيا من المناهل التي عكف عليها الشعراء الأندلسيون ، ورافدا مهمّا في ثقافتهم، لأنّ الشعر الأندلسي (لا ينفصل عن التقاليد الموروثة في الشعر العربي عامة، فهو يجري في الاتّجاه نفسه ويشيع فيه هذا التّيار الذي يصل بين الماضي والحاضر).[2]

فقد استوحى الشاعر الأندلسي أبو إسحاق الإلبيري النّص القرآني بآياته وألفاظه وفواصله ومعانيه وصوره و أحداثه وقصصه . شأنه في ذلك شأن بقية شعراء الأندلس . استيحاء فاعلا يكشف عن أفكاره ورؤاه المختلفة ، وينقل القارئ من جو الواقع المعيش إلى أجواء روحية و تراثية عميقة.

والملاحظة الجديرة بالتّنويه أنَّ الإلبيري . على كثرة الإشارات التي اقتبسها من القرآن الكريم . لم يكن اقتباسه نصيًّا وإنَّما جاء إشاريا، وتفسيره يعزى إلى كراهة الاقتباس التي نصَّ عليها المذهب المالكي إجلالا وتبجيلا للقرآن الكريم .[3]

---

(1) عبد الستار محمد ضيف: شعر الزهد في العصر العباسي.597

(2) محمد شهاب العاني: أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي منذ الفتح حتى سقوط الخلافة.دار الشؤون الثقافية العامة .بغداد. العراق.ط1. 2002.ص14.

(3) منجد مصطفى بهجت : الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي .482.

ومن أمثلة ذلك قوله : [1]

ونادِ إذا سَجَدْت له اعترافاً بما ناداهُ ذو النُّون بن مَتىَّ
ولازِمْ بابَهُ قَرْعًا عَسَاهُ سَيَفْتَحُ بابَهُ لك إن قَرَعْتَا
وأكْثِرْ ذِكْرَه في الأرض دَأْبًا لِتُذْكَرَ في السّماءِ إذا ذَكَرْتَا

فأبو إسحاق الإلبيري يقتبس في البيت الثالث من سورة البقرة في الآية الكريمة **((فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ))**. (2)

وفي عجز البيت الأول يتأثّر بقوله تعالى في سورة الأنبياء **((وَذَا النُّون إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ))**.(3)

وتبرز معاني الآية الكريمة من سورة آل عمران **((وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ))** (4) في قول أبي إسحاق الإلبيري: (5)

إِنِّي لأَشْكُرُهُ عَلَى آلاَئِهِ فَهُوَ الْوَفِيُّ بِعَهْدِهِ لِلشَّاكِرِ

وقد يشتدّ التّأثر حتى يصبح قريبا من ألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه ، شاملا بعض أبيات النّص،كما نجد في رائيّته ، حيث يعرض مشاهد النار ويحذّر منها ، يستوحي فيها ما قدَّمه القرآن الكريم في سورة النساء **((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا))**، (6) يقول الشاعر: (7)

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.25

(2) سورة البقرة : الآية .152

(3) سورة الأنبياء : الآية .87

(4) سورة آل عمران : الآية .144

(5) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه. 82

(6) سورة النساء : الآية .70

(7) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه.91

يَا أَيُّهَا النَّاس خُذُوا حِذْرَكَمْ وَحَصِّنُوا الْجَنَّةَ لِلنَّارِ

ويأتي الحديث النّبوي الشّريف في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم من حيث إشراق العبارة وفصاحة اللّفظ وبلاغة القول ، ولقد أدرك أبو إسحاق الإلبيري أهميّته فنّيا وفكريا ، فراح يستحضر نصوصه و يغرف من معينه ، ويعيد كتابته وفق ما يتماشى مع تجربته الشعرية، ومن شواهد تأثّر معجمه بألفاظ الحديث الشريف قوله: (1)

وَإِنْ أُوتِيتَ فيه طَوِيلَ باعٍ وقال النَّاسُ إِنَّكَ قَدْ سَبِقْتَا
فَلاَ تَأْمَن سؤال الله عنهُ بِتَوْبِيخ : عَلِمْت فهل عَمِلْتَا؟

ففي البيت الثاني يظهر معنى قول الرسول الكريم . صلى الله عليه وسلَّم . ((**لاَ تَزُولُ قَدَمَا ابْنَ آدَم يَوْمَ الْقِيَّامَةِ حَتَّى يُسْأَلْ عَنْ أَرْبَعٍ : عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلاَهُ ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ**)) [2]

وفي معنى قوله . صلى الله عليه وسلَّم . ((**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**)) [3]

يقول أبو إسحاق الإلبيري في ذمّه للدُّنيا والدّعوة إلى الإعراض عنها: [4]

فَلَيْست هذه الدنيا بشيءٍ تَسُووُكَ حِقبة وَتَسُرُّ وَقْتَا
وَغَايَتُها إذا فَكَّرْت فِيها كَفَيْئِكَ أو كَحُلْمِكَ إنْ حلمْتَا
سُجِنْت بها وأنت لها مُحِبٌّ فَكَيْف تُحِبُّ ما فِيهِ سُجِنْتَا

إنَّ اقتباس القرآن الكريم والحديث الشريف في شعر الزهد لدى الإلبيري يتولّد من إعجابه ببلاغتهما وكذلك بشخصية الرسول . صلى الله عليه وسلَّم . وبرسالته الإسلامية السّمحة ،التي اعتقدها وصدّقها وارتضاها لنفسه منهجا حياتيا سار على دربه، وحمل لواء الدّعوة لها وبقيَّمها ، مظهرا بذلك الإخلاص لها وحسن الاعتقاد بها.

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان. 21
(2) الترمذي : الجامع الصحيح سنن الترمذي .ج 4.ص529
(3) الإمام مسلم :صحيح مسلم .باب الزهد. 93
(4) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه. 23

ب / اقتباس التّراث الأدبي العربي:

يمكن لدارس النّص الشّعري الزّهدي للإلبيري، أن يعاين فيه الحضور القوي للنّص الشّعري القديم ، سواء كان هذا الحضور من خلال التّداخل الدلالي ،أومن خلال التّداخل النّصي الشّعري ،والذي ربما تأتّى عن طريق اطلاع الشاعر على نصوص التراث الشعري ، وإعجابه بالعديد من أعلامه ، أبرزهم شاعر الزهد أبو العتاهية .

ومن نماذج التّداخل النّصي الذي يتعالق فيه نص أبي العتاهية مع نص أبي إسحاق الإلبيري ، تلك الوقفات الاعتبارية على الممالك البائدة التي استوقفت الشاعر أبا العتاهية ،في قوله: [1]

مَالَنَا لاَ نَتَفَكَّـرْ أَيْنَ كِسْرَى أَيْنَ قَيْصْر
أيْن من قد جمعَ المَا لَ مع المالَ،فأكثـرْ
أينَ منْ كان يُسَامِي بِغِنَى الدُّنْيَا،وَيَفْخَـرْ

وقول الإلبيري:[2]

أيْنَ المُلوكُ وأين ماجَمَعُوا ومَا ذَخَرُوهُ مِنْ الْمتاعِ الذَّاهِبِ
ومن السَّوابِغ والصَّوارِمِ والقَنَا ومنَ الصَّواهِلِ بُدّن وَشَوازِبِ

وهكذا فإنّ هذه الأبيات تكشف عن المخزون الشّعري التّراثي للإلبيري،وتعلن عن تداخل نصي واضح مع نص أبي العتاهية ،الذي نعدّه المنارة التي اهتدى بها الإلبيري إلى سبيل الزهد ،ودلالة ذلك تداخل أكثر من شاهد ،منها قول الإلبيري في التّذكير بالموت:[3]

تُغَازِلُنِي الْمَنِيَّةُ منْ قَرِيبٍ وَتَلْحَظُنِي مُلاَحَظَةَ الرَّقِيبِ

---

(1) أبو العتاهية :الديوان . 164
(2) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان .115
(3) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه.31

وفيه تداخل نصي مع قول أبي العتاهية في هذا البيت ،والذي يقول فيه : [1]

أَتَتْهُ الْمَنِيَّةُ مُغْتالةً رُوَيْدًا ، تَخْتِل مِنْ سِتْرِهِ

وفي تداخل نصي آخر للإلبيري مع نص لأبي العتاهية في وصف الشّيب ، والذي ينذر بانصرام العمر على غفلة، يقول أبو العتاهية : [2]

نَعَى لكَ شَرْخَ الشّباب المشيب ونَادَتْكَ بِاسْمِ سِواكَ الْخُطُوبُ

أما الإلبيري فيقول : [3]

الشَّيْبُ نَبَّهَ ذَا النُّهَى فَتَنَبَّهَا وَنَهَى الْجَهُولَ فَمَا اسْتَفَاقَ وَلاَ انْتَهَى

إنَّ البيتين يلتقيان في الدلالة الشعرية، فوصف الشّيب كنذير بالفناء عند أبي العتاهية، هو الوصف ذاته عند الإلبيري، فالنص الحاضر انفتح على النص الغائب فكان التّلاقي والتّداخل النصي.

وخلاصة القول ،إنَّ الإلبيري شاعر زاهد أحسن توظيف لغته وطوّعها لغايته الإصلاحية ،فجاءت كلسان صدق ،و أبلغ في التّوصيل والتّأثير على المتلقي ،وزاد من بلاغتها إتّكاؤها على أهمّ مصادر الفصاحة والبلاغة وهم: القرآن والحديث والتراث العربي ، فجاءت لغته مميّزة في بلاغة تعبيرها و بساطة لفظها وألفته،ما أكسبها مسحة جمالية لافتة .

(1) أبو العتاهية : الديوان. 170

(2) أبو العتاهية : نفسه.45

(3) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان. 47

2 / الصورة الفنية :

الصورة الفنية نسيج لغوي محكم الحياكة للتّعبير عن فكر الشاعر وإحساسه، وإيصاله إلى المتلقي في تشكيل فني بوساطة اللغة، وقد ميّز النّقاد بين أنواع متعدّدة من الصورة الفنية منهم علي البطل الذي قال: ((يتميّز في تاريخ تطور مصطلح الصورة الفنية مفهومان: قديم يقف عند حدود الصورة البلاغية في التّشبيه والمجاز ،وحديث يضم إلى الصورة البلاغية نوعين آخرين هما: الصورة الذّهنية والصورة باعتبارها رمزا)) .[1]

ولهذا العنصر. الصورة الفنية . في النقد الحديث أهمية بالغة ، حتى يصل إلى اعتباره وحدة التّشكيل الأدبي، ومحور موضوعيته ، ومصدر كل ما فيه من طاقات الإيحاء والإقناع فكرا وشعورا ووجدانا. [2]

والتّصوير الجيّد رهن بصدق العاطفة وقوتها،و قوّة الشاعرية من ناحية أخرى[3] حتى إنّه ليقال : (إنَّ التّعبير بالصورة يتمّ في تناسب طردي مع توهج المشاعر والاستغراق العاطفي ، بحيث يميل المبدع إلى اتخاذ ذلك التصوير قناعا يستتر به كلما غلبه انفعاله). [4]

والأدب في جوهره فكر وعاطفة ، ولا يستغني أحدهما عن الآخر ،إذ إنّهما الطرفان الأساسيان في معادلة الأدب ، والأديب البارع هو الذي يتعامل مع الطرفين تعاملا متوازنا منسجما يشترط الإتلاف بين لون الفكرة وطبيعة الثوب الجمالي أو التّشكيل الفنّي الذي يعبّر به الأديب عن فكرته ،فلكل فكرة ما يناسبها من التّصوير الفني.[5]

---

(1) علي البطل: الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري – دراسة في أصولها وتطورها –دار الأندلس. بيروت.لبنان.ط 2 .1981.ص15.

(2) محمد فتوح أحمد : واقع القصيدة العربية .دار المعارف . القاهرة .مصر.ط1 . 1984 . ص23

(3) عبد الستار محمد ضيف : شعر الزهد في العصر العباسي.559

(4) محمد فتوح أحمد : شعر المتنبي قراءة أخرى. دار المعارف .القاهرة. مصر. 1983. ص 23.

(5) سالم عبد الرزاق سليمان المصري: شعر التصوف في الأندلس. 241

وتِؤدّي الصورة دورا بالغ الأهمية بين عناصر الأداء الفني ، فالقصيدة تعدّ صورة شعرية مركّبة من مجموعة من الصور الشعرية الأخرى ، فهي ليست حلى زائفة بل إنّها جوهر

فن الشعر ،وهي التي تحرّر الطاقة الشعرية الكامنة في العالم والتي يحتفظ بها النثر أسيرة لديه ،[1] والشاعر المبدع هو من تتضافر لديه الصورة الجزئية في القصيدة وتتآلف فيما بينها لتكوين الصورة الكلية ، التي هي التجربة الشعرية. [2]

ويرى أحمد الشايب أنّ الصورة محتاجة إلى باعث يثيرها ، والوسيلة في ذلك هي الخيال ، فهو أساس الصورة الأدبية مهما تكن درجته الفنية ، كما أنّه يحمل العواطف المترجمة على إحساس الفنان ،ووجد بعدئذ أن تكون لغة العاطفة جزلة مألوفة بعيدة عن المصطلحات العلمية والكلمات الغريبة ، وعلى هذا تعتمد الصورة الأدبية في تكوينها على أساسين مهمّين أولهما الخيال ، وثانيهما العبارة أو نظام التَّأليف اللّغوي،[3]وهذا ما يفسّر ما نلحظه من تفاوت في جانب التصوير عند بعض الشعراء . شعراء الزهد . فقد يضعف حتى يصبح الشعر سردا مباشرا ونظما يفتقد حرارة العاطفة ، وقد يقوى حتّى يحلّق في فضاء الخيال ويرسم اللّوحات الفنية الجيّدة .[4]

وإذا تجاوزنا هذه الآراء المختلفة حول مفهوم الصورة الفنية ، ونظرنا إلى شعر الزهد عند الإلبيري وجدنا أنَّ صدق العاطفة وقوّتها وجزالة اللّفظ من أهم سماتها ،ذلك أنَّ تجربة الزهد تجربة ذاتية تنفعل بها نفس الشاعر الزاهد انفعالا له من الصّدق والقوة ما يجعله قادرا على أن يحيد بنفسه عما طبعت عليه من حب للّذة العاجلة على اللّذة الآجلة بالتّقشف والحرمان ، لذلك نجد أنَّ شعر الزهد عند الإلبيري قد توفرت له الدّعامة الأولى لجودة التصوير ، وهي الصدق في العاطفة ،لكنّه بالرغم من ذلك لم يتحرّر من أسر الصورة التّقليدية التي طبعت معظم شعره ، فقد أسهب في استخدام الصورة التشبيهية باعتبارها أحد الأنماط التي درس من خلالها الشعر ، بالإضافة إلى الصورة الاستعارية والكنائية والمجازية المرسلة ،وهو ما ذهب إليه عبد العزيز عتيق ———

(1) صلاح فضل : نظرية البنائية في النقد الأدبي.مكتبة الانجلو مصرية. ط2 . 1980 .ص356

(2) سالم عبد الرزاق سليمان المصري : شعر التصوف في الأندلس. 242

(3) أحمد الشايب : أصول النقد الأدبي . مكتبة النهضة المصرية. القاهرة.مصر . ط1. 1999.ص243

(4) عبد الستار محمد ضيف : شعر الزهد في العصر العباسي.560

في كتابه . تاريخ الأدب العربي . في قوله: ((من سمات الشعر الأندلسي العامة غلبة الوصف الشعري والخيال عليه ، والميل في طرائق التّعبير إلى الأساليب البيانية من تشبيه واستعارة وكناية))[1] وهو ما ألزمنا في دراسة هذا العنصر بالوقوف عند هذه

الأنماط البلاغية مفردة بغية تلمّس جمالياتها الفنية ، ومدى استنفاذ الشاعر لطاقاتها التّصويرية.

1/2 الصورة التّشبيهية :

يسعى الشاعر دائما في بناء صوره الشعرية ،إلى إيجاد نوع من العلاقة بين الفن والواقع، ومن أجل ذلك يتوسّل بالتشبيه لخلق هذه العلاقة ، [2]والتشبيه هو أن تثبت لهذا معنى من معاني ذلك ، أو حكما من أحكامه، كإثباتك للرجل شجاعة الأسد ،وللحجّة حكم النّور في أنّك تفصل بها بين الحق والباطل ،كما يفصل النور بين الأشياء .[3]

والتشبيه بهذا المعنى : علاقة تقوم على المقارنة بين شيئين ، لاتحادهما في الصفة ، وهذه العلاقة قد تستند إلى مشابهة حسية ، وقد تستند إلى مشابهة في الحكم أو المقتضى الذهني الذي يربط بين الطرفين المتقارنين دون أن يكون من الضروري أن يشترك الطرفان في الهيئة المادة أو في كثير من الصّفات الحسّية.[4]

على أنّ طرافة التّشبيه وقوّته لا يتحققان إلاّ إذا كان قائما على الجمع بين صفات متباعدة، ذلك لأنّ حسن التّشبيه أن يقرّب بين البعيدين ، حتى تصير بينهما مناسبة واشتراك [5]، وتبدو فعالية الصورة التّشبيهية في قدرة الشاعر على إعادة خلق وتشكيل العلاقات بين الأشياء من حوله في طابع جمالي يكشف الجوانب الخفية لهذه الأشياء، وذلك بتوظيف التشبيه الغريب والنادر الذي يعد الأفضل والأكثر إبداعا في التصوير، عكس الصورة المألوف التي كثر دورانها وأدركتها الحواس في كل وقت،

---

(1) عبد العزيز عتيق : الأدب العربي في الأندلس.دار النهضة العربية . بيروت . لبنان.ص168

(2) علي الغريب محمد الشناوي:الصورة الشعرية عند الأعمى التطيلي.مكتبة الآداب.جامعة المنصورة. مصر. ط1 . 2003. ص 158.

(3) عبد القاهر الجرجاني.أسرار البلاغة.تح.هـ .ريتر.دار المسيرة .بيروت.لبنان. ط3. 1983. ص 78-79

(4) جابر عصفور.الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب. دار المعارف.القاهرة.مصر. ص188 .

(5) ابن رشيق :العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده. تح.محي الدين عبد الحميد .ط4. 1972.ص 289.

فهي صورة مبتذلة على رأي عبد القاهر الجرجاني الذي قال :((إنّ كل تشبيه رجع إلى وصف أو صورة أو هيئة من شأنها أن ترى وتبصر أبدا ، فالتشبيه المعقود عليه نازل

ومبتذل ، وما كان بالضّد من هذا ، وفي الغاية القصوى من مخالفته، فالتشبيه المردود إليه غريب نادر بديع)) .[1]

وإذا ما أمعنا النّظر في شعر أبي إسحاق الإلبيري وجدناه يسخّر خياله في بناء صوره التشبيهية ، وذلك لإدراك ما خفي من العلاقات بين الأشياء ، دون أن يكون بمعزل عن عاطفته وشعوره، بل كان ثمّة مزج بين العاطفة والشعور والحس في دقة فائقة ، وبالتّالي أتت ألوان صورته التشبيهية مؤلّفة بين شعره وشعوره ، وتنوّعت ما بين تشبيهات حسّية ومعنوية، مفردة ومركبة ،وحاك بعض تشبيهاته من الوقع الذي يحيط به ، واستلهم البعض الآخر من التراث .

وحتى يتجلى لنا نوع الصورة ومستواها وعناصرها، ومدى اتساع دائرة تصويرها لموضوع ما من موضوعات الزهد في شعر الإلبيري ، يمكن تأمّل تلك الصور التي صوّر بها الدنيا وما طبعت عليه من غدر وشراسة ،كقوله: [2]

فَكَأَنَّهُمْ مثل الذُّبَابِ تَسَاقَطَتْ فِي الأَرِي حَتَّى اسْتُؤْصِلُوا بِهلاَكِ

لاَ كُنت مِنْ أُمٍّ لَنا أَكَّالَةٍ بَعْد الْوِلاَدَةِ ، مَا أَقَلَّ حَيَاكِ !

وهي صورة تقوم على التّشبيه ، فصوّر تهافت المقبلين على الدنيا ومتاعها ، كذباب يتساقط في العسل دون وعي أو إدراك للعاقبة ، كما صوّر الدنيا كحيوان مفترس غادر، لا يؤمن أذاها حتى من أقرب الناس إليها وهم أولادها ، فحرى بأهلها ألاّ ينخدعوا بحلو عارض، وأن يظلّوا على حذر منها ، وهي كما نرى صورة جيّدة تقدّم المعنى في صورة حسية تنبض بالحياة ، وتزخر بالحركة ، وقد جاءت الصياغة مؤكّدة للصورة ومقوّية لها في دلالتها الفكرية والشعورية ، كما نلحظ في تصديرها أداة التشبيه(الكاف) بما توحي به من أهمية ما يأتي بعدها من مشبه (هم) ومشبه به

---

(1) عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة.151

(2) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان.35

(الذّباب) ووجه الشّبه (تساقطت) ، وبذلك نجحت الصورة في أداء وظيفتها التعبيرية، حيث كشفت عن مكنون في نفس الشاعر و قدّمت إلينا إحساسه اتّجاه الدنيا وأهلها.

ومن الصور كذلك التي تقارب هذا المعنى ، وتعبّر عن هوان قدر الدنيا عند الشاعر، مانجده في قوله : [1]

فَلَيْسَتْ هَذه الدُّنْيا بِشَيْءٍ تَسُوؤُكَ حِقْبَةً وَتسرُّ وَقْتَا
وَغَايَتُهَا إِذا فَكَّرْتَ فِيهَا كَفَيْئِكَ أَوْ كَحُلْمِكَ إِنْ حَلَمْتَا

فقد صوّر الدنيا في الشّطر الثاني من البيت الثاني كحلم عابر ، وهي صورة جزئية اعتمدت على التشبيه في تصوير إحساس الشاعر المبغض للدنيا ، كما أعطت لها وصفا دقيقا من خلال الربط بين الحلم والدنيا بسرعة الزوال ، وهي بذلك لا تستحق منّا أدنى اهتمام.

ويسعى الشاعر في بناء صوره الشعرية ، إلى إيجاد نوع من العلاقة بين الفن والواقع، ومن أجل ذلك يتوسّل بالتشبيه لخلق هذه العلاقة ، والتشبيه هنا يقوم على المقارنة بين شيئين (الدنيا والحلم) لاتحادهما في صفة سرعة الزوال والفناء.

فالصورة التّشبيهية هي تعامل مع الواقع المحسوس بأبعاده كما عرّفها فايز الداية، ومع الجوانب التّجريدية الفكرية ، ومع أعماق الإحساس النّفسي الدّاخلي، وهي تتوزّع بحسب المواقف الانفعالية ، وليست هناك نقطة محورية ثابتة للمحسوس أو المجرّد النفسي ، بل يملي اتخاذ هذا أو ذاك منطلقا السّياق و تجربة الفنان المعبّر عنها، أمّا عن تركيبها اللّغوي وبنائها الأساسي ، فإنّها تقوم على جزأين يذكران صراحة أو تأويلا، اصطلح النّقاد على تسميّتهما مشبّه ومشبّه به. [2]

وإذا نظرنا إلى هذه الصورة التي عبّر فيها الشاعر عن موقفه وإحساسه اتّجاه الدّنيا، وهي إحدى محاور الزهد ، رأينا كيف تتعدّد الصّور وتتنوّع للتّعبير عن

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.23

(2) فايز الداية : جماليات الأسلوب .الصورة الفنية في الأدب العربي.دار الفكر. دمشق .سورية .ودار الفكر المعاصر .بيروت.لبنان. ط2. 1996.ص72

الفكرة الواحدة، الأمر الذي ينطق بثراء مخيّلة الشاعر ، واتّساع دائرته التّصويرية، ويمكن أن نرى مزيدا منها ، وحسبنا أن نشير إلى أن مخيّلة الشاعر نسجت للدّنيا و أهلها العديد من الصّور المتنوّعة، منها السّراب الخادع ، والدّاء الكامن بين الضّلوع، في قوله. (1)

أَنْتِ السَّرابُ وَأَنْتِ دَاءٌ كَامِنٌ بيْنَ الضّلُوعِ فَمَا أَعَزَّ دَوَاكِ

إلى غير ذلك من الصّور التي تفتّقت عنها قريحته ،فصوّر بها إحساسه اتّجاه الدّنيا .

وما يثير الانتباه ويستحقّ التّذكير أنّ الشاعر يكثر من استخدام أداة التشبيه (الكاف و مِثْل) في بعض الحالات ، وحذف الأداة أحيانا ليحقّق لصورته قدرا أعلى من البلاغة .

فأمّا التّشبيه بالكاف فقد وظّفه الشاعر أبو إسحاق الإلبيري بشكل لافت ، وهو ما يظهر في هذا الشّاهد الشّعري للشاعر ، في قوله: (2)

كَانَت وُجُوهُهُمْ كَأَقْمارِ الدُّجَا فَغَدَتْ مُسَجَّاةً بِثَوْبِ دُجَاكِ

فقد عقد الشاعر علاقة مشابهة بين الوجوه والأقمار ، في رسمه لصورة ذات وجهين لوجوه أهل الدنيا ، صورة تصور الماضي المشرق كأقمار الدُّجَا الذي عبّر عنه الفعل الماضي النّاقص (كان) ،و صورة تعكس الحاضر المظلم الحالك ، وعقد صورته من خلال تشبيه حسي قامت أداة التّشبيه فيه بدور الرّابط بين طرفي التشبيه.

ومن الصّور التشبيهية كذلك التي وظّفت أداة التشبيه (الكاف) قول الشاعر في وصف النّار: (3)

لَوْ جِبَالُ الأَرْضِ تَهْوي بِها ذَابَتْ كَذَوْبِ الْقَطْرِ فِي النَّارِ

فقد شبّه الشاعر حالة ذوبان الجبال في جهنّم بذوبان النّحاس في النار، وقد أدّت هذه الصّورة هنا وظيفة فنية ، تتمثّل في تقريب صورة النّار من خلال الرّبط بين صورتين، صورة غيبية تتمثّل في صورة الجبال إذا ألقت في نار جهنّم ، وصورة واقعية ، تتمثّل

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.35

(2) أبو إسحاق الإلبيري :نفسه.36

(3) أبو إسحاق الإلبيري :نفسه.91

في صورة النّحاس إذا وضع في النّار.

ما يلاحظ على الشاعر أبي إسحاق الإلبيري اعتماده على العناصر الحسية في بناء صوره التّشبيهية ، وكأنّ الشاعر في اعتماده هذه الصّور ، يعطي الانطباع بأنّه يحرص على تقريب المعنى للمتلقي الذي يوليه عناية كبيرة . وهي من سمات شعر الزهد الذي يخاطب عامة الناس . من خلال اتكاءه على الألفاظ البسيطة وتوظيف العناصر الحسية ، وكأنّه ينظر إلى المتلقي على أنه ساذج وقاصر الفهم.

كما نجد الصورة التّشبيهية عند الإلبيري تستلهم عناصر الطبيعة ، مثل تلك الصورة التي شبّه فيها ذنوبه بنجوم السماء ، ومردّ علّة هذه المشابهة إلى كثرة ذنوبه التي لا يضاهيها عددا إلاّ عدد النّجوم ، فيقول : (1)

أيُّ خَطِيئَاتِي أَبْكِي دَمَا وَهِي كَثِيرَةٌ كَنُجُومِ السَّمَا

وفي صورة تشبيهية أخرى تظهر عناصر الطبيعة كأهمّ عناصر تشكيل الصورة الفنية عند الإلبيري، بشكل يوحي بأنّ الشاعر ينظر إلى الطبيعة بعين المتأمّل المدقّق في تشكيلها ، المأخوذ بسحر جمالها ،لذلك يسعى في تشكيل صوره إلى استحضار هذه العناصر الطبيعية المنتقاة إراديا من قبله ، وتوظيفها كمادة أساسية في بناء صوره الفنية ، كقوله في وصف صاحب العلم : (2)

كَأَنَّمَا الأَرْضُ لَهُ أَيْكَةٌ وَهو بِهَا قَمَرِيَّةٌ فِي فَنَنْ

في هذه الصّورة يزاوج الشاعر بين القيّم الاجتماعية للعالم الفاضل، وبين القيمة الجمالية للعناصر الطبيعية المتمثّلة في الأرض والقمرية ، وهي صورة تبرز جلالة قدر العلم والعلماء عند الشاعر.

ومن دقيق صوره التّشبيهية في شعره ، هذه الصورة البسيطة التي يقول فيها: (3)

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.71

(2) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه.102

(3) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه.71

تَطَلَّبْت إِخْوانَ الصَّفَا فَوَجَدْتُهُمْ زُيُوفًا كَأَعْمَالِي وَمَنْ لِي بِإِبْرِيزِ؟ !

هذه الصورة البيانية البسيطة تتمثّل في التشبيه المفرد العادي بأركانه الأربعة : المشبّه " إخوان الصفا" والمشبّه به "أعمالي " والأداة " الكاف" ووجه الشّبه " زيوفا"، فالشاعر أراد هنا أن يرسم صورة حية وصادقة لمبلغ زيف مشاعر أصدقائه، الذين يظهرون له مشاعر الودّ والإخلاص وهم على خلاف ذلك ،فقد شبّه صفتهم هذه بزيف أعماله اتّجاه ربّه ، وهي صورة تعكس مدى التّأزم النّفسي الذي يكابده الشاعر ، وعدم الرضى الذّاتي على أفعاله ،فهو يرى أنّ كل عمل وكل طاعة لله إذا قيست بنعم الله عليه حقيرة وزائفة ، وهذا دأب الزّهاد النّقاة الذين يحقّرون أعمالهم مهما عظمت.

ويستوقفنا التّشبيه التمثيلي كذلك عند الشاعر في أكثر من شاهد، ونعتقد أن الشاعر استعان به لسعته في رسم الصورة ،لأن هذا اللون من التشبيه فيه براعة ومقدرة على التشكيل الجمالي للصورة لأنك تجده مكونا من أجزاء متعددة في طرفيه ،مما يحقق للمتلقي المتعة والإشباع. [1]

ومن صور هذا اللّون من التّشبيه عند الإلبيري ، قوله في وصف العالم العابد الزّاهد.[2]

قَدْ جَعَلَ البَيْتَ كَقَبْرٍ لَهُ وَبُرْدهُ فِيهِ لَهُ كَالْكَفَنْ

فالشاعر هنا يرسم صورة حسّية لموصوفه،فاعتكاف الزاهد في البيت وحيدا، هي صورة أقرب ما تكون في الشّبه للقبر ، فالوحدة والوحشة قاسمهما المشترك ، والبردة تقاسم الكفن في ارتباطها بالجسد، وجمال التشبيه هنا ، يكمن في كون الشاعر يجعلك تعمل العقل في إدراك العلاقة الخفية بين البيت والقبر ، وبين البردة والكفن.

ومن الصور التشبيهية الطريفة التي تقوم على التمثيل كذلك ، تلك الصورة التي يشبّه فيها حاله مذنبا . لولا رجاء عفو ربه . كالسّاعي إلى إرواء عطشه من لمع

---

(1) علي الغريب محمد الشناوي:الصورة الشعرية عند الأعمى التطيلي.172

(2) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.101

السّراب ، فيقول : [1]

لَوْلاَ رَجَاءُ الْعَفْوِ كُنْتُ كَنَاقِعٍ بَرْحَ الْغَلِيلِ بِرَشْفِ لَمْعِ الآلِ

وقد نعثر كذلك على صور تشبيهية فيها معنى المشابهة والتّمثيل مثل قول الشاعر :[2]

إنَّ الذُّنُوبَ بِتَوْبَةٍ تُمْحَى كَمَا يَمْحُو سُجُودَ السَّهْوِ غَفْلَةَ مَنْ سَهَا

فالشاعر يصوّر المعنوي بالمعنوي ، فيثني على التّوبة ويحبّب فيها ، فهي مطهرة للنفوس ، ومقوِّمة لكلّ اعوجاج في السّلوك، كما يقوِّم سجود السّهو صلاة كل من سها .

بالإضافة إلى التّشبيه التّمثيلي ، تصادفنا أنواع عديدة من التّشبيه ، كالتّشبيه البليغ . على قلّته . الذي هو عبارة عن تشبيه حذفت أداته ووجه الشّبه ، وهو ما يظهر في قول الشاعر مخاطبا الكون ،و الذي صوّره كبستان عقول ، لا تتجلّى بدائعه إلاّ لعين قلب المؤمن العاقل المتأمّل في ملكوته: [3]

يَالَكَ بُسْتَانَ عقُولٍ بَدَا لِعَيْنِ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ الْعَاقِلِ

ومن التّشبيه البليغ كذلك ما نجده في قول الإلبيري ، الذي يعرض بالدنيا لغدرها بأهلها، بعدما اطمأنّوا لها ووثقوا بها ، خاصة بعدما استقام لهم الحال وملكوا من الثّروات ما لا تحصى واعتلوا أعلى المراتب فيها ، فجاء الموت على غفلة منهم وهدَّ سلطانهم وبدّد مالهم وامساهم ذكرى تلوكها الألسن ، فيقول : [4]

كَانُوا لُيُوثَ خَفِيَّة لكنَّهُمْ سَكَنُوا غِيَاضَ[5] أَسِنَّةٍ و قَواضِبِ

فيوظّف الشاعر الصورة البيانية البسيطة في شعره،معتمدا على التّشبيه البليغ وكأنّه

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.39

(2) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه.49

(3) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه.35

(4) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه.115

(5) غياض : الغياض .ج. غيضة.وهي الشجر الملتف.أنظر ابن منظور: لسان العرب.ج2. ص 1036

يرى أنّ جزأي الصورة (المشبه والمشبه به) أكثر تآلفا واقترابا، مما يجعلهما يكوّنان صورة واحدة منسجمة ، فقد اعتمد الشاعر في هذا البيت على الصورة البسيطة بشكل أساسي لتشخيص صفات الملوك وتوضيحها ، كتجسيد الشّجاعة والقوّة والبطش،

وهذه الصورة هي " كانوا ليوث خفية"، وهي عبارة وظّفت التّشبيه البليغ المعتمد على التّصوير الحسّي الذي ينمّ عن المبالغة وتعظيم المشبّه.

كما وظّف الإلبيري الصورة البيانية التي تعتمد على التّشبيه البليغ المقلوب من حيث الدلالة ، في قوله: [1]

رَحَى الْمَوْتِ تَسْتَدِيرُ عَلَيْنَا أَبَدًا تَطْحَنُ الْجَمِيعَ وَتَهْشِمْ

والصورة البيانية البسيطة هي قوله(رحى الموت)، وهي تعتمد التّشبيه البليغ المقلوب لأنّ أصل التّشبيه (الموت رحى) ، فربط في صورته بين المعنوي (الموت) والحسّي (الرحى) حتى يعطي للعقل والخيال فسحة من العمل لتشكيل الصورة.

وزبدة القول هو أنّ كل ما استعرضناه يكشف عن طبيعة التّشبيه وسر اهتمام الشاعر به، وتوظيفه في أكثر من موضع وبأنواعه المختلفة ،أعطى لصوره بعدا تصويريا في بعض الأحيان خاصة التي اعتمدت التّشبيهات الجامعة بين الأشياء المتباعدة ، فتركت للمتلقي فرصة لإعمال الفكر والخيال من أجل تشكيل الصورة البيانية المبتغاة من خلال الرّبط بين التّراكيب المختلفة ، وبهذا الفهم يكون التّشبيه عملا خلاّقا ، إذ إنّه يصبح محصّلة خبرة جديدة انتهى إليها الشاعر وتمكّن من إدراك التّشابه بين المجهول والمعروف ، الأمر الذي لا يتيسّر لعامة النّاس ، مما نعدّها نوعا من البهر ، أو مظهرا لبراعة عقلية لدى الشاعر .

هذا الانجذاب من لدن الشاعر للتّشبيه يجعلنا نطرح الإشكال التّالي ، هل حظيت الصورة الاستعارية بنصيب من الاهتمام مثلما حظيت به الصورة التشبيهية؟

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري :الديوان.51

2/2 الصورة الاستعارية:

يُعتقد أنَّ أوّل من ذكر مصطلح الاستعارة من علماء الأدب العربي: الجاحظ[1] الذي قال في تعريفها: ((بأنّها تسمية الشّيء باسم غيره ، إذا قام مقامه)). [2]

وإذا ما وصلنا إلى القرن الرابع ، وجدنا أبا هلال العسكري يعرّفها ويحدّد وظيفتها بقوله:((الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللّغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إمّا أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه،أو تأكيده والمبالغة فيه،أو الإشارة إليه بالقليل من اللّفظ ،أو بحسن المعرض الذي يبرز فيه))[3].

أمّا في العصر الحديث فقد عدّها علي الغريب محمد الشناوي ، مظهرا راقيا من مظاهر الفعالية الخلاّقة للّغة ، كما أنّها ليست مظهرا من مظاهر الزّينة والصّنعة ، ولكنّها جزء أساس من العملية الشعرية ،ووسيلة ضرورية من وسائل التّشكيل الجمالي في العمل الفني.[4]

أما فايز الداية في كتابه (جماليات الأسلوب الصورة الفنية في العمل الأدبي) يلامس رأيه رأي علي الغريب في إضفاء الصّبغة الجمالية للاستعارة في العمل الفني، لكن فايز الداية تعدى ذلك من خلال إعطائه إيّاها بعدا نفسيا، باعتبارها الأقدر على نقل الحالة الشعورية التي يحياها الأديب ، وهذا يتطلب خلق تصورات غير مألوفة في سياق القصيدة أو العمل النثري، فيقول:((هناك محوران رئيسيان يأتلفان في تشكيل الاستعارة الأول منهما: الأفق النّفسي وحيوية التّجربة الشعورية، والآخر: الحركة اللّغوية الدّلالية بتفاعل السّياق وتركيب الجملة)) [5]

---

(1) علي الغريب محمد الشناوي:الصورة الشعرية عند الأعمى التطيلي.176

(2) الجاحظ: البيان و التبيين . ج1. تح.عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي . ط1. 1975 .ص 153

(3) أبو هلال العسكري: الصناعتين .تح .علي البجاوي ومحمد أبو الفضل .طبعة عيسى الحلبي.القاهرة . مصر. 1952 . ص268.

(4) علي الغريب محمد الشناوي:الصورة الشعرية عند الأعمى التطيلي.177

(5) فايز الداية : جماليات الأسلوب .الصورة الفنية في الأدب العربي. ص 114

إنّ التّجارب الشعورية نصيب مشترك بين البشر، إذ هي قسمات من حياتهم في تفاعلها الذّاتي في النفس، وفي اتصالها بالآخرين وانعكاس ما يجري بينهم عليها،والشاعر واحد من هؤولاء فيما يصادف ويعايش من مواقف تتلوّن بألوان عدّة، فتظهر براعته وقدرته على التّغيير عن تلك التجارب بالشّكل الذي تظل فيه متماسكة ومفعمة بالحيوية ، مما يحرّك نفوس المتلقّين ويوقظ انفعالاتهم وحسّهم الجمالي للكون

والحياة ، ولا نحسب الشاعر الإلبيري بعيدا عن هذا الوصف، فوقوفنا على شعره يبصرنا بعوالمه الانفعالية ورؤيته الجمالية التي التقت بين مكونات تصويرية كانت الاستعارة إحدى آلياتها في تشكيل التجربة الشعورية.

فإذا نظرنا إلى الصورة الاستعارية في شعر الإلبيري لوجدناها تنوعت بين صور جزئية ولوحات كبرى ، فقد توسل الشاعر في تشكيل صوره الاستعارية بالتّشخيص والتّجسيم ، كما تنوعت مصادره في تشكيل هذه الصور ، مابين صور تشكلت من مجال الحياة الإنسانية وأخرى من موروثه الثقافي . الديني خاصة . ومن مجال الطبيعة بجانبيها الحي والميت.

فمن الصور الاستعارية الجزئية التي زخر بها شعره قوله: (1)

وَلَبِسْتُ مِنْه لأُمَةً فَضْفاضَةً مَسْرُودَة مِن صَالحِ الأَعْمَالِ
لَكِنَّني عَطَّلْتُ أَقْوَاسَ التُّقَى مِنْ نَبْلِهَا فَرَمَتْ مِنْ غَيْرِ نِبَالِ

فقد جعل الشاعر للتّقى أقواسا ونبالا ، عطّل رميها بسوء أعماله ،فرمت بغير نبال ولا يخفى ما في هذا التّجسيم البيّن في هذه الصور من إبراز للمعنى وتقويته ، فيحصل بذلك الفهم عند المتلقي .

وفي إحدى صوره الاستعارية التي تحمل معاني الإنابة إلى الله والتوبة والتّضرع والخضوع لله تعالى، يقول الشاعر: (2)

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان.38

(2) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه.43

فَأَسْأَلُهُ وَأَلُ ْطِفُه عَسَاهُ سَيَأْسُو مَا بِدِينِي مِنْ جِرَاحٍ

فالشاعر في هذا البيت يتوجه بخطابه إلى الله تعالى معبرا عن موقف انفعالي انتابه، فشخّص في صورة استعارية الدِّين ككائن حي مُثخن بالجراح .

كما تكثر عند الشاعر الصور التّشخيصية، والتي تبرهن على مقدرة فنية رفيعة،

كتشخيصه للدّنيا في صورة شخص بغيض مقيت ، في تصوير يوحي بحقارة الدنيا عند الشاعر ، فيقول: (1)

فَأَبْصقُ فِي مُحَيَّا أُمِ دَفْرٍ وَأَهْجُرُهَا وَادْفَعُهَا بِرَاحِي

فالشاعر يخلع على الدنيا صفات إنسانية ، فيشكّل صورة بيانية بسيطة تعتمد على استعارة حذف أحد أطرافها وهو المشبه به الذي يتمثل في (المرأة الساقطة) وبقي المشبه وهو الدنيا . أدفعها براحي . اكتفاء به لأنّهما واحد، وهي صورة جمالية تهدف إلى تشخيص الصّفات لتقوية المعنى الحقيقي للصورة.

ومن الصور البيانية البسيطة التي تعتمد على الاستعارة التّشخيصية كذلك قول الشاعر: (2)

وَقَدْ نَشَرَ الزَّمَانُ لِوَاءَ شَيْبِي لِيَطْوِيَنِي وَيَسْلبَنِي وِشَاحِي

والصورة البسيطة في هذا البيت تتمثّل في استعارة أفعال هي من خصائص الإنسان كالنّشر والطّي والسّلب ثم إسنادها لشيء معنوي (الزمان) ، فقوله: (نشر الزمان لواء شيبي) صورة بيانية بسيطة تعتمد على الاستعارة ،فالزمان كالإنسان ينشر، ويطوي ويسلب.

مثل هذه الصور التّشخيصية التي تعتمد على الاستعارة تتكرّر في شعر الإلبيري، كهذه الصورة التي تستعير أفعال خاصة بالإنسان وإسنادها إلى العلم، فيقول: (3)

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان.43

(2) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه.43

(3) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه.22

سَيَنْطِقُ عَنْكَ عِلْمكَ فِي نَدِيٍّ وَيكْتُبُ عَنْكَ يَوْمًا إِنْ كَتَبْتَا

فالنّطق والكتابة هي أفعال خاصة بالإنسان لا غير، لكنّ الشاعر أراد أن يعطي لصورته البيانية بعدا دلاليا أعمق ، فاستعار هذه الأفعال الخاصة بالإنسان وأسندها إلى شيء معنوي وهو العلم .

ومن الصور الاستعارية كذلك التي حفل بها شعر الالبيري هذه الصورة التشخيصية للشّيب، في قوله : [1]

الشَّيْبُ نَبَّهَ ذَا النُّهَى فَتَنَبَّهَا وَنَهَى الْجَهُولَ فَمَا اسْتَفَاقَ وَلاَ انْتَهَى

فقد صور الشاعر الشّيب في صورة واعظ عارف آثر النّصح والإرشاد والنّهي عن المنكر، فتبعه كل من لطريق الهداية سالك ، وحاد عنه من في الضّلالة هالك، فهذه الصورة الاستعارية اعتمدت التّشخيص ، والذي نحسبه الأسلوب الأقدر على نقل الصورة كاملة التّشكيل إلى المتلقي متجاوزة بذلك كل حواجز التّأويل التي قد يضعها المتلقي فيحيد بها عن قصدها الدلالي.

ومن هذه الصورة الاستعارية التّشخيصية في شعره كذلك قوله في التّذكير بالموت:[2]

وَتَدْعُوكَ الْمَنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ أَلاَ يَا صَاح : أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا

في هذه الصورة تم تشخيص الموت في صورة الصديق الوفي الذي يصدق القول والفعل ، وهي صورة أصدق تعبيرا عن حقيقة الموت ، الذي لا يخلف الوعد.

كما كان للصورة الاستعارية دورا في الكشف عن إسقاطات الشاعر النّفسية ، التي تمثّلت في مشاعر الخوف من مباغتة الموت له ، فيقول : [3]

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري :الديوان .47

(2) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه.19

(3) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه. 50

كَيْفَ يَلْتَذُ بِالْحَيَاةِ لَبِيبٌ فَوَّقَتْ نَحْوَهُ الْمَنِيّةُ أَسْهُمْ

في هذه الصورة الاستعارية تم تشخيص الموت وتصويره في صورة محارب يرمي العدا بالسهام ،وهي صورة تظهر حالة الارتجاج النّفسي للشاعر الذي أدرك حقيقة الموت وما بعده .

إنّ الفكرة التي أراد أن يعبّر عنها الشاعر في هذا البيت ، هي أنّ الموت قوي البطش يفتك بالجميع فلا مهرب لمخلوق منه ، ولكنّه لا يعبّر عن هذه الفكرة بالتّعبير السّردي المباشر وإنّما يعبّر عنها بالتّصوير البياني ، كما انّه لا يكتفي بصورة واحدة ، وإنّما يقدم لنا مجموعة من الصور تدور حول هذه الفكرة، وهي صور تقوم على التّجسيم ، مثال ذلك قوله في وصف الموت : (1)

أَيَا قَوْسَ خَرَّاطٍ يُشِيرُ وَلاَ يَرْمِي وَيا سَيْفَ رِعْدِيدٍ يَرُضُّ وَلاَ يُدْمِي
تَعَلَّمْتَ خُلْفَ الْوَعْدِ مِنْ بَرْقِ خُلَّبٍ فَبَرْقُكَ لاَ يُثْرِي وَلَكِنَّهُ يَعْمِي

إنّ للصور في هذين البيتين وظيفة أساسية لأنّها تؤدّي الفكرة أداء مجسما ،فهي الأسلوب الذي يدخل به الحركة في شعره ، فتصوير الموت بالقوس والسّيف والبرق ، كلّها عبارات تحمل معاني الحركة وظّفت لمدّ الموت باعتباره موضوعا ساكنا مجردا من الزمن ، بلون من ألوان الحركة، لأنّ الموضوع السّاكن لا يستطيع أن يمدّ قصيدة بكيان غني مقبول إلا بالاستعانة بعناصر أخرى خارجية تقدم لها الامتداد والحركة ، وتنقذ موضوعها من السّكون والجمود. (2)

فلم تخلو صور الشاعر الاستعارية من التّجسيم الذي أكسب الصورة الفعالية والثّراء، النّابعين من إتحاد أكثر من عنصر واحد ، وتحويل الحد الجامد في الصورة إلى حد حي ذي صفات حسية ، كقوله: (3)

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.108

(2) عبد الستار محمد ضيف : سعر الزهد في العصر العباسي.566

(3) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه.67

لاَشَيْءَ فِي الأَفْواهِ أَحْلَى مِنَ التَّ... وْحِيدِ وَالتَّمْجِيدِ للهِ

فقد جعل الشاعر لتوحيد الله وتمجيده طعما حلوا ، وكأنّه يجسّمه في قالب من الحلوى لا يعرف مذاقه إلاّ من داعبه بلسانه ، ومن هنا نرى أنّ (فلسفة الاستعارة قائمة في قدرتها على توحيد أكثر من عنصر من عناصر الطبيعة في بناء صورة واحدة). (1)

ومن الصور الجزئية الاستعارية التي زخر بها شعره قوله : [2]

وَاتْلُ مِنَ الْوَحْيِ وَلَوْ آيَةً تُكْسَى بِهَا نُورًا مِنَ اللهِ

الصورة الاستعارية في هذا البيت تمثلت في لفظ " نورا" لأنّ المعنى الحقيقي دون مجازها اللغوي هو الهدي ، لأنّ المراد هو" تكسى بها هداية " ، فاستعير للهدي لفظ النور لعلاقة المشابهة.

وهناك بعض الصور الاستعارية التي توحي بالتّأزم النّفسي الذي يكابده الشاعر لمّا رأى من سوء حاله وهول مصيبته، لكثرة ذنوبه وخطاياه التي روّعته وطيّرت فؤاده ، نلمس ذلك في قوله : [3]

إذا رُوِّعَ الْخَاطِي وَطَارَ فُؤَادُهُ وأُفْرِخَ رَوْعُ البَرِّ فِي الْغُرُفَاتِ

الصورة تنتمي إلى بيئة الزهد ، وتستمد عناصرها من أجوائه الروحية ، فتعظيم الخطايا الذي يولد الخوف والتّرويع من حالات الزهد الوجدانية.

فشدّة الخوف صوّرها الشاعر في قوله: (وطار فؤاده) ، فقد جعل للفؤاد جناحين يطير بهما كحال الطائر الآمن في عشه إذا روعه طارئ .

أما الصورة الثانية التي صورت رجاء الشاعر في مغفرة ربّه هي في قوله: (أفرخ روع البر) من المجاز أفرخ روعك ، أي خلا قلبك من الهمّ ، وإذا زال الهم انقلب الرّوع أمنا ، فقد صوّر زوال الرّوع وخلوه بخلو البيضة من الفرخ، فهذه الصورة

---

(1) محمد حسن عبد الله : الصورة والبناء الشعري .دار المعارف .1980القاهرة .مصر . 154

(2) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان. 65

(3) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه.56

التّجسيمية حملت معنيين وجدانيين هما الخوف والرجاء، اللذين طبعا شعر الإلبيري ولازماه في حياته.

لقد كشفت الصورة الاستعارية للإلبيري عن إسقاطاته النفسية من خلال حديثه عن الموت والنار والدنيا ، وما ينتابه من خوف ووجل ، كما اهتمت بالتّناسب المنطقي بين حدودها ، فأرضت بذلك ذوق المتلقي ، كما حقّقت لونا من الوحدة الفنية لها من

خلال صورها الجزئية المتناثرة في ثنايا القصائد الزهدية ، فكانت على هيئة لوحة منظومة تضم عددا من الاستعارات الموحية والمعبّرة عن الحالة الانفعالية للشاعر .

3/2 الصورة الكنائية:

الكناية عدول عن التصريح توسعا و حبا في الابتكار، وفن بياني يخلع مسحة من الجمال البديع على الكلام ،أو كما عرّفها أحمد مطلوب بقوله :((كل ما دل على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز، وتكون رمزا أو إشارة أو إماء، وهي عند المعاصرين رمز وعلامة للإشارة إلى المعنى من بعيد)) [1] ، كان حظّها من عناية شعراء الأندلس أقل بكثير من عنايتهم بالتّشبيه والاستعارة،[2] وشعر الإلبيري عيّنة صادقة مدعمة لهذا الرأي ، فقد شحّت الصور الكنائية في شعره إلاّ من بعض الصور القليلة التي تناثرت في بعض قصائده الزهدية ، والتي لا نعدّها احتفالا منه بها ، وإنّما على سبيل إثراء للمعنى لا غير.

فمن الصور الجزئية المعتمدة على الكناية ، والتي فرضت حضورها في شعر الزهد للإلبيري ، قوله : [3]

وَأَدْرِكْ مِنَ الْفائِتِ مِن قَبل أَن يفاجِئُكَ الْموتُ فلاَ تُنْظَرَنْ
أقْبَحُ مَنْ تَرْمُقُـهُ مُقْلَـةٌ شَيْخٌ خَلِيـعُ الرَّسَـنْ

(1) أحمد مطلوب : الصورة في شعر الأخطل الصغير .دار الفكر .الأردن .1985 .ص 54
(2) عبد القادر هني : مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي،قبل سقوط قرطبة.ص166.
(3) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.104

فالكناية هي في قوله :" شيخ خليع الرسن" ، وهي كناية عن الاستهتار والتّصابي.
ومن الصور الكنائية كذلك في قوله أيضا : [1]

وإنْ جَلَسَ الْغَنِيُّ عَلَى الْحَشَايَا لأَنْتَ عَلَى الكَواكِبِ قَدْ جَلَسْتَا
وإنْ رَكِبَ الْجِيَادَ مُسَوَّمَاتٍ لأَنْتَ مَنَاهِجَ التَّقْوَى رَكِبْتَا

الصورة الكنائية هي في قوله " على الكواكب قد جلستا" و "مناهج التقوى قد ركبتا"، وهما كنايتان على الرّفعة وعظمة الشّأن وجلالة القدر للعالم الفاضل ، الذي ينثر من فيه جواهرا ودررا ثمينة لا يدرك قيمتها إلاّ من كان للعلم مقدر.

وفي صورة بيانية بسيطة اتكأت على الكناية ، يصوّر فيها الشاعر نحول جسده بعد أن كان يافعا، في قوله : (2)

أَرَى الأَعْصارَ تَعْصِرُ مَاءَ عُودِي وَقِدْمَا كُنْتُ رَيَّانَ الْقَضِيبِ

الصورة البيانية البسيطة هي في قوله" كنت ريّان القضيب" ، وهي كناية عن الشّباب والصّحة والعافية، فبعد ما كان شابا يافعا تعجب به الحسان ، صار شيخا يابس العود ، ثقيل الحركة شاحب الوجه مصفرا ، كحال الشمس إذا جنحت ومالت للغروب.

وفي صورة كنائية أخرى تتقاطع مع الصورة السّالفة في المعنى ، تضع المرء في صورة يغلب عليها السّواد ، الذي يرتبط بالغروب والأفول ، فيقول : (3)

فَغَدَا حَسِيرًا يَشْتَهِي أَنْ يُشْتَهَى وَلَكَمْ جَرَى طَلْقَ الْجَموحِ كَمَا أَشْتَهَى

الصورة البيانية البسيطة التي تعتمد على الكناية هي في قوله :(طلق الجموح) وهي كناية عن القوّة والنّشاط والعنفوان ، وهي صورة تحمل عبرة وعظة للمرء المؤمن،

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان.23

(2) أبو إسحاق الإلبيري:نفسه. 31

(3) أبو إسحاق الإلبيري:نفسه.48

فبعد قوّة نشاط الشباب ، لا محالة يعقبها ضعف وتثاقل المشيب، وكل هذه المعاني الزهدية تراكمت في شعر الإلبيري، والتي عبر عنها هذا البيت الآتي للشاعر في قوله: (1)

مَالِغُصْنِي ذَوَى وَكَانَ نَضِيرًا وَلِظَهْرِي انْحَنَى وَكَانَ مقَوَّمْ

فقوله " غصني ذوى" كناية على نحول الجسد وضعفه بعد أن كان كالغصن نضيرا.

كما وظّف الإلبيري الصورة البيانية المعتمدة على الكناية في عتابه لنفسه التي يرى فيها مكمن دائه وسبب همّه ، فيقول : [2]

وَلَوْ أَنَّنِي دَاوَيْتُ مَعْطَبَ دَائِهَا بِمَرَاهِمِ التَّقْوَى لَوَافَقَتِ الشِّفَا

والكناية هي في قوله "معطب دائها" كناية عن النّفس الأمّارة بالسّوء ،وهي صورة تحمل معاني الصّراع الشّرس المحتدم بين الشاعر ونفسه ، والتي تجره دائما إلى ما لا يهوى و يشتهي ، لذلك نجده في أغلب أشعاره يشكو إلى الله سطوتها عليه وجهلها ومجانبتها للصّواب ، ولا نحسب الإلبيري الشاعر الوحيد الذي يكابد جهاد نفسه ، بل هو حال كل شعراء الزهد الذين شخّصوا الدّاء في نفوسهم ،ووصفوا الدّواء في التقوى.

كما حظي الموت بنوع من التصوير البياني المعتمد على الكناية ، والذي عكسه هذا البيت للشاعر ،والذي يقول فيه : [3]

غَدا لاَ يَذُودُ الدُّودَ عَنْ حُرِّ وَجْهِهِ وَكَانَ يَذُودُ الأُسْدَ فِي الأَجَمَاتِ

ففي عبارة "غدا لا يذود الدّود "صورة بيانية بسيطة اعتمدت الكناية كآلية تصوير، للموت هادم اللذات ومفرّق الجماعات، فبعد الموت وسكنى القبور ، ينال الدّود من حرّ وجه المرء ما شاء له منه ، دون أن يملك القدرة على صدّه، بعدما كان يصدّ

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان. 50

(2) أبو إسحاق الإلبيري:نفسه.45

(3) أبو إسحاق الإلبيري:نفسه.53

الجيوش الجرّارة وقت الحروب .

ومن المعاني التي حرص الشاعر الإلبيري على نقلها إلى المتلقي في شكل صورة بيانية بسيطة معتمدة على الكناية ،دعوته إلى إمعان العقل و التّأمل في ملكوت الله حتى تتجلى القدرة الإلهية لكل من خفيت عليه ، هذا المعنى حمله هذا البيت للشاعر،الذي قال فيه:[1]

يُصَرِّفُ الْخَطْرَةَ مَذْعُورَةً مِمَّا يَرَى مِنْ مَنْظَرٍ هَائِلِ

الصورة البيانية هي في قوله " الخطرة مذعورة " ، وهي كناية عن الدّهشة والانبهار من بدائع هذا الكون الذي أحكم الله خلقه في أحسن صورة ما شاء ركّبه، وهي صورة تحمل معنى التّأمل والتّبصر وإعمال للفكر، ليلح البرهان لكل جاهل لقدرة الله سبحانه وتعالى، ليتوب إليه ويعزّز إيمانه بحقائق ثابتة.

إنَّ الشاعر أبا إسحاق الإلبيري لم يوظّف في شعره الصورة البيانية التي تعتمد على الكناية ، بشكل يوحي بأنّه يوليها اهتماما كبيرا ، سواء عن قصد أو خلاف ذلك ، ومردّ ذلك في اعتقادنا أنّها صعبة المنال، وذلك أنّها تندغم في الكلام والتّركيب اللغوي، والسّياق هو الكفيل بإضاءتها بشكل أساسي، أو كما قال فايز الداية : ((تعتمد الصورة الكنائية على إدراك عميق لسياق القصيدة . أو النص عامة . ...هذه الإشكالية قد يكون لها أثر في انتشار الصورة الكنائية أو انكماشها في التّراث الأدبي العربي.)) [2]

وهو ما نعدّه أمرا لا يتناسب مع شعر الزهد الذي يتّسم بالسّهولة والوضوح ، والعناية بالمعنى أكثر من الصّنعة والتّكلف والتّعقيد ، لأنّه شعر تربوي إصلاحي يولي عناية كبيرة للمتلقي.

2 / 4 الصورة المجازية المرسلة :

المجاز استعمال اللّفظ في سياق دلالي ليست مرتبطة به في أصل بنائه، وإنّما هي

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان. 59

(2) فايز الداية : جماليات الأسلوب.الصورة الفنية في الأدب العربي. 143

دلالة يتطلّبها السّياق الذي يحيط باللّفظ ، كان حظّه نظير حظ الكناية في قلّة تضمينهما في النّصوص الأدبية العربية ، حتّى إنّ العاملين في النّقد العربي فزعوا في كثير من الأحيان إلى مصطلح الصورة مطلقة ، فلم ينل منهم المجاز المرسل حظّا هو جدير به.[1]

ولكنّنا لا نحسب أنّ هذا الرأي يتّسم بالجزم الذي ينطبق على كل النصوص العربية القديمة ، والتي ربما كان البعض منها عبارة عن لوحة مركبة من عدّة صور مجازية وكنائية تآلفت في تشكيل جمالي طبع النص بطابع تصويري خاص.

لكن ما يعنينا في هذا الرّأي السّالف الذكر ،أنّه يعطينا السّند القوي في الحكم على أنّ الشاعر أبا إسحاق الإلبيري الزاهد، زهد في الصور المجازية ولم يحفل بها احتفالا بارزا شأنها في ذلك شأن الصورة الكنائية ، إلاّ في بعض الصور المجازية القليلة التي استطاعت أن تجد لها مكانا بين مجموع الصور البيانية ، لذا ارتأينا أن نورد دراسة للمجاز المرسل في هذا الموقع بين الصور الفنية ، لعلّنا نضيء جانبا لم يحفل به النّقاد احتفالهم بالتّشبيه والاستعارة خاصة في شعر الإلبيري.

فمن الصور البيانية البسيطة التي صادفتنا في هذه الدراسة واعتمدت المجاز المرسل هي في قوله: (2)

فَأَبْصُق فِي مُحَيَّا أمَّ دَفْرٍ وَأَهْجُرُهَا وَادْفَعُهَا بِرَاحِي

فالصورة المجازية المرسلة هي في قوله " محيا" ، فهو لا يقصد الوجه الحقيقي وإنّما يقصد الدنيا التي رغب عنها وزهد فيها ومقتها ، فالكلمة استعملت استعمالا مجازيا لعلاقة جزئية.

وفي صورة بيانية بسيطة اعتمدت المجاز المرسل كذلك هي في قوله يصف أهل النار وما يلاقونه: (3)

يُسْحَبُ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ بِسَابِقِ الْحُكْمَ فِي النَّارِ

---

(1) فايز الداية :جماليات الأسلوب. الصورة الفنية في الأدب العربي.123

(2) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.43

(3) أبو إسحاق الإلبيري :نفسه.66

الصورة البيانية البسيطة هي قوله "على وجهه" وهي مجاز مرسل والعلاقة هي الجزئية ، فأطلق لفظ وجهه وهو جزء وأراد به الجسد وهو الكل ، وهي صورة ترهيبية تحمل معنى التّخويف من هول النار وسعيرها ، حتى يَجِدَّ العبد المؤمن في اتّقائها بالعمل الصالح والتوبة إلى الله عز وجل .

و صور بيانية بسيطة أخرى اعتمدت المجاز ، هي في قوله : (1)

ولاَ اطْمَأَنَّ الْقَلْبُ إلاَّ لِمَنْ يَعْمُرُهُ بِالذِّكْرِ للهِ

فالصورة البيانية البسيطة هي في قوله" اطمأن القلب"، وهي صورة بيانية اعتمدت المجاز لعلاقة الجزئية ، فأسند الاطمئنان للقلب وهو جزء من كل ،وأراد به الإنسان المؤمن وهو الكل، والصورة نفسها تتكرّر في هذا البيت للإلبيري ، والذي يقول فيه:[2]

فَطَابَت الأَنْفس مِنْهُم بِأَنْ أَمَّنهُمْ مِنْ فَزَعِ النَّار

فعبارة "طابت الأنفس" شكّلت صورة بيانية بسيطة اعتمدت المجاز المرسل لعلاقة الجزئية ، لأنّ النّفس جزء من الإنسان الذي يطيب له المقام إذا أمن من فزع.

وفي وصف للعالم الفاضل ، اعتمد المجاز المرسل كآلية تصوير بياني ، أراد الشاعر أن ينقل خطابا موجّها ، يحمل معاني وعظية تربوية دأب على العمل بها والدّعوة لها ، والشّاهد على ذلك قوله : [3]

فَهُوَ خَفِيفُ الظَّهْرِ لَكِنَّه أَثْقَلُ فِي الْمِيزَان مِنْ حَضَنْ

فالصورة المجازية هي في قوله " خفيف الظّهر" ،وهي صورة مجازية لعلاقة الجزئية، فقد أورد الشاعر الجزء وهو الظّهر و أراد به الكل وهو الجسد الذي يحمل بعد الوفاة على الأكتاف، وهي صورة بيانية تبجّل العمل الصالح وتمجّده ، فالمرء لا يوزن بكثرة

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.67

(2) أبو إسحاق الإلبيري :نفسه.92

(3) أبو إسحاق الإلبيري :نفسه.102

ماله أو بقوّة جسمه وهيبته ، وإنّما بما قدّمه من عمل صالح يثقل ميزانه بالحسنات .

وفي صورة بيانية بسيطة أخرى تصوّر العالم الفاضل العابد ، يصادفنا المجاز المرسل في قول الشاعر : [1]

تَخَالـهُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّه فِي ظُلَمِ اللَّيْلِ كَمِثْلِ الْغُصُنْ

الصورة البيانية هي في قوله " يدي ربّه" ، وهي صورة مجازية مرسلة لعلاقة الجزئية ، حيث ذكر الجزء وهو "يدي" وأراد به الكل وهو الله سبحانه وتعالى.

ويواصل الشاعر أبو إسحاق الإلبيري في إعلائه لشأن العالم ،الذي ينظر إليه على أنّه نور يقتدي به كلّ من على طريق ربّه سالك، فيقول : [2]

إنْ مَهَّدَ النَّاسُ لِدُنْيَاهُمْ شَمَّرَ فِي تَمْهِيدِهِ لِلْجَنَنْ[3]

الصورة البيانية البسيطة هي قوله " تمهيده للجنن" ،وهي صورة مجازية مرسلة لعلاقة الجزئية ، لإيراد الجزء وهو القبر والقصد به الكل وهو الدّار الآخرة ، فالقبر ما هو إلاّ مرحلة تسبق البعث والحساب ثمّ الجزاء أو العقاب، لا نظنّ أنّه يشغل فكر المؤمن بالقدر الذي تشغله إيّاه الدّار الآخرة ، فهي الأولى بالتّمهيد والبناء باعتبارها دار البقاء.

الملاحظ على الصور المجازية للإلبيري ، أنّ أغلبها صور وعظية روحية وتربويه ، شأنها شأن باقي الصوّر البيانية الأخرى التي قابلتنا أثناء دراستنا لآلية الصورة ، فهي صور تنفّر من الدّنيا وترغّب في الآخرة ، تذكّر بالموت وأهواله وتحبّب في التوبة وفضلها ، تجاهد النّفس وسلطانها بالتّقوى والقناعة ، والصّبر على الطّاعة .

لذلك يمكننا القول إنّ صور الإلبيري شخّصت القضايا المعنوية وجسّمتها في صور حيّة تنبض بالحركة ، وأعطت للخيال مساحة من الحريّة ليرتاد عالم الفكر وعالم العواطف ، ليشكّل من اللّوحات ما يلائم حياته الرّوحية والاجتماعية وبيئته وحضارته.

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.102

(2) أبو إسحاق الإلبيري :نفسه.102

(3) الْجَنَنُ : بالفتح .هو القبر. أنظر ابن منظور: لسان العرب. ج1. ص515

3 / الموسيقى الشّعرية:

الشعر صورة جميلة من صور الكلام ، جميل في ألفاظه وفي تشكيل عباراته وانسجامها ، وجميل في توالي مقاطعه وتآلفها، جميل حين تسمعه الآذان نغما موسيقيا منتظما فتطرب به .

والشاعر مبدع أدرك سحر الكلمات وتذوّق جمالها ، فجعل منها أوتارا تعزف نغما موسيقيا لحنه عواطفه وانفعالاته النّفسية، يستطيع أن ينقل به المتلقي من عالمه الحسّي إلى عالمه الشعري عن طريق الموسيقى، لأنّها تزيد من انتباهه وتضفي على الكلمات حياة فوق حياتها ، وبصقلها وتهذيبها تجعل معانيها تصل إلى قلب المتلقي بمجرد سماعها ، وكلّ هذا يثير فيه الرّغبة في قراءة الشعر وإنشاده مرارا وتكرارا.(1)

والموسيقى هي روح الشعر وجانب مهمّ من جوانب بنائه ، بل إنّ بعض النّقاد يرى أنّ الشعر موسيقى تحوّلت فيها الفكرة إلى عاطفة. (2)

فالموسيقى بهذا المعنى ليست زينة أو حلية خارجية تضاف إلى الشعر، ولكنّها جزء من بنيته ، ووسيلة من أقوى وسائل الإيحاء وأقدرها على التّعبير عن دخائل النّفس لأنّنا حين نمعن النّظر في بنية القصيدة العربية نجد أنّ البناء الموسيقى يعدّ في مقدّمة البنى التي تتكوّن منها القصيدة عند العرب ، ويرى النّقاد أنّ البناء الموسيقي يتقدّم على البناء بالصورة ، لأنّ القصيدة إذا فقدت العنصر النّغمي تخرج عن دائرة الشعر، فالبناء بالموسيقي في القصيدة العربية لا يعدّ تعسفا ولا تحجّرا ، بل هو الأقرب إلى خصائص الشعر العربي، ويعد ظاهرة حضارية انطلاقا من مرتكزات أساسية في الحضارة العربية. (3)

والجدير بالذِّكر أنّنا لسنا هنا بصدد مناقشة هذه الآراء والتّعريفات ، وإنّما يهمّنا منها أنّها جميعا تشترك في التّأكيد على أهميّة الموسيقى للشعر،هذه الأهميّة هي التي دفعتنا من خلال دراستنا لشعر أبي إسحاق الإلبيري،إلى أن نعرّج على نظامه الموسيقي

---

(1) إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر.مكتبة الانجلو مصرية .ط3. 1965 . ص16.

(2) مصطفى سويف:الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة.دار المعارف.ط3 . 1969 .ص15

(3) عبد الدايم صابر: موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور.مكتبة الخانجي.القاهرة. مصر. ط3 . 1993. ص18.

لكي نستنبط مقوّماته المتمثّلة في الوزن والقافية ، إلى جانب مقوّمات أخرى له. وتقتضي دراسة هذا العنصر،أن نخص كلّ مقوم من مقوّماته بكلمة تضع تصوّرا له، وتبيّن مقدار ما ناله من اهتمام.

1/3 الـوزن :

إنّ الوزن بالنّسبة للشعر العربي حدّ من حدوده ،وركن من أركانه الأساسية ، فهو الذي يعطي للشعر نغمات موسيقية تستلذّه الأذن وتطرب له النّفس، والبيت الشعري هو الوحدة العروضية الأساسية في القصيدة ، ومنه نتعرّف على الوزن الشعري الذي هو عبارة عن وحدات مكرّرة يبنى عليها البيت والقصيدة ،[1] فبتكرار التّفعيلة في البيت يعرف الوزن أو ما يطلق عليه البحر، [2] ولعلّ الدّاعي إلى تسمية الأوزان بالبحور مردّه إلى كونها تستوعب المشاعر والأحاسيس التي تتلاطم وتترامى ترامي الفيافي والقفار.[3]

وتبدو أهمية الوزن وقيمته من خلال اهتمام النّقاد العرب وحرصهم على وجود الوزن والقافية كعنصر أساسي من عناصر الشعر ، ويبدو ذلك من خلال تعريفاتهم للشعر ،منهم قدامه بن جعفر الذي عرّفه بقوله:((أنّه قول موزون مقفّى يدلّ على معنى ، والأسباب والمفردات التي يحيط بها حدّ الشعر هي : اللّفظ والمعنى والوزن والتّقفية)). [4]

يفهم من هذا التّعريف أنّ الشعر ما توفّرت له هذه العناصر الأربعة: لفظ يحمل معنى موزون ومقفّى ، وكل كلام فقد أحد هذه العناصر الأربعة لا يعدّ شعرا في نظر قدامه بن جعفر.

---

(1) عز الدين إسماعيل : التفسير النفسي للأدب.دار العودة .بيروت .لبنان.ط4. 1981. ص 78-79 .

(2) أحمد محمد الشيخ: دراسات في علم العروض والقافية .الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان. ليبيا.ط2 ص55.

(3) أحمد محمد الشيخ :نفسه.55.

(4) قدامه بن جعفر : نقد الشعر .تح.محمد عبد المنعم خفاجي .دار الكتب العلمية. بيروت .لبنان.ص3-7

أمّا ابن رشيق فيحدّد مكوّنات الشعر بقوله : ((إنّه مكوّن من أربعة أشياء وهي: اللّفظ والوزن والمعنى والقافية ، فهذا هو حدّ الشعر ، لأنّ من الكلام كلاما موزونا مقفّى وليس بشعر لعدم الصّنعة والنّية ، كأشياء اتّزنت من القرآن ومن كلام النّبي . صلى الله عليه وسلم . وغير ذلك من مما يطلق عليه أنّه شعر)) .[1]

فابن رشيق أضاف ركنا آخرا إلى الأركان التي وضعها قدامه بن جعفر ، وهذا الرّكن هو النّية أو القصد ، ولا نحسّ هذا الركن محلّ توافق جميع النّقاد العرب القدامى والمحدثين ، لأنّه متعلّق بالشاعر وليس بالشعر، فقد يتبنّاه البعض ويسقطه البعض الآخر.

كما حملت بعض التّعاريف إشارات النّقاد في تعريفهم للشّعر على ضرورة وجود عنصرين في تعريف الشعر أحدهما : العاطفة المسندة بفكرة ، والآخر وسيلة من التعبير وهي الخيال واللغة الموزونة المقفّاة،[2]وهو ما ذهب إليه أحمد الشايب في تعريفه للشعر بقوله:((الكلام الموزون المقفى الذي يصور العاطفة والعقل)). [3]

بالإضافة إلى ربط العقل والعاطفة بالوزن ، ناقش كثير من النّقاد القدماء والمحدثين قضية ارتباط الوزن الشّعري والموضوع، فمنهم من ربط بين الموضوع الشّعري والوزن، ورأى أنّ لكلّ وزن طبعا يرافقه في شاعرية الشعراء ويميل إليه كلامهم، كحازم القرطاجني الذي يقرّ بهذه الرّابطة ، وهناك من لا يعتقد بصحة هذا الرّبط بين الوزن والموضوع الشّعري منهم إبراهيم أنيس الذي قال : ((إنَّ استعراض القصائد القديمة وموضوعاتها لا يشعرنا بمثل هذا التّخير أو الرّبط بين موضوع الشعر ووزنه)) .[4]

ومهما يكن فإنّ للوزن صلة عضوية بالنص الشعري ، وذلك بما يبعثه من موسيقى مؤثّرة في النّفس والحسّ معا ، وهو ما يستفز فينا الفضول ويجعلنا نطرح التساؤل

---

(1) ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر ونقده.ج1ص.77

(2) سالم عبد الرزاق سليمان المصري: شعر التصوف في الأندلس . 321.

(3) أحمد الشايب : أصول النقد الأدبي : 298

(4) إبراهيم أنيس :موسيقى الشعر.177

التّالي : ما هي الأوزان التي آثرها و تخيَّرها شاعر الزهد أبو إسحاق الإلبيري ؟

وفي محاولة منَّا للإجابة على هذا التّساؤل قمنا بإحصاء قصائد الزهد في ديوان أبي إسحاق الإلبيري ، مع تحديد الوزن الذي بُنيَّت عليه ،و النّسبة المئوية لكلّ وزن، وخلصنا في الأخير إلى عدد من البحور المستعملة من طرف الشاعر ،والتي تساوي نصف عدد البحور الخليلية ،والتي نوضّحها في هذا الجدول.

البحور	الوافر	الكامل	الخفيف	الطويل	السريع	البسيط	المتقارب	المجموع
عدد القصائد	05	09	01	03	05	02	04	29
النّسبة المئوية	17.24	31.03	03.44	10.34	17.24	06.89	13.79	%

انطلاقا من هذا الجدول يمكننا الاستنتاج أنّ الشاعر زاوج بين البحور البسيطة الصّافية والبحور المركّبة، والمقصود بالبحور الصّافية البحور ذات الأوزان الشّعرية البسيطة التي تتشكّل وحدة إيقاعها من تكرار تفعيلة واحدة، والبحور التي وردت في ديوان الإلبيري من هذا النوع هي :

الكامل : متفاعلن متفاعلن متفاعلن × 2

المتقارب : فعولن فعولن فعولن فعولن ×2

أمّا البحور المركّبة : فهي التي يتولّد إيقاعها من تكرار تفعيلتين مختلفتين ، ومن هذه البحور:

الوافر : مفاعلتن مفاعلتن فعولن ×2

الخفيف : فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن ×2

الطويل : فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن ×2

السريع : مستفعلن فاعلن مستفعلن ×2

البسيط : مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن ×2

يلاحظ المتأمّل في هذا الجدول الإحصائي ، أنّ نسبة توظيف البحور في قصائد الزهد للإلبيري متقاربة، وتتساوى في بعض الأحيان ، كما هو الشّأن بين (الوافر والسريع)، ممّا يعطي الانطباع بأنّ الشاعر يولي عناية لجميع البحور الخليلية ،و تمسّكه بعمود الشعر العربي القديم عملا بسيرة أسلافه الشعراء العرب الذين عُرفوا بميلهم الطّبيعي على المحافظة على القيّم الموروثة ، وخاصة فيما يتعلّق بالشعر الذي يعدّ ديوانهم ومرآة حياتهم وعلامة نبوغهم .[1]

كما يبيّن هذا الجدول أنّه في إطار البحور الكاملة احتلّت البحور الطويلة ذات المقاطع الكثيرة مثل الوافر والكامل والبسيط والطويل المنزلة الأولى ، فهي ملائمة لشعر الزهد من البحور الكاملة الأقلّ طولا ورحابة ، ومردّ ذلك في اعتقادنا إلى زيادة الجرعة الفكرية فيه، فالعنصر الفكري في شعر الزهد متشعّبا قد لا يتأتّى لكثير من الأغراض الشعرية الأخرى، لأنّه يقوم في جانب كبير منه على التّأمل والاستبصار، ويهتم بالنّصح والوعظ والإقناع ، ويتوسّل كثيرا بالحكم وأساليب الاحتجاج .

وسبب ثان لموافقة شعر الزهد للأوزان الطويلة يكمن في أنَّ جانبا كبيرا منه ينزع إلى الخطابة ، وفي هذا النّوع من الشعر يكون الشاعر حريصا على بناء إيقاعات مجلجلة تنتهي من وقت لآخر إلى وقفات عالية النّبرة، لكي يحدث التّأثير الأخَّاذ للمتلقي.[2]

وسبب ثالث وراء إيثار شعر الزهد للأوزان الطويلة ، وهو أنّه يتميّز بالجدّية والرَّزانة والوقار ، على حين نجد البحور القصيرة والمجزوءة تناسب أحاسيس الطّرب والنّشوة، فهي لا تصلح إلاّ لمجرّد الدّندنة والتّرويح عن النّفس. [3]

فلو نظرنا مثلا إلى القصيدة الأولى من ديوان الإلبيري، والتي وقف فيها متأمّلا في الدنيا وحال النّاس فيها، فرآهم متهافتين عليها ، رغم حقارتها وغدرها بهم ، فوصف

---

(1) عمر الدقاق : ملامح الشعر الأندلسي . دار الشرق العربي.بيروت .لبنان. د ت. ص327.

(2) عبد الستار محمد ضيف: شعر الزهد في العصر العباسي .630.

(3) عبد الله الطيب المجذوب: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها .مطبعة الحلبي.ط1 .1374هـ . 1955م.ص 81-90

ذلك بقوله: [1] (من الوافر)

فَلَيْسَت هذه الدُّنيا بِشَيْءٍ	**تَسُووُكَ حِقْبَةً وَتُسَرُّ وَقْتَا**
0/0// 0/0/0// 0/0/0//	**0/0// 0///0// 0///0//**
فعولن مفاعلتن مفاعلتن	**فعولن مفاعلتن مفاعلتن**

فلم يجد سوى البحر الوافر لوفرة حركاته،[2] ليلبسه تجربته الشّعرية التي عبَّر من خلالها عن نظرته للدّنيا،والتي يفهم منها كذلك زهده فيها، وقد جاء هذا الوزن المتكوّن من تفعيلات سباعية (مفاعلتن) مناسبا للحالة النّفسية التي كان عليها الشاعر، وهي نفسية هادئة متأمّلة ، وهذا التّأمل لا يناسبه الإسراع ، لذلك اختار البحر الوافر ، كما أنّه لجأ إلى الزّحاف ليستعين به على الحدّ من حركاته فجاءت (مُفَاعَلَتُنْ) معصوبة (مُفَاعَلْتُنْ) ، لأنّ السُّكون محطّة يتوقّف عندها الشاعر ليتمعّن ويتأمّل ويستنتج ، ثم يعبّر عن تلك التّجربة بهدوء وسكون.

وما يلاحظ على أبي إسحاق الإلبيري اهتمامه الكبير بالوزن وحرصه عليه، وقد أدّى به هذا الحرص إلى الوقوع في التّكرار أحيانا كما سبق الإشارة إليه في محور اللّغة ، والذي نلمسه في أمثلة كثيرة من شعره ، نورد منها على سبيل التّمثيل قوله:[3] (من البحر السريع)

يَا أَيُّهَا الْمُغْتَرُّ بِاللهِ	**فَرَ مِنَ اللهِ إِلَى اللهِ**
0/0/ 0//0/0/ 0//0/0/	**0/0/ 0///0/ 0///0/**
مستفعلن مستفعلن فعلن	**مستعلن مستعلن فعلن**

وإذا تأمّلنا تفعيلات هذا البيت، نكتشف من الوهلة الأولى استعانة الشاعر بالزّحافات والعلل في ضبط الوزن ، فقد جاءت (مُسْتَفْعِلُنْ) مطوية (مُسْتَعِلُنْ) ، كما دخلت على (فاعلن) علّة القطع (فَعْلُنْ).

إنَّ تكرار الشاعر للفظة الجلالة (الله) ثلاث مرّات وجعلها قافية في كل القصيدة

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان.32

(2) زينب بوصبيعة :مجلة دراسات أدبية وفكرية .جامعة الأمير عبد القادر. قسنطينة.الجزائر.ع2. 1425 هـ.2004م. ص165

(3) أبو إسحاق الإلبيري : نفسه.65

البالغ عددها ثلاثة وخمسين '53' بيتا، دليل على حرص الشاعر الشَّديد على توفير النَّغم الموسيقي الذي أضفاه تكرار هذه اللّفظة على القصيدة، لكنّنا لا نعتقد . غير جازمين . أنَّه وُفّق في اعتماده البحر السّريع والاستعانة به في بناء هذه القصيدة ، أو كنغم موسيقي يطرب الآذان ويبهج النّفوس، فقد عابه البعض ، منهم إبراهيم أنيس في قوله:((والحق أنّنا حين ننشد شعرا من هذا البحر نشعر باضطراب في الموسيقى لا تستريح له الآذان إلاّ بعد مران طويل...)). [1]

أمّا البحر الأكثر توظيفا من قبل الإلبيري ، هو البحر الكامل الذي وظّفه الشاعر في تسع (9) قصائد زهدية ، فهذا البحر يضمّ في كل شطر ستّة مقاطع طويلة، واشتماله على ثلاثين حركة جملة واحدة ، وهو ما لم يحدث في الأوزان التي ذكرها الخليل بن أحمد،[2] و نورد على سبيل التّمثيل قول الشاعر:[3] (من البحر الكامل) .

وهَجَرْتُ دنْيَا لَمْ تَزَلْ غَرَّارَةً	بِمُؤَمِّلِيهَا الْمُمْحِضِينَ لَهَا الْوَفَا
0//0/// 0//0/0/ 0//0/0/	/// 0 // 0/ 0//0/0/ 0//0///
متفاعلن مستفعلن مستفعلن	متفاعلن مستفعلن متفاعلن
سَحَقَتْهُمْ وَدِيَّارَهُمْ سَحْقَ الرَّحَا	فَعَلَيْهِمْ وَعَلَى دِيَّارِهِمْ الْعَفَا
0//0/// 0//0/// 0//0/0/	0//0/// 0//0/// 0//0///
متفاعلن متفاعلن مستفعلن	متفاعلن متفاعلن متفاعلن

يعدّ هذان البيتان بما يحملانه من معنى مرآة عاكسة لعاطفة الشاعر الصّادقة ، ولنفسه المبغضة للدّنيا والزّاهدة فيها وفي متاعها ، فالبيتان يحملان معنى يناسب البحر الكامل ، لأنّه على رأي أحمد الشايب يصلح لأكثر الموضوعات ، وهو في

(1) إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر.90

(2) ابن رشيق :العمدة.136

(3) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان.46

الخبر أجود منه في الإنشاء.[1]

وما يلفت الانتباه في هذين البيتين هو دخول زحاف الإضمار على مقياس (متفاعلن) في بعض المواضع، فجاءت متفاعلن مضمورة (مستفعلن) ، وهو أمر كثير الورود ، على رأي إبراهيم أنيس الذي قال في دراسته لهذا البحر: (ولكن كثيرا ما يحل محل هذا المقياس ، مقياس آخر هو مستفعلن، بل يندر أن نرى البيت الواحد من هذا البحر مشتملا على المقياس متفاعلن وحده ، ولهذا يحق لنا أن نعدّ المقياس مستفعلن مقياسا للبحر الكامل مثله مثل متفاعلن سواء بسواء).[2]

كما وظّف الشاعر أيضا البحر المتقارب في قوله مبغضا نفسه : [3]

وَأَبْغَضْت نَفْسِي لِعِصْيَانِهَا	وَعَاتَبْتُهَا بِأَشَدِّ الْعِتَابِ
0// 0/0// 0/0// 0/0//	/0// 0 /0// / 0// 0/0//
وَقُلْتُ لَهَا بَانَ عَنْكِ الصِّبَا	وَجَرَّدَكِ الشَّيْبُ ثَوْبَ الشَّبَابِ
// 0 / 0/0// 0/0// 0//	/0// 0/0// 0/0// /0//
فعول فعولن فعولن فعو	فعول فعولن فعولن فعول

ووظّف الإلبيري البحر البسيط أيضا في قوله : [4]

لاَ قوَّةٌ لِي يَارَبِّي فَانْتَصِرُ	وَلاَ بَرَاءَةٌ مِنْ ذَنْبِي فَأَعْتَذِرُ
/0// 0//0/0/ 0/0/ 0///0	0/// 0//0/0/ 0/// 0//0//
مستفعلن فعلن مستفعلن فعلن	متفعلن فعلن مستفعلن فعلن

والبحر الطويل في قوله: [5]

تَمُرُّ لِدَاتِي وَاحدًا بَعْدَ وَاحِدٍ	وَأَعْلَمُ أَنِّي بَعْدَهُمْ غَيْرَ خَالِدٍ
/0// 0//0/0// 0/0// 0//0//	/0// 0//0/0// 0/0// 0//0//
فعول مفاعيلن فعولن مفاعل	فعول مفاعيلن فعولن مفاعلن

(1) أحمد الشايب :أصول النقد الأدبي.123

(2) إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر.64

(3) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.64

(4) أبو إسحاق الإلبيري :نفسه.117

(5) أبو إسحاق الإلبيري :نفسه. 105

كما استعمل كذلك البحر الخفيف ، لكن استعماله كان محدودا ، فقد استعمله مرّة واحدة في قوله مذكّرا بفناء العمر وانقضائه ، وذلك في قوله: [1]

قَدْ بَلَغْتَ السِّتِّينَ وَيْحَكَ فَاعْلَمْ	أنَّ مَا بَعْدَهَا عَلَيْكَ تَلَوَّمْ
0/0//0/ 0//0/0/ 0/0///	0/0//0/ 0//0// 0/0///
فاعلاتن مستفعلن فعلاتن	فاعلاتن متفعلن فعلاتن
فَإذا مَا أنْقَضَتْ سِنُوكَ وَوَلَّتْ	فَصَلَ الْحَاكِمُ الْقَضَاءَ فَأَبْرَمْ

وخلاصة القول إنّ الشاعر أبا إسحاق الإلبيري كغيره من الشّعراء العرب القدامى، حافظ على الأوزان الخليلية ، وسعى جاهدا إلى توفير النّغم الموسيقي المنبثق من هذه الأوزان ، و محمِّلا إيَّاها معانيه وأحاسيسه المتراكمة ، والتي ضاق بها عالمه النفسي، و بلغنا صداها من خلال قصائده الزهدية المتناثرة في صفحات ديوانه الشّعري.

2/3 القافيـة:

تعدّ القافية من الضَّرورات الحتمية في النّص الشعري ، إذ إنّها عنصر جوهري في الصوت الموسيقي ، فتكرارها يكون جزءا هاما من الموسيقى الشعرية ، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية التي يتوقّع السَّامع تردّدها ، ويستمتع بهذا التّردد الذي يطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة.[2]

فهي إذن ركن أساسي من أركان القصيدة وحد من حدود الشعر، إذ لا يسمَى الشعر شعرا إلاَّ إذا كان له وزن وقافية، [3] لذا أولاها النّقاد العرب القدامى والمحدثون عناية كبيرة، منهم واضع علم العروض الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي حدَّدها في

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.50

(2) إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر.246

(3) ابن طباطبا: عيار الشعر .تح. محمد زغلول سلام.دار المعارف. الإسكندرية . مصر.ط3. دت.ص43

قوله: ((إنَّها آخر حرف في البيت إلى أوَّل ساكن يليه مع ما قبله))،[1] كما حدَّدها موسى الأحمدي نويوات في كتابه . المتوسط الكافي في علم العروض والقوافي . في قوله:((القافية عبارة عن السَّاكنين اللَّذين في آخر البيت مع ما بينهما من الحروف المتحرّكة، ومع المحرَّك الذي قبل الساكن الأول)) .[2]

أمّا سبب تسميتها بالقافية ، فلأنَّها تقتفي الكلام أي تجيء في آخره .[3]

فمجموع هذه التّعاريف السّالفة تحدّد موقع القافية في البيت الشعري، وتبيِّن حروفها، فهي جزء من الوزن وشريكته في الاختصاص بالشعر .[4]

وأمّا عن مكانتها عند الشاعر الزاهد أبي إسحاق الإلبيري، فقد عني بها لحرصه الشَّديد على الوزن الموسيقي ، حيث تبيّن لنا عند استقصاء شعره الزهدي، أنَّه كان يلتزم بالقافية الموحّدة في القصيدة الواحدة ، مهما طالت القصيدة أو قصرت، والتزامه بالقافية يصحبه التزام بوحدة الرّوي ، إذ أنَّه لم يلجأ إلى التَّنويع لا في القوافي ولا في الرَّوي.

والمتتبّع لشعره يجد أنَّه استعمل القوافي المطلقة والمقيّدة ، لكنَّه للقوافي المطلقة أكثر استعمالا من المقيَّدة ،مثال ذلك قصيدته التّائية التي جاءت في مائة وثلاثة عشر بيتا "113" كلّ قوافيها مطلقة ورويّها حرف التاء.

من هذه القصيدة نستشهد بقول الشاعر:[5] (من الوافر)

تَفُتُّ فُؤادَكَ الأَيَّامُ فَتّا وتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَات نَحْتَا

فالقافية هنا جاءت مطلقة متحرّكة الرّوي ، والإطلاق يساعد على امتداد الصوت ، والرَّوي هنا هو "التاء" وهي حرف من حروف الهمس هادئ الصوت.

---

(1) إميل بديع يعقوب: المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر .دار الكتب العلمية .بيروت لبنان.ط1 . 1991. ص347.

(2) موسى بن محمد المليانى الأحمدي نويوات : المتوسط الكافي في علم العروض القوافي. المؤسسة الوطنية للكتاب.الجزائر .ط3. 1983.ص353.

(3) إميل بديع يعقوب: نفسه.347

(4) ابن رشيق : العمدة.ج1. 151

(5) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان.19

فالشاعر في هذه القصيدة اعتمد أسلوب الوعظ والنّصح والتّوجيه ، وفي اعتقادنا أنّ أحرف الهمس هي الأنسب في هذا المقام ، لأنّ الهمس يشعر السّامع بالأمان والاطمئنان ، ممّا يجعله أكثر تركيزا وإنصاتا.

ومن القوافي المطلقة كذلك ما ورد في قول الشاعر: [1] (من الوافر)

تُغَازِلُنِي الْمَنِيَّة مِنْ قَرِيبٍ وَتَلْحَظُنِي مُلاَحَظَةَ الرَّقِيبِ

وَتَنْشُر لِي كِتَابًا فِيهِ طَيِّي بِخَطِّ الدَّهْرِ أَسْطُرُهُ مَشِيبِي

فالقافية هنا أيضا جاءت مطلقة . متحرّكة الرّوي . والرّوي هنا هو الباء ، وهي حرف مجهور ذو رنين واهتزاز ،، وكأنّي بالشاعر يريد أن يرهبنا بالموت ويذكّرنا بحقيقته التي لا يمكن إخفاؤها أو الفرار منها .

ومن القوافي المقيّدة . رويّها ساكن . التي وردت في شعر أبي إسحاق الإلبيري، قوله : [2] (من الخفيف)

قَدْ بَلَغْتَ السِّتِّينَ وَيْحَكَ فَاعْلَمْ أَنَّ مَا بَعْدَهَا عَلَيْكَ تَلَوَّمْ

فَإِذَا مَا انْقَضَتْ سِنوكَ وَوَلَّتْ فَصَلَ الْحَاكِمُ الْقَضَاءَ فَأَبْرَمْ

فقد قيَّد الشاعر قافيته بروي ساكن وهو حرف الميم ، والميم من الحروف الجهرية متوسطة الشّدة ، [3] وهو ما يلائم أسلوب الوعظ الذي يعتمد اللّين أحيانا في بعض المواضع ، والحدّة في مواضع أخرى ، كما يصلح لمواقف الوصف والخبر.[4]

إنّ استخدام الإلبيري للقافية المطلقة، و التي وردت في ستة وعشرين قصيدة زهدية من أصل تسعة وعشرين، أي بنسبة مئوية تقدر بـ 89.65 % ، والقافية المقيّدة في ثلاثة قصائد زهدية ، أي بنسبة مئوية تقدر بـ 10.34 % ، يتّفق

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.31

(2) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه.50

(3) سالم عبد الرزاق سليمان المصري:شعر التصوف في الأندلس. 343

(4) حسين الحاج حسين :أدب العرب في عصر الجاهلية .المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع . بيروت .ابنان. ط1. 1984. ص 199.

واستخدام القدامى للقوافي المطلقة ، فالشعر العربي ينزع إلى القافية المطلقة أكثر من نزوعه إلى القافية المقيدة. (1)

ومن العناصر المكوّنة للقافية حرف له تأثير على أذن السّامع ، حرف له السلطة المطلقة على موسيقى الشعر، يتمثّل في حرف الرّوي.

3/3 الـرَّوي:

أطلق أهل العروض اسم الرّوي على ذلك الصّوت الذي تبنى عليه الأبيات، ويتمركز آخر القافية ، ولا يكون الشعر مقفّى إلاَّ إذا اشتمل على هذا الصوت المكرّر في أواخر الأبيات. (2)

وإذا تصفّحنا قصائد الزهد للإلبيري لوجدناها قد بنيت على أهمّ حروف الرّوي، وهي(:ب.ت.ح.د.ر. ز.ف.ك .ل.م.ن.هـ).

والرّوي الغالب في هذه القصائد هو حرف "النّون "، إذ ورد في خمس قصائد زهدية ، وهو من الحروف الجهرية ، التي تداعب الأوتار الصوتية فتعزف سيمفونية حزينة مشبعة بالأنين والآهات التي كابدها الشاعر ، ولعلّ هذا الجدول الإحصائي يعطي صورة تقريبية لأهمّ أحرف الرّوي التي وردت في قصائد الزهد للإلبيري.

حرف الروي	عدد القصائد	النسبية المئوية %
ب	2	06.90
ث	4	13.80
ح	1	03.44
د	2	06.90
ر	2	06.90
ز	1	03.44

(1) سالم عبد الرزاق سالم : شعر التصوف في الأندلس .340

(2) إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر . 249

ف	1	03.44
ك	2	06.90
ل	4	13.80
م	3	10.34
ن	5	17.24
هـ	2	06.90
12	29	% 100

من خلال هذا الجدول ، يتبيّن لنا أنّ الشاعر أبا إسحاق الإلبيري استعمل اثنتي عشر حرفا (12) من حروف الهجاء رويّا لقوافيه ، إذ لم يهمل من الحروف الكثيرة الاستعمال سوى : الجيم .العين . السين . القاف. الهمزة ، ومن الحروف القليلة والنّادرة الاستعمال مثل: الصاد.الضاد. الطاء. الظاء. الذال. الغين. الخاء. السين. الواو. [1]

كما يتجلّى لنا كذلك من خلال هذا الجدول ، أنّ هناك حروفا هجائية كثيرة الشّيوع في شعره الزهدي وهي : التاء.اللام.الميم.النون.تتقارب في نسبة الاستعمال ، وكأنّ الشاعر عمد في هذا التّقارب إلى التنويع في الموسيقى من خلال تنويع الأصوات التي تمثّلت في تنوّع أحرف الرّوي .

كما يكشف لنا هذا الجدول أيضا عن تقارب نسبي آخر تمثّل في نسبة استعمال الحروف المجهورة والحروف المهموسة ،والذي نوضّحه في هذا الجدول.

المجهورة	ب.د.ر.ز.ل.م.ن	7	% 58.33
المهموسة	ت.ح.ف.ك.هـ	5	% 41.66

(1) إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر.248

وما يلاحظ على هذه الحروف المنتخبة رويًّا ، أنّها حروف ذات وقع قويّ على النّفس والسّمع ، وذلك يتلاءم مع الحالة النّفسية للشاعر،التي ميّزها الخوف والرّجاء والتّوبة إلى خالقها خاشعة طائعة.

فالشعر إذن يستمدّ قيمته من قدرته على إثارة المشاعر والأحاسيس بفضل موسيقاه العذبة النّاجمة عن الوزن والقافية وانسجام الحروف ومخارجها،[1] وهنا تبرز أهمية ظاهرة صوتية أخرى الممتثّلة في التّصريع، والتي تؤدي دورا هاما في تأليف النّغم الموسيقي ، فما هو التصريع ؟ وما مدى اهتمام الشاعر الزاهد أبي إسحاق الإلبيري به؟.

4/3 التَّصريع :

التّصريع عبارة عن جعل مقطع المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها، [2]وهو من الظّواهر الفنِّية التي لفتت انتباه النّقاد أثناء دراستهم للوزن، وقد أقبل عليه الشعراء فصرّعوا مطالع قصائدهم وتعدّوا ذلك إلى جعله وسيلة من وسائل الرّبط بين موضوعاتهم، حتّى يظنّ الدّارس للشعر القديم أن التّصريع ضرورة شعرية لا يمكن مخالفتها، وعدّه النقاد القدامى دليلا على مقدرة الشاعر وسعة فصاحته.[3]

وأبو إسحاق كغيره من شعراء الزهد في الأندلس لم يشذ عن الشعراء العرب القدامى، فقد اقتفى أثرهم وسار على نهجهم ، فجاءت معظم مطالع قصائده مصرّعه[4] ،ومن الشواهد على ذلك قوله في وصف أهل النّار : [5]

وَيْلٌ لأَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ مَاذَا يُقَاسُونَ مِنَ النَّارِ

(1) سيد قطب : النقد الأدبي أصوله ومناهجه.دار الشروق.بيروت .لبنان.دت.ص66

(2) قدامه بن جعفر: نقد الشعر.86

(3) ابن رشيق: العمدة.ج1. 174

(4) زينب بوصبيعة: مجلة دراسات أدبية وإنسانية.ع2. 172

(5) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.90.

الملاحظ أنّ كلمة " النّار" جاءت في العروض والضّرب، وهي قافية القصيدة كلّها والبالغ عدد أبياتها ثمانية وثمانين (88) بيتا، فالشاعر لم يكتف بتوحيد الرّوي ، بل أعاد اللّفظة نفسها في الشّطر الأوّل والثّاني في مدخل القصيدة ، ثم كرّر لفظة النّار في قافية كلّ بيت من أبياتها ، الأمر الذي يظهر مقدرة الشاعر على حسن النّظم وحبك المعاني وجعلها منسجمة مع الألفاظ ، ممّا يجعل المتلقّي لا يشعر بأيّ انفصام في المعنى قد يحدثه سوء إقحام التّكرار ، بل العكس من ذلك ، فقد جعلنا الشاعر نحسّ مع كلّ لفظة أنّها جديدة تحمل معنى جديدا يكمل المعنى السّالف ، فنستسيغها ونستعذبها.

وفي قصيدة أخرى للشاعر الزّاهد أبي إسحاق الإلبيري ، وهي قصيدة طويلة اختار لها لفظ الجلالة "الله" قافية و تصريعا نجد الظّاهرة نفسها تتكرّر ، والتي يقول في مطلعها : [1]

يَا أَيّهَا الْمُغْتَرُّ بِاللهِ فَرَّ مِنَ اللهِ إِلَى اللهِ

فقد جاء مطلع القصيدة مُصرّعا ، كما تكرَّر لفظ الجلالة " الله" في البيت ثلاث مرّات ، وهو ما يعطي الانطباع بأنَّ الشاعر في حالة خشوع وتضرّع لربّه ، كما نرى أنّ الشاعر من خلال بنائه لهذه القصيدة على لفظ الجلالة، قد ألزم نفسه بما لا يلزم، ومع ذلك لا نشعر بتكلّف أو تصنّع منه أثناء قراءة القصيدة ، بل خلاف ذلك فقد منح التّكرار هنا للقصيدة جرسا موسيقيا عذبا ، وأضفى عليها سمة روحية طابعها التّسبيح والتّهليل ، يحسّ القارئ أنّه في رحاب ربّه خاشعا محتسبا.

ومن ملامح التّصريع كذلك ما جاء في قول الشاعر معرّضا بالنّفس لميلها إلى الباطل المتمثّل في حب الدنيا ، ويهيب بالعاقل أن يزهد فيها ويحقّرها ، فيقول: [2]

مَا أَمْيَلَ النَّفْسَ إِلَى الْبَاطِلِ وَأَهْوَنَ الدُّنْيَا عَلَى الْعَاقِلِ

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.65

(2) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه.59

فقد تمثَّل التّصريع في عروض البيت " الباطل" التَّابعة لضربه " العاقل" ، فكلاهما ينتهي بحرف (اللام) المكسورة ، مبرزا من خلالها نغما موسيقيا داخليا شكَّله هذا التَّناظر بين شطري البيت ، و الأمر نفسه إذا جئنا إلى مطلع رائيّته التي يقول فيها:[1]

لاَ قوَّةٌ لِي يَارَبِّي فَانْتَصِر وَلاَ بَرَاءَةٌ مِنْ ذَنْبِي فَأَعْتَذِر

يتّضح من هذه النماذج المُصرّعة أنّ الشاعر أبا إسحاق الإلبيري حرص على استعمال التّصريع في مطلع قصائده الزّهدية بشكل جليّ، يجعلنا نعدّه من أبرز الظواهر الصوتية في شعره ، ولعلَّ هذا الجدول الإحصائي البسيط يدعّم هذا الحكم ، والذي نجمل فيه عدد القصائد الزهدية المصرّعة في البيت الأول.

عدد القصائد الزهدية	القصائد المصرّعة	القصائد غير مصرّعة
29	21	08
النسبة المئوية %	% 72.41	%27.59

فهذا الجدول يوحي بأنَّ التّصريع قاعدة عامّة لدى الإلبيري ، شأنه في ذلك شأن شعراء الزهد [2] في بناء نصوصهم الشعرية، الأمر الذي يدل على نباغة الشاعر وتحكمه في بلاغته وسعة فصاحته .[3]

وحتى تتّسم دراستنا بالعمق والإحاطة ،وجب علينا أن نبحث في الإطار الأكثر خصوصية والتصاق بالنص وموضوعه ، وهو إطار الموسيقى الدّاخلية ، والتي تنتج عن كيفية اختيار الشاعر للكلمات وترتيبها ، فبهذه الموسيقى يتفاضل الشعراء، [4] وبها تبرز خصوصية موضوعاتهم أيضا.

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.117

(2) زينب بوصبيعة :مجلة دراسات أدبية.174

(3) يوسف حسين بكار: بناء القصيدة في ضوء النقد العربي القديم .دار الأندلس .بيروت .لبنان.ط2. 1982. ص74 .

(4) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي.دار المعارف .القاهرة .مصر.ط6 .دت. ص 78.

ونظرا لصعوبة تحديد هذا النّوع من الموسيقى ، فإنّنا سنتوقف عند بعض التّوازنات الصّوتية ، لنحاول التّعرف على مدى نجاح الإلبيري في تكييف موسيقى قصائده الزّهدية ذات الطابع الدّيني والتّربوي والإصلاحي.

وأمام تشعّب عناصر هذا النوع من الموسيقى كذلك وتداخلها ، فإنّنا سنكتفي بالإشارة إلى عنصرين بارزين في قصائده الزهدية وهما: التّجنيس و التّكرار.

5/3 التّوازنات الصّوتية :

يُنظر إلى الشعر العربي القديم كعيِّنة ثريّة بالتّأثيرات الصّوتية التّعبيرية ، والتي لا تظهر إلاّ إذا ساعفتها العوامل الدّلالية ، فإن لم تسعفها ، بقيت في الظل وتخلّت عن دورها.[1]

وهذا ما سنحاول الوقوف عليه من خلال تفكيك بعض الشّفرات الصّوتية التّعبيرية الملتقطة، والتي أرسلتها قصائد الزهد للإلبيري، محاولين بذلك رصد مميّزاتها الصّوتية وخصائصها الإيقاعية الدّاخلية ، بالوقوف على أهمّ المقوّمات التي تشكّل ما يسمى بالإيقاع الدّاخلي ، والتي تتمثّل في ظاهرتي التّجنيس والتّكرار.

5/3 /1 :التّجنيس :

عني القدامى بالتّجنيس ، فأعطوا له عدّة مفاهيم متقاربة ، كعبد القاهر الجرجاني الذي عرَّفه بقوله:((أمّا التَّجنيس فإنّك لا تستحسن تجانس اللَّفظتين إلاَّ إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا))،[2] فالجرجاني لا يستحسنه إلاّ إذا كان اللّفظ خادما للمعنى ومساعدا له.

لكن يبدو أنّ النّقاد العرب القدامى استقرّوا على تعريف له، ومفاده أن يتَّفق اللّفظان في النُّطق ويختلفان في المعنى.[3]

---

(1) شكري محمد عياد :اتجاهات البحث الأسلوبي .أصدقاء الكتاب للنشر والتوزيع .مصر. ط2. 1996.ص34

(2) عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة. ص8 .

(3) عبد الرحمن تبرماسين :البنية الإيقاعية للقصيدة المعاصرة في الجزائر.دار الفجر للنشر والتوزيع.القاهرة. مصر. ص229.

وبعيدا عن هذه التّعاريف وإشكالاتها، يجدر بنا أن ننقّب عن مكامن هذا الصوت وانزواءاته، وتأثيراته الإيقاعية في شعر الزهد للإلبيري.

يُمثِّل التّجنيس ركنا أساسيا من أركان الإيقاع في شعر الزهد لأبي إسحاق الإلبيري، فهو لجأ إليه في بعض المواضع نظرا لما يمدّه من إيقاع موسيقي تطرب له الآذان وتستمتع به [1]،ومن الشَّواهد على ذلك قوله:[2]

نَسِيتَ يَوْمِي وَطُولَ نَوْمِي وَسَوْفَ تُنْسَى كَمَا نَسِيتْ

فالجناس الناقص يبدو في لفظتي (يومي ونومي) .

وفي شاهد آخر تجلّى فيه التّجنيس، والذي تمثَّل في قول الشاعر في وصف حقيقة الدنيا، فيقول: [3]

وَلَمْ تخْلَقْ لِتَعْمرَهَا وَلَكِنْ لِتَعْبُرَهَا فَجِدَّ لِمَا خُلِقْتَا

فالجناس الناقص بدت ملامحه في الألفاظ التالية: (تعمرها . تعبرها) .

ومن الشَّواهد كذلك التي ورد فيها الجناس الناقص ، قول الشاعر: [4]

وأيُّ مَعْنَى لِحُسْنِ مَغْنَى لَيْسَ لأَرْبَابِهِ ثُبُوتْ

فمن الواضح ورود الجناس الناقص في لفظتي (معنى . مغنى).

ومن أنواع الجناس الأخرى التي وظَّفها الإلبيري ، ما يطلق عليه جناس القلب ، والذي يظهر في قوله: [5]

يَا مَنْ رَأَى لِي عَالِمًا عَامِلاً فَالْزَمُ الْخِدمَةَ لِلْعَامِلِ

---

(1) سالم عبد الرزاق سليمان المصري: شعر التصوف في الأندلس.346

(2) أبو إسحاق الإلبيري:الديوان.63

(3) أبو إسحاق الإلبيري:نفسه.24

(4) أبو إسحاق الإلبيري:نفسه. 62

(5) أبو إسحاق الإلبيري:نفسه.59

فهذا البيت اشتمل على جناس القلب، الذي ورد في لفظتي (عالما . عاملا) .

أما الجناس التّام الذي ورد بقلّة قليلة في قصائد الزهد للإلبيري فهو أقرب للنُّدرة، أمّا عدا ذلك فومضات تجنيسية شحّيحة لا ترقى إلى مستوى توفّر الجناس النّاقص ، الذي توفّر بشكل أفضل ، ومن الشّواهد التي ورد فيها الجناس التام ، قول الشاعر: (1)

لَوْ شُغِلَ الْمَرْءُ بِتَرْكِيبِهِ كَانَ بِهِ فِي شُغْلٍ شَاغِلِ

ويبدو الجناس التام في لفظتي (شغل . شغل) ، فاللفظتان اتفقتا لفظا واختلفتا في المعنى.

هذه بعض الأمثلة التي استقيناها من قصائد الزهد للإلبيري ، والتي تشير إلى مقصدنا في الاستشهاد بها كعيّنة استدلالية على اعتماد الشاعر أبي إسحاق الإلبيري الجناس كمصدر ثراء إيقاعي في بعض قصائده الزّهدية، خاصة الجناس الناقص الذي حفلت به معظم قصائده، والذي نعدُّ استخدامه من لدن الشاعر إدراكا منه لما له من أثر في النّفوس ولفت للانتباه ، الذي ينجم عن النّغم الموسيقي الذي يحدثه في النص الشعري.

2/5/3 التّكرار:

يعدّ التّكرار ظاهرة لغوية من حيث اعتماده . في صوره البسيطة والمركّبة . على العلاقات التّركيبية بين الكلمات والجمل ، وهو يعدّ وسيلة بلاغية ذات قيّم أسلوبية.

والمراد بالتّكرار كما أسلفنا الذّكر في محور اللّغة، هو إعادة كلمة أو عبارة

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان.60

بلفظها ومعناها في موضع آخر، ومواضع متعدّدة،[1] فهو من الأساليب التّعبيرية التي تصوّر اضطراب النّفس ،وتحدّد مستوى تصاعد انفعالات الشاعر، ويعتمد الحروف المكوّنة للكلمة وعلى حركاتها أيضا في الإشارة ، إذ بمجرد تغيير حركة يتغيّر المعنى ويتغيّر النّغم. [2]

ويمكن لدارس الشعر أن يتلمس مواطن التّكرار فيه ، بالوقوف على مستويات منها: الحرف و الكلمة، وهي الخطوة التي ارتضينا أن نخطوها للوصول إلى هذه البؤر التّكرارية في شعر أبي إسحاق الإلبيري ، قصد تعرية هذه الظّاهرة لإبراز مفاتنها للمتلقّي الذي يستهويه كل جميل.

1/2/5/3: تكرار الحرف:

التفت الشاعر أبو إسحاق الإلبيري إلى ظاهرة التّكرار من خلال إعادته لوحدات صوتية معينة ، جعلت نصّه الشّعري حافلا بالإيقاعات المتنوّعة، التي أثرت الجانب الإيحائي والتّعبيري فيه.

وما يلاحظ على شعر الإلبيري استخدامه لحروف معيّنة بكثافة تفوق حروف أخرى، فقد يعزِّز حرف القافية بتكثيف الحرف ذاته في حشو الأبيات ، أو يكثّف استخدام حروف معيّنة في حشو الأبيات مع اختلاف حرف القافية، وبيان ذلك تمثيلا قول الشاعر في قصيدة زهدية تألّفت من أربعة عشر بيتا(14)، ننتخب منها قوله:[3]

أاحُورُ عن قَصْدي وقدْ بَرَح الخَفَا ... وَوَقَفْت عَلى عُمْري القَصِيرعلى شَفَا
وَأَرَى شُؤُون العَينِ تُمْسِك ماءها ... ولَقَبْلُ مَا حَكَت السَّحَابَ الْوُ كَّفَا
وأَخال ذاك لَعِبرَة عرَضَت لهَا ... مِنْ قَسْوَة فِي القَلَبِ أشْبَهت الصَّفَا
وَلَقَلَّ لِي طُول البُكاءِ لِهَفْوَتِي ... فَلَرُبَّمَا شَفَعَ البُكَاءُ لِمَنْ هَفَا

(1) رمضان الصباغ: في نقد الشعر العربي المعاصر –دراسة جمالية– . 211.
(2) عبد الرحمن تبرماسين :البنية الإيقاعية للقصيدة المعاصرة في الجزائر.194.
(3) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.45

إنَّ المَعاصِي لاَ تُقِيمُ بِمَنْزِل إلاَّ لِتَجْعلَ مِنْه قَاعًا صَفْصَفَا
وَلَوْ أَنَّنِي دَاوَيْتُ مِعْطَبَ دَائِهَا بِمَرَاهِمِ التَّقْوَى لَوَافَقَت الشِّفَا

فقد لجأ الشاعر في هذه الأبيات من القصيدة إلى تكرار حرف القاف في اثنتي عشرة لفظة هي: (قصدي، قد، وقفت، القصير، قبل ، قسوة، القلب، قل، تقيم، قاعا، التقوى، وافقت) ، وحرف القاف في ذاته يحمل قدرا من القوّة والقسوة والخشونة يزيد من صعوبة الكلمة. (1)

ولعلّ تكرار القاف إلى جوار ما يحمله من دلالة صوتية ، ينسجم مع الدّلالة التي يحملها النّص ويعمّقها ويؤكّدها، فتطلّع الشاعر أبي إسحاق الإلبيري إلى المغفرة والعفو الإلهي يدفعه إلى تعنيف نفسه، والتي يرى فيها العائق الأكبر الذي يجب اجتيازه كي يصل إلى دار الخلد والرضوان، وهو ما عبّرت عنه كلمة " قصدي".

وفي القصيدة ذاتها تبدو كثافة مماثلة لصوت القاف، المتمثّلة في صوت التاء، وهو صوت شديد مهموس. (2)

وهكذا يجمع الشاعر في هذه القصيدة بين حرفين مهموسين أحدهما فيه قيمة تفخيمية "القاف" والثاني يميل إلى التّرقيق، (3)فهما صوتان يحملان حقيقة الألم المتولّد من الحالة الوجدانية التي يعانيها الشاعر.

ومن الأصوات الاحتكاكية التي اعتنى بها الشاعر ، والتي تنتمي إلى أصوات الصّفير، ما ظهر في هذه القصيدة الزّهدية ذات الثلاثة عشر بيتا ، والتي ننتخب منها هذه الأبيات كعيّنة استشهادية ، والتي يقول فيها: (4)

مَا أَوْعَظ القَبْرَ لَوْ قَبِلْنَا مَوْعِظَةَ النَّاطِقِ الصَّموتِ

---

(1) إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر.31

(2) إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية. المكتبة الانجلو مصرية.القاهرة.مصر.ط5. 1979. ص61.

(3) أماني سليمان داود : الأسلوبية والصوفية دراسة في شعر الحسن بن منصور الحلاج.وزارة الثقافة. عمان .الأردن.ط 1. 1423 هـ - 2002م.ص77

(4) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.63.

يُوحِي إلَى مُمْتَطِي الحَشايَا مَالَكَ عَنْ مَضْجَعِي عَمِيتْ
نَسِيتَ يَوْمِي وَطولَ نَوْمِي وَسَوْفَ تُنْسَى كَمَا نَسِيتْ
وَشِدْتَ يَا هَادِمِي قُصورًا نَعِمْتَ فِيهِنَّ كَيْفَ شِيتْ
مُعْتَنِقا لِلحِسانِ فِيهَا مُسْتَنْشِقًا مِسْكَهَا الْفَتِيتْ
تَسْحَبُ ذَيْلَ الصِّبَا وَتَلْهُو بِآنِسَاتٍ يَقُلْنَ هِيتْ

فقد تكرّرت أصوات الصّفير في حشو هذه الأبيات بشكل جليّ ، ممثّلة في أحرف(السّين ،الصاد ، الشين ،الفاء) مما أكّد القيمة التّعبيرية لها.

فحرف السّين في هذه الأبيات تكرّر تسع مرّات في الحشو مُمثّلا في هذه الألفاظ (نسيتَ، سوف، تنسى، نسيتْ، الحسان ،مستنشقا، مسكها، تسحب ، مستنشقا) بالإضافة إلى حرف الشّين المُمثّل في الألفاظ التالية:(حشايا، شدت، شيت، مستنشقا)، فهذان الصّوتان يمتازان بصفيرهما العالي .

ولعلّ صوت النّون أوضح الأصوات المجهورة التي شاعت في شعره ، ويعرف من أمرها أنّها ترتبط بالبكاء وما يسببه ، مثلما أنّها تناسب في قيمتها الإيقاعية مع التّعبير عن هذا المعنى وأدائه،[1] وما يُمثّل شيوع هذا الصوت عند الإلبيري ، ما ورد في هذه القطعة الشّعرية ذات الأربعة أبيات ، والتي يقول فيها : [2]

كُلّ امْرِئٍ فِيمَا يدِين يُدان سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَخْلُ مِنْهُ مَكَانُ
يَا عَامِرَ الدُّنْيَا لِيَسْكُنَهَا وَمَا هِي بِالَّتِي يَبْقَى بِهَا مَكَانُ
تَفْنَى وَتَبْقَى الأَرْضُ بَعْدَكَ مِثْلَمَا يَبْقَى الْمَنَاخُ وَتَرْحَلُ الرُّكْبَانُ
أأسَرُّ في الدُّنيا بكلِّ زيادة وزيادتي فيها هي النقصان !

والملاحظ أنّ هذا الصّوت قد استأثر بالقافية ، كما تكرّر في الحشو أربعة عشر مرَّة ، الأمر الذي طبع هذه القطعة الشّعرية بمسحة أنين حزينة أوحى بها النّغم الموسيقي الذي أثاره تكرار صوت النّون، فالشاعر على مدار هذه الأبيات يصف

(1) أماني سليمان داود : الأسلوبية والصوفية. 85
(2) أبو إسحاق الإلبيري : الديوان.119

. دون تصريح . حالته النّفسية المفعمة بالألم والخوف ، وهي مشاعر ينبض بها كلّ بيت ، وينسجم فيها مع صوت النّون.

هذه بعض الأصوات المُدندنة في شعر الزهد للإلبيري ، اقتطفناها كما تقتطف الأزهار من الرَّوض الكثيف الزهر، غايتنا التّدليل على الوجود ، وليس إحصاء لكل الموجود، لأنّه من الصُّعوبة أن تستوفي هذه الدّراسة كلّ الأصوات الإيقاعية الفاعلة في النّص الزُّهدي للشاعر، لكثافتها وانتشارها بين زوايا قصائده الزّهدية.

2/5/3 /2: تكرار اللَّفظ:

شعر الزهد للإلبيري جملة واسعة من الألفاظ المكرّرة ، سواء في البيت الواحد أم في قصيدة بعينها، وهي بهذا التّكرار والحضور تحقّق قيمة إيقاعية واضحة من خلال نبضاتها المتكرّرة التي تثير التّأمل ، و تعدّ سببا لرصد معجمه الشعري، وولوج عالمه الدّلالي.

وما يمكن أن يوضّح هذه الظاهرة الإيقاعية قوله في قصيدة مؤلّفة من خمس وخمسين بيتا . سبق وأن أشرنا إليها في محور اللّغة . ختم أبياتها بلفظ الجلالة "الله"، فيقول: (1)

يَا أَيُّهَا الْمُغْتَرُّ بِاللهِ فَـرَّ مِنَ اللهِ إِلَى اللهِ
وَلُذْ بِهِ وَاسْأَلْهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ نَجَا مَنْ لاَذَ بِاللهِ
وقُمْ و اللَّيْلُ فِي جِنْحِهِ فَحَبَّذَا مَنْ قَامَ للهِ
وَاتْلُ مِنَ الْوَحْيِ وَلَوْ آيَةً تُكْسَى بِهَا نُورًامِنَ اللهِ
وَعَفِّرِ الوَجْهَ لَهُ سَاجِدًا فَعَزَّ وَجْـهٌ ذَلَّ للهِ

في هذه القصيدة ،والتي اخترنا منها بعض نماذج التّكرار فيها ، نجده يكرّر لفظ الجلالة "الله" سبع مرات، وذلك لتأكيد الحالة الرّوحية والنّفسية التي انتابت الشاعر، وهي حالة خشوع وخضوع لربِّ العزَّة ، وعلى هذا اللّفظ المقدّس ، بنيت القصيدة كلّها، فهذا التّكرار منحها جرسا موسيقيا عذبا، وأضفى عليها جوّا روحيا خاصا

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان.65

وهالة من الخشوع ، فخرجت إلى طابع التّسبيح والتّهليل.

إنَّ التّكرار في هذه الأبيات جاء على شكل تكرار للّفظة الواحدة داخل البيت الواحد (من الله إلى الله) و(لذ . لاذ) و(قم . قام) ، الأمر الذي نعدّه استقلالا إيقاعيا للبيت الواحد عن إيقاع النص الشّعري ، لكن دون إخلال منه بالتّركيبة الإيقاعية العامة لهذا النّص، ومثل هذا النّوع من التّكرار شائع في شعر الإلبيري بشكل مثير للانتباه ، والقصيدة الآتية أصدق مثال على ذلك ، والتي يقول في بعض أبياتها: (1)

وَيْلٌ لأَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ مَاذَا يُقَاسُونَ مِنَ النَّارِ
تَنْقَدُّ مِنْ غَيْظٍ فَتَغْلِي بِهِمْ كَمِرْجَلٍ يَغْلِي فِي النَّارِ

فالتّكرار اللّفظي في البيت الأول ، والذي شكّلته لفظة " النّار" التي تكرّرت ثلاث مرّات في بيت واحد ، وفي البيت الثاني شكّلته لفظتي " يغلي.تغلي" .

والشكل الثاني من التّكرار الذي استخدمه أبو إسحاق الإلبيري، هو تكرار اللّفظة الواحدة في بيتين أو ثلاثة ، وهو ما يمثّله هذان البيتان للإلبيري من القصيدة نفسها ، فيقول : (2)

يَطُوفُ مِنْ أَفْعَى إِلَى أَرْقَمٍ وَسُمُّهَا أَقْوَى مِنَ النَّارِ
وَكَمْ بِهَا مِنْ أَرْقَمٍ لاَ يَنِي يَلْسَعُ مَنْ يُسْحَبُ فِي النَّارِ

فالتّكرار هنا مثّلته لفظة " أرقم" التي وظّفها الشاعر في البيت الأول والثاني ، لغرض تفسيري لصورة غيبية مبهمة لجهّنم ، فجاء التّكرار لإزالة الغموض وتأكيد المعنى، في طابع سردي القصد منه التّخويف والتّرهيب من سوء المصير الذي قد يؤول إليه الإنسان الغافل عن أمر ربه.

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان .90

(2) أبو إسحاق الإلبيري:نفسه. 90

كما جاء التّكرار في شعر الزهد للإلبيري في لون آخر مغاير لما سلف ، وهو ما اصطلح عليه التّكرار المعنوي ، والذي يتمثّل في تكرار اللّفظة ومعناها في السّياق الواحد، وهو ما يمثّله هذا البيت للشاعر في وصف الغافل عن هول النّار، فيقول: [1]

وَاعَجَبًا مِنْ مَرِحٍ لاَعِبٍ يَلْهُو وَلاَ يَحْفِلْ بِالنَّارِ

فقد ورد التّكرار في لفظتي (مرحٍ . لاعب) اللّتين دلّتا على معنى التعجب ، الذي أبداه الشاعر من أمر هذا الإنسان الغافل الذي يقضي عمره في اللّهو والمرح ، ولا يدري أن عمره ينقضي ولا يعود ، ولا يبقى له إلاّ العمل الصّالح الذي يعصمه من النّار.

ومن الشّواهد كذلك التي ورد فيها هذا النوع من التّكرار ، قول الشاعر في ذمّ الدنيا لغدرها بأهلها، فيقول : [2]

وَتَعْرَى إِنْ لَبِسْتَ لَهَا ثِيَّابًا وَتُكْسَى إِنْ مَلاَبِسَهَا خَلَعْتَا

والتّكرار المعنوي يبدو في لفظتي (تعرى . خلعتا) و (تكسى . لبستا)، فالتّكرار الذي ورد في هذه الألفاظ ، يثبت مقصدية الشاعر في التّزهيد في الدنيا التي خبر عيوبها وتكشّفت له عوراتها ، لذلك يدعو إلى مخالفة سيرها وعدم الامتثال لها ، لأنّ الغدر طبعها ، فكيف الوثوق بمن تحلى بهذه الصفة السيئة.

وخلاصة القول ، إنّه من خلال ما تقدّم نستنتج أنّ التّكرار وسيلة تعبيرية امتطاها الشاعر ليبلغ مقصده الزهدي في الدنيا ومتاعها ، وليحمّلها إفرازاته الفكرية التي صقلتها تجاربه في الحياة ، ليقدّمها للمتلقي في تركيب إيقاعي جمالي ينبع من هذا المُوَظَّف الصوتي الذي استوطن بين جنبات شعره الزهدي ، وأضفى عليه خصوصية متميّزة.

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري: الديوان .91

(2) أبو إسحاق الإلبيري: نفسه.24

بعد هذه الرّحلة الاستكشافية في ربوع شعر الزهد لأبي إسحاق الإلبيري ، يجمل بنا أن نقف وقفة قصيرة لنكشف عن الجوانب التي استكشفتها الدراسة،ونلقي نظرة على أبرز النتائج التي توصلنا إليها، والتي نجملها في محورين أساسين.

أ/النتائج الفكرية:

1. إنَّ الزهد نزعة إنسانية روحية سامية ، شغف بها الإلبيري وانتصر لها لارتباطها بعقيدته الدينية ،والتي سعى من خلالها إلى إدراك غايته الواحدة ،وهي الظَّفر بحب الله ورضاه ،لذلك اتَّسم شعره بالثّورة على ما شاب عصره من تردّ سياسي وفساد اجتماعي وأخلاقي، وانجذاب مادي.

2 . إنَّ شعر الزهد عند الإلبيري يحمل من المعاني الإسلامية ما لا يمنعنا أن نقرّر أنّ المنبع الأول الذي استقى منه ثقافته الرّوحية كان إسلاميا قوامه حياة النّبي وأصحابه، ومرجعه كتاب الله وسنّة رسوله، فقد كان القرآن الكريم والحديث الشّريف مصدرين أساسيين عكف عليهما الشاعر، ورافدين هامّين في ثقافته، وقد تعامل معهما تعاملا يدّل على وعيه الشّديد بما يمارس من عمل ، واستغّل كل طاقاته الإبداعية في الوصل بين تجاربه ونصوصهما.

3 . إنَّ زهد الإلبيري يقوم في كثير من جوانبه على فلسفتين لا تخلوان من قسوة ، وهما الفلسفة الرّوحية التي تعلي من شأن القيّم الرّوحية على حساب القيّم المادية ، والفلسفة التّشاؤمية التي ترمق الدنيا بعين ساخطة ، كونها مكمن الشّر.

4 . إنَّ الزّهد لدى الإلبيري يعدّ نزعة ذاتية صادقة ،وتصدر عن وعي وإدراك وإيمان، لذلك وجد الطّريق أيسر له للوصول إلى وجدان النّاس ، ما جعل شعره يقتحم عليهم حياتهم رغبة فيه ، وهو ما يعكسه غرامهم بحفظه.

5 . إنَّنا حين نقرأ هذا الشعر . شعر الزهد . ونسمعه ،نقف خاشعين أمام شعور إنساني عميق ، وأمام تعبير تصويري موح، يدعّم المشهد بالصّور الرّوحية، ويهمس فيه بالوجدانات والأحاسيس ، ويرتفع إلى أرقى درجات الشعر الإنساني بكلّ قيَّمه التَّعبيرية والشّعورية .

6 . إنَّ شعر الزهد عند الإلبيري ، في جانب كبير منه يولي اهتماما كبيرا لعنصر الفكر، ويقوم في جزء كبير منه على التَّأمل والاستبصار ، وفي مثل هذا الشعر يتقلَّص دور الخيال وتزداد جرعة الدَّلالة المباشرة.

7 . ما دامت الحياة الدنيا فانية ، وكلّ شيء فيها إلى زوال، كانت الأخلاق هي الزّاد الذي تزوّد به الزّاهد في رحلة الحياة الدنيا، والجسر الذي يعبر به إلى عالم الآخرة ، فقد وجد الشاعر في الأخلاق الحسنة العزاء لما فقده في مجتمعه من مثل وقيّم ، وألف في التّحلي بها المفر من وجه هذه الحياة المتجهم.

ب/النتائج الفنية والجمالية:

على الرّغم من أنّ شعر الزهد عند الإلبيري، شعر تربوي إصلاحي ، يعتمد أسلوب الخطاب المباشر الموجّه لعامة الناس ،إلاَّ أنّ الهيكل الشعري الذي بني عليه وفاحت منه معانيه، و روح الشاعر المنضوية تحت عباءة الواعظ الزاهد ، جعلت من نصّه يقترب من الشعرية و الفنّية والأدبية ، أثارت فينا الإعجاب ، ممّا استدعى منّا القراءة والدّراسة ، فكان أهمّ ما وقفت عليه دراستنا في هذا المجال ما يلي:

1 . فيما يخص اللّغة في شعر الزهد عند لإلبيري ، لاحظنا أنّ المعجم اللغوي كان يدور حول المعاني الزّهدية ،وأنّه جاء زاخرا بالكلمات التي تنتمي إلى عالم الوجدان والشعور، وانّ التأثر فيه كان قويا بالقرآن الكريم والحديث الشريف والتراث العربي القديم ، وكان منجذبا في جانب منه إلى أسلوب الوعّاظ والخطباء ، وأنّه اتّسم بالسّهولة وتجنّب الغريب ،كما بُرّئ من عدوى التّصنع والتكلّف الذي أصيب به كثير من الشعراء ، ولا سيما في الفترة التي عاصرها.

2 . وفيما يخص الصورة الفنية في شعر الزهد عند الإلبيري ، فقد وجدناها تتراوح في مستواها الفني بين الضّعف والجودة ،فقد تضعف حتى يصبح الشعر سردا مباشرا ونظما يفتقد حرارة العاطفة وحيويّة الشعر ،وقد تقوى حتى تحلّق في سماء الخيال وترسم اللوحات الفنية الجيّدة، خاصة في تقريب الأشياء المتباعدة ،وذلك بالاستعانة بألوان البيان كالاستعارة والكناية والتّشبيه والمجاز المرسل.

3 . وفيما يخص الجانب الموسيقي ، فقد وجدنا أن شعر الزهد عند الإلبيري استأثر بالبحور الكاملة ، ولاسيما ذات المقاطع الكثيرة كالوافر والكامل، وإنّه كان في سيره العام

يعتمد نظام القافية المطلقة والرّوي الواحد للقصيدة، إلاّ في بعض القصائد القليلة التي جاءت مقيّدة، كما اعتمد في التّنويع الإيقاعي على بعض التّوازنات الصوتية كالتّكرار والتّجنيس.

وجامع القول بين محوري النّتائج الفكرية والفنيّة ،هو أنّ الشاعر أبا إسحاق الإلبيري قد وصل إلى حدّ من التّوفيق في ترويض جموح الشعر واعتلاء صهوته ونقل معانيه الزّهدية والتّربوية في شكل فنّي مستطعم لدى ذوق المتلقي ، لذلك لم يكن اعتباطا نعته من قبل شاكر الفحام بأحد فرسان شعر الزهد في عصره . كما سبق وأن أشرنا إليه في مقدمة هذه الدّراسة . وهو ما جعل التّلاقح بين الشعر و الفكر يتحقّق في قصيدة الزهد للإلبيري ،ما أعطى انطباعا بأن لا غرابة في الانجذاب والتّمازج بين الطرفين، فكلاهما يحرّكه الوعي الدّاخلي الذي يدفع به إلى السّطح ليتوالد ويستفز الحس الجمالي لدى المتلقي ليثير فيه النّشوة والانبهار ، ويقدّم له عالما مثاليا بديلا عن واقعه المعيش.

قائمة المصادر والمراجع :

أ/المصادر:

. القرآن الكريم.

1. ابن الأبار:التكملة لكتاب الصلة.ج1.تح.عبد السلام الهراس.دار الفكر .بيروت . لبنان . 1995
2. ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده. تح. محي الدين عبد الحميد. دار الجيل. بيروت. لبنان.ط4. 1972.
3. ابن سعيد :المغرب في حلى المغرب.تح.شوقي ضيف.دار المعارف. القاهرة . مصر. ط4.
4. ابن طباطبا:عيار الشعر.تح. محمد زغلول. دار المعارف. الإسكندرية.مصر.ط3. دت.
5. ابن قدامه المقدسي : كتاب التوابين. تح. خالد عبد اللطيف السبع العلمي.دار الكتاب العربي. بيروت.لبنان.ط1. 1425هـ .2004م
6. ابن قيم الجوزية : الفوائد. تح. أبو عبد الرحمان فواز أحمد زمرلي. دار ابن حزم.
7. ابن منظور : لسان العرب. تق. العلامة الشيخ عبد الله العلايلي .تص. يوسف الخياط. دار لسان العرب .بيروت .لبنان.
8. أبو إسحاق الإلبيري: الديوان.تح.محمد رضوان الداية .مؤسسة الرسالة.بيروت.لبنان. ط1. 1976.
9. أبو العتاهية :الديوان .تق.مجيد طراد. دار الكتاب العربي .بيروت .لبنان. 1425 هـ 2004م.
10. أبو الفرج ابن الجوزي :بستان الواعظين ورياض السامعين.تح. محمد الاسكندراني . دار الكتاب العربي.بيروت . لبنان. ودار الأصالة .الجزائر.1425 هـ –2005م
11. أبو فرج الأصفهاني :الأغاني. تح. إبراهيم الأبياري . دار الشعب. 1969
12. أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين.دار الكتاب العربي.
13. أبو عبد الله القرطبي: قمح الحرص بالزهد والقناعة. تح . الصادق بن عبد الرحمان الغرياني.دار ابن حزم. بيروت.لبنان ط1. 2006.

14. البخاري: صحيح البخاري.ضبط. محمد عبد القادر أحمد عطا. دار التقوى. القاهرة . مصر

15. الترمذي : الجامع الصحيح سنن الترمذي.تح .محمد فؤاد عبد الباقي.دار الكتب العلمية.بيروت.لبنان.

16. الجاحظ:البيان والتبيين : تح.عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. مصر . ط4 . 1975.

17. الضبي : بغية الملتمس في تاريخ أخبار الأندلس.تح.إبراهيم الأبياري . دار الكتاب اللبناني.

18. القشيري : الرسالة القشيرية.ش.أبي يحى زكريا الأنصاري الشافعي. مؤسسة الكتب الثقافية. بيروت. لبنان. ط1.

19. المبرد : الكامل في اللغة والأدب.تح.عبد الحميد هنداوي.دار الكتب العلمية بيروت . لبنان. ط1. 1419 هـ - 1999 م.

20. المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تح.يوسف الشيخ محمد البقاعي. ط1. 1998.

21. عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة .تح.هـ.ريتر.دار المسيرة .بيروت.لبنان. ط3. 1983.

22. عبد الله بن عجيبة :معراج التشوف إلى حقائق التصوف.تح.عبد المجيد خيالي. مركز التراث الثقافي العربي.الدار البيضاء. المغرب.ط1. 1425 هـ . -2004م .

23. قدامة بن جعفر: نقد الشعر .تح. محمد عبد المنعم خفاجي.دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.

24. لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام.تح.ليفي بروفنسال .دار المكشوف

25. مسلم : صحيح مسلم . شرح النووي.دار الفكر. 1981.

ب/المراجـــع

26. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي. دار الثقافة للنشر والتوزيع. القاهرة .مصر.

27. أحمد الشايب :أصول النقد الأدبي.مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. مصر. ط1.

2003
28. أحمد أمين : ظهر الإسلام .مكتبة النهضة المصرية .القاهرة .مصر. ط2. 1959.
29. أحمد بن حنبل الشيباني:الزهد. تخ. محمد بن عيادي بن عبد الحليم .مكتبة الصفا. القاهرة . مصر.ط1. 1424 هـ -2003م.
30. أحمد فلاق عروات :فكرة الموت في التراث العربي.الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب وتطويرها .الجزائر.2005
31. أحمد محمد الشيخ: دراسات في علم العروض والقافية.الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان .ليبيا. ط2.
32. أحمد مختار العبادي :في تاريخ المغرب والأندلس.دار المعرفة العلمية. القاهرة مصر.2005
33. أحمد مطلوب :الصورة في شعر الأخطل الصغير.دار الفكر. الأردن.1985.
34. أماني سليمان داود: الأسلوبية و الصوفية-دراسة في شعر الحسين بن منصور الحلاج-وزارة الثقافة . عمان .الأردن. ط1. 1423هـ-2002م.
35. إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر.مكتبة الأنجلومصرية.القاهرة.مصر.ط3. 1965.
36. إبراهيم أنيس:الأصوات اللغوية .المكتبة الأنجلومصرية .القاهرة. مصر.ط5. 1979
37. إميل بديع يعقوب : المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر.دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.ط1. 1991.
38. إميل ناصيف : أروع ما قيل في الزهد والتصوف. دار الجيل.بيروت . لبنان .
39. إميليو غارسيا غومس:مع شعراء الأندلس والمتنبي.تح.الطاهر أحمد مكي. دار المعارف . القاهرة .مصر.ط3
40. انخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي. تح. حسين مؤنس. مكتبة الثقافة الدينية القاهرة. مصر
41. جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب .دار المعارف. القاهرة. مصر.
42. حسين الحاج حسين:أدب العرب في عصر الجاهلية. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت .ط1. 1984

43. رمضان الصباغ :في نقد الشعر العربي المعاصر – دراسة جمالية –دار الوفاء . الإسكندرية . مصر.ط1. 1998.

44. سالم عبد الرزاق سليمان المصري: شعر التصوف في الأندلس.دار المعرفة الجامعية الإسكندرية. مصر.

45. سيد قطب:النقد الأدبي وأصوله ومناهجه.دار الشروق.بيروت. لبنان.دت.

46. شكري محمد عياد:اتجاهات البحث الأسلوبي.أصدقاء الكتاب للنشر والتوزيع.مصر. ط2. 1996.

47. شوقي ضيف :تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس.دار المعارف. القاهرة. مصر.

48. شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي.دار المعارف. القاهرة. مصر.ط6. دت.

49. صلاح فضل : نظرية البنائية في النقد الأدبي. مكتبة الأنجلومصرية . القاهرة. مصر ط2. 1980.

50. عباس بيومي عجلان :عناصر الإبداع الفني في شعر الأعشى. دار المعارف .القاهرة مصر. ط1. 1980.

51. عبد الحكيم حسان : التصوف في الشعر العربي .مكتبة الآداب .القاهرة . مصر.ط2.

52. عبد الحكيم عبد الغني قاسم :المذاهب الصوفية ومدارسها.مكتبة مدبولي. القاهرة. مصر. ط2. 1999.

53. عبد الدايم صابر: موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور. مكتبة الخانجي. القاهرة . مصر. ط3. 1993.

54. عبد الرحمان بدوي : الشطحات الصوفية .وكالة المطبوعات .الكويت. ط3. 1978

55. عبد الرحمان تيبرماسين :البنية الإيقاعية للقصيدة الجزائرية المعاصرة في الجزائر. دار الفجر للنشر و التوزيع.القاهرة. مصر.

56. عبد الستار محمد ضيف: شعر الزهد في العصر العباسي. مؤسسة المختار للنشر والتوزيع . القاهرة.مصر.ط1. 1426 هـ –2005 م.

57. عبد العزيز عتيق : الأدب العربي في الأندلس. دار النهضة العربية.بيروت. لبنان.

58. عبد القادر هني: مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي قبل سقوط قرطبة .دار الأمل . تيزي وزو. الجزائر.

59. عبد الله الطيب المجذوب : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها.مطبعة الحلبي. ط1. 1374 هـ-1955م.

60. عبد المالك مرتاض:الأدب الجزائري القديم – دراسة في الجذور- دار هومة.الجزائر. 2003.

61. عز الدين إسماعيل :التفسير النفسي للأدب .دار العودة. بيروت. لبنان. ط4. 1981.

62. على الغريب محمد الشناوي : الصورة الشعرية عند الأعمى التطيلي.مكتبة الآداب . جامعة المنصورة. مصر.ط1. 2003.

63. علي البطل :الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري – دراسة في أصولها وتطورها – دار الأندلس. بيروت .لبنان. ط1. 1981

64. علي محمد سلامة : الأدب العربي في الأندلس.الدار العربية للموسوعات.ط1. 1989

65. عمر الدقاق:ملامح الشعر الأندلسي.دار الشرق العربي. بيروت .لبنان. دت.

66. فايز الداية:جماليات الأسلوب- الصورة الفنية في الأدب العربي . دار الفكر. دمشق سوريا. ودار الفكر المعاصر.بيروت .لبنان. ط2. 1996.

67. كاميليا عبد الفتاح :الشعر العربي القديم .دار المطبوعات الجامعية.الاسكنرية. مصر. 2008

68. محمد الصادق عفيفي :ثورة الخمريات وثورة الزهديات.دار الفكر.بيروت. لبنان . ط1. 1971.

69. محمد العريس :موسوعة شعراء الأندلس.دار اليوسف.بيروت. لبنان.ط1. 2005.

70. محمد حسن عبد الله :الصورة والبناء الفني.دار المعارف. القاهرة .مصر. 1980.

71. محمد حسين قجة: محطات أندلسية.الدار السعودية .جدة.السعودية.ط1. 1985.

72. محمد رضوان الداية : المختار من الشعر الأندلسي.دار الفكر المعاصر . بيروت. لبنان.

73. محمد زكريا عناني :في الأدب الأندلسي.دار المعرفة الجامعية .الإسكندرية مصر.

74. محمد زكي العشماوي :قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث.دارالنهضة العربية. لبنان.

.1979

75. محمد شهاب العاني: أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي منذ الفتح حتى سقوط الخلافة. دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد.العراق. ط1. 2002.

76. محمد عويس : من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي .مكتبة الأنجلومصرية . القاهرة. مصر.ط1. 1986.

77. محمد فتوح أحمد:واقع القصيدة العربية.دار المعارف. القاهر. مصر.ط1. 1984

78. محمد فتوح أحمد: شعر المتنبي قراءة أخرى.دار المعارف. القاهرة. مصر.1983

79. محمد مصطفى حلمي :الحياة الروحية في الإسلام.الهيئة المصرية للتأليف والنشر. 1970.

80. محمود المصري : رحلة إلى الدار الآخرة .مكتبة الصفا. القاهرة.مصر. ط1. 2005.

81. مريم قاسم الطويل : مملكة غرناطة في عهد بني زيري.مكتبة الوحدة العربية.الدار البيضاء. المغرب. ودار الكتب العلمية.بيروت. لبنان.ط1. 1994

82. مصطفى سويف: الأسس النفسية للإبداع الأدبي في الشعر خاصة .دار المعارف. القاهرة. مصر.ط3. 1969.

83. منجد مصطفى بهجت :الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي.مؤسسة الرسالة. بيروت. لبنان. ط1. 1986.

84. موسى بن محمد الملياني الأحمدي نويوات:المتوسط الكافي في علم العروض والقوافي. المؤسسة الوطنية للكتاب.الجزائر.ط3. 1983.

85. هنري بيرس : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف.تر. الطاهر أحمد مكي دار المعارف. القاهرة .مصر.ط1. 1988.

86. يوسف حسين بكار: بناء القصيدة في ضوء النقد العربي القديم .دار الأندلس. بيروت.لبنان. ط2. 1982.

المجـلات

87. زينب بوصبيعة: مجلة دراسات أدبية وفكرية.ع2.جامعة الأمير عبد القادر. قسنطينة.

الجزائر .1425 هـ-2004م